

فصول شقير


الشيخ السري

تحت إشراف وتقديم
مؤسسة الدراسات والبحوث الإسلامية

مكتبة
بدرت



Bibliotheca Alexandrina



81770493

5
5
4

20637

الهيئة العامة لكتبة الإسكندرية	
رقم التصنيف:	٩٦٢-٤
رقم التسجيل:	٥١٠٤

٩٦٢-٤

شقي
ت

نعوم شقيير

ناتخ السؤدات

تحقيق وتقديم
الدكتور محمد إبراهيم أبو سليم

دار الجيد
بيروت

طبعة جديدة

١٩٨١

جميع الحقوق محفوظة لدار الجيل

الفصل الثالث

في

غدر الملك نمر وقتل اسماعيل باشا

سنة ١٢٣٨ هـ : ١٨٢٣ م

تقدم ان اهل سنار تحركوا للثورة مدة غياب اسماعيل باشا في فازوغلي وان اسماعيل باشا أسرع الى سنار فأخذ الثورة ولكن بقيت تحت رماد وما زال بعض الرؤوس يتربصون الفرص ليضرموها وكان اول من حاول ذلك رجب ود عدلان وأخوه عليّ فأرسل اسماعيل باشا ببعض العساكر فقتلوا رجباً علي فراشه وأتوا اليه بعليّ أسيراً فقتله شنقاً .

ثم بلغه ان الملك نمرأ ملك السعداب في شندي متحفز للقيام فجهز بعض العساكر وأرسلها في المراكب وذهب بنفسه في شهر صفر سنة ١٢٣٨ هـ اكتوبر سنة ١٨٢٣ م قاصداً شندي فوصلها في شهر ديسمبر من السنة المذكورة . وحال وصوله أمر بإحضار الملك نمر فتهدده قيل وضرب عليه جزية قدرها ألف اوقية ذهباً وألف جبل أصهب وألف ناقة منتجة وألف بقرة وألف شاة وألف عبد وألف جارية فأظهر تمام الامتثال وأضمر الغدر . ثم أولم وليمة فاخرة في منزله ودعا اليها اسماعيل باشا وعساكره فأكلوا وأكثروا من شرب

المريسة فسكروا وناموا فجمع الملك نمر عبيده وذوي قريباه وأخبرهم بمطالبيب اسماعيل باشا وتهديده فأجمعوا على قتله هو وعساكره. ولما جن الليل أحاطوا المنزل بالهشم وأشعلوا فيه النار فاحترقوا جميعاً واسماعيل باشا من الجملة قيل ان حاشية اسماعيل باشا لما التهب النيران وقعوا عليه قصد وقايتة منها فماتوا فوقه حرقاً اما هو فلم تمسه النار فمات خنقاً . وانتشر خبر هذه الفعلة في أقطار السودان فنشط الكثير من الرؤوس للثورة وفرّ الارباب دفع الله المار ذكره من ود مدني ونزل في حلة عبود فتجمعت عليه الجموع فشغل به محمد سعيد افندي عن الملك نمر وأرسل سرية من الفرسان لمطاردته فخرجوا من ود مدني ليلاً وأصبحوا في عبود فوجدوا الارباب دفع الله قد فرّ يجموعه فقتلوا الفقيه محمداً ولد عبد العليم خليفة ولد عبود وخربوا الحلة ونهبوا أموالها وعادوا الى ود مدني . اما الارباب دفع الله فانه فرّ الى ابي شوكة واجتمع على حسن ود رجب المار ذكره فأرسل اليها محمد سعيد افندي سرية من عساكر الدلتلية والشايقية برئاسة مصطفى كاشف فقاتلها قتالاً شديداً وقتل حسن ود رجب وعمه الشيخ حسيناً وابنه محمداً وجماعة من رجاله وغنم منها غنائم ثينة ورجع الى ود مدني .

وفي أثناء ذلك بلغ الدفتردار في كردوفان خبر اسماعيل باشا فخرج من فورهِ بمعظم العساكر وأتى الى المتمة فوجد أهلها قد اجتمعوا جمهوراً واحداً طالبين الأمان فأمتهم ثم وثب عليه رجل منهم فطمعنه بجرية فاشتعل غيظاً وأمر بقتلهم جميعاً ولجأ بعضهم الى خلوة الفقيه احمد الريح فأمر باحراقهم فيها . ثم عبر النيل الى شندي فوجد الملك نمرأ قد فرّ فأحرق المدينة وسار الى الحلقاية فوجدها خالية فأحرقها ايضاً واجتاز النيل الى جزيرة توتي فقتل فيها خلقاً كثيراً. ثم ذهب الى الميلفون وكان أهلها قد تجمعوا لمصادمته فأحدث فيها مجزرة عظيمة وأحرق الحلة بالنار وسبى الكثير من العبيد والاحرار . ثم توجه الى ود مدني فبلغه هناك ان أهالي البحر الابيض قد شقوا المعصا فأرسل حسين اغا الجوخدار فقتل وسبى ونزل على بيت الفقيه فضل الله من فريق النقاير فوجد

٧٢ رجلاً من الجعليين قد التجأوا اليه فقطع أيديهم وساقهم الى الاسر فمات أكثرهم. ولما تمهدت بلاد النيل عاد الدفتردار الى كردوفان ولكن لم يكن إلا القليل حتى بلغه ان الملك نمرأ عاد الى شندي فجاءها في عامه فلبجأ الملك نمر ثانية الى الفرار ومعه الملك المساعد وأقام بمحل في البطانة يقال له النصب فلاحق به ومعه بعض العساكر التركية والشايقية فصمد له الملك نمر فواقعه في واقعة شديدة وقتل من جيشه خلقاً كثيراً وفيهم الملك المساعد واضطره الى الفرار وعاد الدفتردار بالأسرى الى ام عروق جنوب ود مدني، قبيل وقد جمع الاسرى في زريبة من شوك وتركهم في الشمس لا يظللهم شيء وأجرى عليهم الماء بالجداول فمات أكثرهم من شدة الكرب ومنهم من افتداه أهله بمال جزيل ومن بقي جعل لهم داغاً في أكفهم بين الابهام والسبابة وأرسلهم الى محمد علي باشا في مصر فنظم العبيد منهم في جيشه وأذن للأحرار في العودة الى بلادهم وقال «ان هذا فتح فلا غرواً اذا حصل فيه ما حصل من الجعليين» فعاد أكثرهم وأقام الباقون في القاهرة في مكان تحت القلعة يعرف بجوش الجاموس وما زالت ذريتهم هناك الى هذا العهد .

وكان الشيخ بشير ود عقيد الجعلي المسلماني هو الذي دلّ الدفتردار على زعماء الثورة من الجعليين فقربه الدفتردار وجعله رئيساً على الجعليين مكان الملك نمر .

الملك نمر وأولاده على حدود الحبشة: أما الملك نمر فانه بعد انكساره في النصب فرّ بمن بقي معه من الاتباع قاصداً الحبشة قيل فاشتد بهم العطش في الطريق ولم يكن معهم إلا بضعة جمل للركوب فوقف الملك نمر وأرسل بعض رجاله بالجمال الى أقرب الآبار فأتوه بماء قليل فجمع أتباعه وقال الماء لا يكفي الجميع فنسقي الآن الهرو أي الضعيف الهزيل ونترك النسيط الى ان نرد الماء فنشرب كلنا ثم ناداهم رجلاً رجلاً وسأل كلا منهم عن حاله وجمع الهرو في صف والنسيط في صف آخر فاجتمع في صف النسيط نفر قليل فوزع الماء بين هؤلاء على التساوي وقال « ان الذي يصبر على العطش يصبر على الحرب

وحاجتنا الآن الى مثل هؤلاء ، وترك الهرو في الصحراء يموتون عطشاً وسار
بالأشداء والماء قاصداً الحبشة . وكان على الحبشة في ذلك الحين الراس علي
مقيماً في ولغايت فقصر عليه قصته مع الحكومة المصرية واستأذنه في الإقامة
في حدود بلاده فأذن له فنزل برجاله في دار غبطه وأجرى لهم الراس علي
مرتباً يقتضونه من اهل الدار من غلال وخرقان وبقر وسمن وعسل على قدر
حاجتهم وأوعز الى مشايخ غبطه باكرامهم الى ان يتوطنوا فيعولوا أنفسهم .
وكان عدد الذين وصلوا مع الملك نمر ١٢٠ رجلاً ما عدا النساء والاولاد وفيهم
تسعة من اولاده وهم محمد واحمد وعمر وعمار والحسن وخالد وسعد وأبو بكر
وعثمان . فأقام الملك نمر في غبطة سنتين ومات وخلفه ابنه عمر وسمع الجعليون
وسكان النيل بتوطن السعداب في غبطة فاجتمع عليهم المتشردون وقطاع
الطرق وكل من فر من وجه الحكومة من ظلم وقع عليه او ذنب جناه او دين
لا طاقة له على ايفائه حتى كثر عددهم وضاعت بهم الدار فسألوا الراس علياً
ان يأذن لهم في النزول في دار ميقبة على ست ساعات من غبطة لأنها كانت
داراً رحيبة وفيها أودية خصبة وأراضٍ زراعية متسعة فأجابهم الراس علي
الى ذلك فانتقلوا الى ميقبة وأقاموا فيها على سعة وصاروا على ازدياد حتى
عظمت نفوسهم فأخذوا يغزون بلاد الحكومة مثل بني عامر والشكرية
والضباينة والتكارنة كما سيجيء .

هذا ما كان من الملك نمر وأولاده وأما الدفتردار فإنه بقي في ام عروق
يتعقب المعصاة في كل الجهات وينكل بهم حتى جاءه الأمر فنزل الى مصر
ومعه السيد احمد السلاوي الحنفي المار ذكره وتتابع بعده الولاة الآتي ذكرهم
على السودان الى ان كانت الثورة المهدية .

الفصل الرابع

في

ولاية السودان

١ - عثمان بك سنة ١٢٤٠ : ١٢٤١ هـ - ١٨٢٥ : ١٨٢٦ م

ولما كانت سنة ١٢٤٠ هـ ١٨٢٥ م سمي الميرالاي عثمان بك والياً على السودان فذهب اليه ومعه آلاي من الجنود المنظمة الذين عرفوا بالجهادية ونزلوا في الخرطوم فأتاه الشيخ شنبول من ود مدني فأكرمه وكساه وقلده المشيخة على جميع البلاد من حجر المسل الى جبال الفونج . وأتاه الشيخ عبد الله عمر فقتله بقنبلة مدفع. ثم أقام عثمان أغا الخربوطلي وكيلاً عنه في الخرطوم وأمره بقتل الفقيه الارباب ودالكامل بقنبلة مدفع وتوجه هو الى ود مدني فقتل عدة رجال بقنابل المدافع فعظم ذلك على الأهلين ونفرت قلوبهم من الحكومة وأخذوا يهاجرون الأوطان . وكان السيد احمد البقلي المفتي الشافعي لا يزال في ود مدني فأرجعه الى مصر لعدم وجود شافعية في السودان .

ثم انتقل الى الخرطوم ونقل اليها اقليم الحكومة ومستودع الفرسان والمخازن والاشوان وجعلها مركزاً له فبقيت مركزاً للولاية وعاصمة للسودان

وهي تنمو وتتقدم الى قيام الثورة المهديية . وضرب عثمان بك الضرائب على
الاهلين وأرسل الجنود في تحصيلها فعاثوا وأفسدوا وضيقوا على الرعية فكثرت
عدد المهاجرين من اهل البلاد وهاجر بعضهم الى القضايف فأرسل خلفهم ابراهيم
افندي فقتل منهم خلقاً كثيراً . وفشا فوق ذلك مرض الجدري واشتد الغلاء
حتى بلغ ثمن الرطل المصري من الذرة غرشاً واحداً وأكل الناس الكلاب
والحمير فكانت مدة عثمان بك بلاء ذهب فيه نحو نصف السكان من المرض
والقحط والقتل والظلم ولكن لم تطل مدته فقد أصيب بداء السل وتوفي في
منتصف شهر رمضان سنة ١٢٤١ هـ ٢٢ ابريل ١٨٢٦ م قبل تمام الستين ودفن
في الخرطوم .

٢ - محو بك سنة ١٢٤١ هـ : ١٨٢٦ م

وأرسل وكيله الى محو بك في بربر يخبره بما حدث فحضر الى الخرطوم
وتولى زمام الاحكام فيها ثم رجع الى بربر وأحضر الجنود منها فجعلهم في قبة
خوجلي تجاه الخرطوم وأقام هو في الخرطوم وكان رجلاً شفوفاً عاقلاً حسن
التدبير فمنع تعدي الجنود عن الاهلين ودعا عمد البلاد وأعيانها واستشارهم في
ما يكون به راحة الاهلين فأعجبه رأي الشيخ عبد القادر ود الزين وكان اذ
ذاك شيخ خط فقلده شياخة قسم الكوع وكساه كسوة فاخرة . ثم أخذه
وذهب الى القضايف فأرسل الذرة منها الى بلاد الجزيرة التي كانت لم تزل تقاسي
من الجوع وارتاح الناس الى حكمة كل الارتياح . الا ان جنوده المعروفين
بالبيرقية لم يقتدوا به فخرّبوا حلة القبة التي نزلوا بها وخرّبوا ما حولها . وكانت
مدته بضعة اشهر . وفيها مات جماعة من الفقهاء بمرض الجدري وبينهم محمد
نور خليفة خوجلي والفقير السيد حماد والفقير محمد زروق والشيخ ادريس الذي
ولاه عثمان بك منصب القضاء وغيرهم . وقد بنى محو بك في الخرطوم بناية
خاصة لأقلام الحكومة وحفر بئراً قرب بربر عرفت باسمه وكان في جنوبي
الخرطوم شجرة كبيرة عرفت باسمه ايضاً .

٣ - خورشيد باشا سنة ١٢٤١ : ١٢٥٤ هـ - ١٨٢٦ : ١٨٣٩ م

وفي غرة ذي القعدة سنة ١٢٤١ هـ ٦ يونيو ١٨٢٦ م حضر خورشيد باشا والياً على السودان فاستقبله محوبك في ام درمان وخلا به مدة ثم أحضر الشيخ عبد القادر وقدمه اليه وقال : « ان عمران البلاد برؤوسها اهل الرأي فخذ برأي هذا » ثم توجه الى المحروسة واجتاز خورشيد باشا النيل الى الخرطوم فعمل بوصية محوبك وقرّب اليه الشيخ عبد القادر فهرع مشايخ البلاد وأعيانها للسلام عليه فقابلهم بالبشر والايناس ووعدهم بالراحة وأطلق سراح المسجونين من ايام عثمان بك .

وبعد حضوره بشهر أي في شهر الحجة هطلت أمطار غزيرة فزرع الناس وأمنوا شر القحط . وفي هذا الشهر غزا البحر الابيض فأصاب مغنماً كثيراً ثم توجه الى « دار الابواب » في النيل الكبير فقبض على الشيخ بشير ود عقيد المار ذكره لكثرة ظلمه في الرعية واهانه وغرمه مالا جزيلا . وعاد منه الى البحر الازرق فغزا عربان العجبة بجهاث سيرو وغنم منهم .

ثم رجع الى الخرطوم وجمع مشايخ البلاد وسألهم ان يختاروا شيخاً لينوب عنهم لديه في تعديل الضرائب فاختاروا الشيخ عبد القادر فاستعان به على تعديلها وقلده المشيخة على جميع البلاد من حجر العسل الى جبال الفونج وخلع عليه كسوة فاخرة وسيفاً .

وقد سحب خورشيد باشا من مصر السيد احمد افندي السلاوي المار ذكره قاضياً عاماً للسودان وصحبه جماعة من معاونين بينهم موسى كاشف وكلهم من اصحاب الرأي وراتب كل منهم سبعة أكياس وكان لا يقطع امراً بلا مشورتهم ومشورة المباشر ميخائيل ابي عبيد .

الشيخ ادريس وجبال الفونج: وفي محرم سنة ١٢٤٣ هـ يوليو سنة ١٨٢٨ م غزا بلاد الدنكة وتوجه منها الى جبال الفونج وكان عليها الشيخ ادريس ود عدلان المار ذكره فأقره في مكانه وعاد الى الخرطوم . وقد اشتهر الشيخ

ادريس في حب جارية تسمى تام زينة فكان لها سلطة عجيبة عليه . قيل انها كانت تكره ابا روف شيخ عربان رفاة الهوي الذي تزوج باحدى بنات الهمج وبنى حول منزله زريبة مثل زرائب الهمج فاستاءت تام زينة من ذلك وقالت للشيخ ادريس « أما كفى انك زوجت هذا البدوي من بنات عمك حتى سمحت له ببناء زريبة مثل زربيتك » فأمر الشيخ ادريس ابا روف ففتح في زربيته عدة ابواب لتتميز عن زرائب الهمج . على ان حب تام زينة للشيخ ادريس لم يكن اقل من حبه لها ومن نوادرها معه انها كانت اذا سأها العصر في رمضان هل غابت الشمس يا تام زينة فتجيب على الفور « شمسك غابت يا سيدي ولكن شمس الناس لم تغب » . وكان اذا خرج للتنزه خرجت معه تام زينة واحتاطه جماعة من جواريه فحملن أذيال ثوبه واذا جلس جلسن عن جانبيه يتلقين أوامره .

وكان للشيخ ادريس بنت تسمى نصره فزوجها رجلاً من حوش بان النقا فاقتنى السراري حسب عادة الاعيان في السودان فانكرت عليه ذلك وسألته ان يترك جميع سراريه ويكتفي بها ولما لم يفعل اقتنت نفرأ من العبيد المرد وقالت لزوجها « ان طلقت سراريك طلقت عبيدي وإلا فنحن في الحق سواء » فطلق سراريه . وخلف ادريس ود عدلان على الهمج ابنه رجب ثم محمد بن رجب الذي بقي الى ايام الثورة المهدية .

وفي سنة ١٢٤٣ هـ ١٨٢٨ م عصي الشيخ خليفة ابن الحاج المبادي ابو حسين باشا خليفة وهاجم الجنود في بربر فجهز له خورشيد باشا ولكنه لم يصل الى بربر حتى كان الجنود قد سكتوا الفتنة وقتلوا الشيخ خليفة المذكور فماد الى الخرطوم .

وفي سنة ١٢٤٤ هـ ١٨٢٩ م غزا جبال « ابو رملي » وعاد منها غنائمًا . وكان أعظم ما وجه اليه اهتمامه تعمير البلاد ورد الأهالي الذين كانوا قد هجروا الاوطان في ايام الدفتردار وعثمان بك فأصدر منشوراً عاماً بالأمان للهاجرين الذين لجأوا الى دارفور وجبال النوبة والملك نمر ودار المعطيش على

حدود الحبشة . وكان في جملة اللاجئين الى دارفور محمد صالح ثروة الجملي المار ذكره فصادف هناك نجاحاً عظيماً وجمع ثروة طائلة حتى هان على الناس الرحيل عن الاوطان بسببه ومن ذاك قول بعض شعرائهم يتذمّر من ظلم الحكام وينبسط ود ثروة :

ان كان الترك حوض رمله حوض الرملة قط ما يبروى
شن بيناتنا من غير سروه لمكان ما سكن ود ثروه

فكان لمنشور خورشيد باشا تأثير حسن . وأشار عليه الشيخ عبد القادر باعفاء الفقهاء والاعيان من الضرائب حثاً لهم على المساعدة في تأمين الأهالي فعمل بمشورته فعاد الكثير من المهاجرين الى أوطانهم .

وفي سنة ١٢٤٥ هـ ١٨٣٠ م قدم الشيخ احمد الريح العركي من دار العطيش فأكرمه خورشيد باشا وكساه وأرجعه الى دارالعطيش لتأمين الفارين ثم ذهب بنفسه اليه فجمع ١٢ ألفاً وأرسلهم بالحرس الى أوطانهم . وأمن عرب الحمدة .

احتلال القلايات : وتقدم خورشيد باشا الى القلايات فسلمت له وكان أهلها التكارنة وهم متخلفو حجاج الغرب قد انتظم لهم مشيخة قائمة بذاتها واقتنوا نحاساً وصاروا يحتفلون بتجليده كل سنة في عيد الرجبية ويكسرون الضلع على نحو ما وصفناه في تاريخ الفور . وأول شيخ اشتهر لهم بعد الفتح المصري لسناار الشيخ عطرون فقتل في غزوة غزا بها الحمدة في دار العطيش . وخلفه الشيخ امام ثم الشيخ ميري وهو الذي سلم لخورشيد باشا . وكان التكارنة يدفعون مالاً للحبشة لأجل تعمير سوقهم فوضع عليهم خورشيد باشا جزية سنوية فقبلوها . ورأى خورشيد باشا أهمية مركز القلايات الحربي فجعل فيها حامية عسكرية مؤلفة من مئة جندي من الباشبوزق الاتراك وعاد الى الخرطوم بعد ان أخضع جبال قلي . ومن ذلك الوقت اشتهر امر القلايات واتسعت سوقها التجارية وكان لها في تاريخ السودان والحبشة أعظم شأن كما سيجيء .

وبعد رجوع خورشيد باشا الى الخرطوم شرع في بناء جامع وثكنة للجنود ومخزن لمهماتهم وأمر الناس بالبناء بالطوب لأنهم كانوا يبنون بالبوص وجلود البقر وقد أمدتهم بالاشخاش والالواح ترغيباً لهم في العماره .

وفي سنة ١٢٤٥ هـ ١٨٣٠ م غزا الشلك بالمراكب غزوة كبيرة فقتل منهم مقتلة عظيمة لم يروا مثلها الا في مدة الملك بادي رباط وعاد الى الخرطوم بغنائم وسبايا كثيرة . وفي تلك السنة توفي الفقيه عبد القادر ود ضيف الله . وزاد النيل زيادة عظيمة حتى خافوا على البلاد من الغرق .

وفي سنة ١٢٤٧ هـ ١٨٣٢ م غزا قبائل سبدرات وحصرهم حصراً شديداً الى ان أذعنوا له وطلبوا الأمان فأمتهم ورجع عنهم . وفيها حصلت زلزلة عظيمة اهتزت لها الارض . وفيها توفي الفاضل الشيخ قمر الدين ابن الشيخ حمد ود المجدوب ودفن بالدامر وقد اشتهر بالصلاح والتقوى وهو صاحب طريقة المجاذيب المشهورة . وفيها توفي خربوطلي حسن كاشف حاكم اقليم الحلفاية والبحر الابيض ودفن في قبة خوجلي .

وفي سنة ١٢٤٨ هـ ١٨٣٣ م توجه خورشيد باشا الى كردوفان فتفقد أحوالها ورجع .

وفي سنة ١٢٤٩ هـ ١٨٣٤ م أنعم عليه برتبة اللواء وسمي حاكماً عاماً على السودان وفيها احتفل بختان أولاده احتفالاً عظيماً لم يسبق له مثيل في السودان فحضره جميع المديرين ورؤساء العساكر ومشايخ البلاد وأعيانها .

وفي سنة ١٢٥٠ هـ ١٨٣٥ م بنى جامعاً في سنار بأمر محمد علي باشا. وذهب مرة ثانية الى كردوفان ورجع . وفيها عقد لجنة في شندي حضرها القاضي العام وفائب الشرع وجميع المديرين لفصل الدعاوي التي أقامها الجعليون على بشير احمد عقيد في الأطيان التي استولى عليها من ايام الدفتردار وبقيت اللجنة الى ختام ذي الحجة سنة ١٢٥٠ هـ .

وفي غرة محرم سنة ١٢٥١ هـ ٢٨ ابريل ١٨٣٦ ذهب الى مصر بطريق دنقلة فأقام فيها بضعة أشهر ثم عاد الى السودان وقد رقي الى رتبة ميرميران .

وعند وصوله الى الخرطوم جمع الكشاف والمأمورين والمشايخ وخلا بالشيخ عبد القادر يومين فعرض عليه رأي تجنيد الأهالي فراجعه الشيخ عبد القادر في ذلك خشية تشتيت الاهالي وخراب البلاد فقر الرأي أخيراً على تكليفهم تقديم العبيد للعسكرية فجعلوا على كل مديرية عدداً معلوماً من الرقيق فجمعوا عدداً كبيراً .

ثم غزا خورشيد باشا جبال الصعيد فأحضر منها رقيقاً كثيراً أدخل بعضه في الجيش وفرّق البعض الآخر على المأمورين والجهات . وهاج الحبشة على الحدود فنزلوا ومعهم رجب ولد بشير الغول من شيوخ الحمدة الى دار العطيش وقتلوا الرجل الصالح ود عاروض وخلقا كثيراً فأرسل خورشيد باشا عليهم فرقة من العساكر الجهادية بقيادة محمد افندي فأسروا رجب ولد بشير وأتوا به الى خورشيد باشا في الرصيرص فقتله وشيخ على الحمدة احمد ابا جن وأسكنهم على نهر الدندر ورجع الى الخرطوم .

وفي تلك السنة رقي محمد افندي الى رتبة ميرالاي وأرسل بالعساكر السودانية الى الحجاز . وفيها كسفت الشمس بعد صلاة العصر نصف كسوف دام الى قرب الغروب .

وفي صفر سنة ١٢٥٢ هـ مايو ١٨٣٧ م هاجت ريح شديدة مدة يومين متواليين ففي اليوم الاول ثارت قرب العصر فحملت غباراً احمر اللون أظلم منه الجو ثم انجلت بسرعة وفي اليوم الثاني هاجت وأثارت غباراً اسود اللون فاشتدت ظلمة الجو الى غروب الشمس فتشاءم الناس من ذلك وتوقعوا شراً عظيماً فحصل على الأثر قحط شديد فأخرج خورشيد باشا مئة أردب ذرة وتصدق بها على الفقراء وأخرج مئة أردب من شون الميري وأمر ببيعها في السوق رفقا بالرعية وأقام صلاة الاستسقاء .

وقبل نهاية تلك السنة أصاب الناس الهواء الاصفر فمات فيه خلق كثير وكان في جملة من مات من الأعيان : الفقيه السنوسي ابن الفقيه بقادي . والفقيه النخلي مقرئ القرآن الشريف بجملة بقادي . والفقيه محمد الحاج الطيب امام

جامع الخرطوم ، والفقير محمد علي ود عباس ، والشيخ الطريفي ابن الشيخ يوسف ، والشيخ محمد ابن الشيخ حسن خليفه ولد بان النقا ، والشيخ سعد عبد الفتاح العبادي ، والشيخ مصطفى خليفة الشيخ دفع الله العركي . ولما اشتد المرض في الخرطوم ذهب خورشيد باشا الى شندي فأقام فيها . ومن هناك أرسل رجب بن بشير ود عقيد المتقدم الذكر الى الخرطوم فرُفع على خازوق . وبعد زوال الوباء رجع الى الخرطوم فهدم الجامع الذي كان قد أنشأه سنة ١٢٤٥ هـ لأنه اصبح صغيراً لزيادة العمارة في الخرطوم وأنشأ جامعاً أوسع منه بقي الى ايام الثورة المهديّة .

وفي تلك السنة ظهر نجم كبير نصف النهار وخرج منه شرار ! وفيها أصابت الناس حمى سميت أم سبعة هلك فيها خلق كثير ومات بها من الاعيان العوج الدرب ابن الفقيه محمد بركات من ذرية الشيخ ادريس المشهور بالكرم والجلود وقد سميت ام سبعة لأن من أصابته لم تمهله سبعة أيام ومن تجاوزها سلم منها .

وفي شهر رمضان من تلك السنة غزا احمد كاشف حاكم القضايف أطراف الحبشة فغنم وسبى وأرسل السبايا الى الخرطوم .

وفي ٩ محرم سنة ١٢٥٣ هـ ١٤ ابريل سنة ١٨٣٨م نزل الحبشة على القلابات وكانت حاميتها قد زيدت فقتلوا شيخها الشيخ ميرى والشيخ احمد عبود أحد سوارى الشايقية وخلقاً كثيراً من الجند والأهالي وأسروا بكباشي الاورطة وعلي اغا الصهيب سنجق المغاربة والمك سعداً من سوارى الشايقية وعادوا الى بلادهم وكانت الواقعة في كلتنبو قرب راشد فعرفت بواقعة كلنبو . قيل ان الشيخ احمد عبود لما رأى انكسار العساكر ولم يرَ فائدة من الدفاع افترش فروته فقتلوه عليها . فلما بلغ خورشيد باشا خبر الواقعة جهز جيشاً وسار الى الحبشة لأخذ الثأر تاركاً سليمان كاشف وكيلاً عنه في الخرطوم فدخل الحبشة فلم يقابله جيش فرجع الى القلابات بلا قتال فحصنها وزاد في حاميتها وقفل راجعاً الى الخرطوم .

وكان خورشيد باشا قد أرسل الى مصر في طلب المدد فلما كان ذو القعدة من تلك السنة حضر الى الخرطوم ميرميران « احمد باشا ابو ودان » ومعه الميرالاي فرهاد بك يجنود من مصر أمداداً له وأدركه فرهاد بك في الطريق فعادا معاً الى الخرطوم .

وفي تلك السنة حضر الميرالاي مصطفى بك من كردوفان مديراً على عموم جزيرة سنار . وفيها خسف القمر نحو ساعتين واشتد ظلامه .

٤ - احمد باشا ابو ودان سنة ١٢٥٤ : ١٢٥٩ هـ - ١٨٣٩ : ١٨٤٤ م

وفي ربيع الاول سنة ١٢٥٤ هـ مايو ١٨٣٩ م صدر الامر الى خورشيد باشا فنزل الى مصر واستلم احمد باشا ابو ودان زمام الحكمادارية مكانه فأسف الأهالي لفراقه لأنه ضم شملهم بعد الشتات وعاملهم بالعدل والرفق وكان الشيخ عبد القادر أكثر الناس غمّاً على فراقه وقد أوصي به احمد باشا فقرّب به ولم يقطع أمراً يتعلق براحة الرعية إلا بمشورته وشرع في الاحكام بحسن سياسة وبعد نظر فنظم الدواوين والمديريات وحسن حال الكتبة والموظفين ثم التفت الى أمر الضبط والربط فأبطل السخرة ومنع تعدي العساكر على الفلاحين ووطد الامن في البلاد حتى أمن المسافر والمقيم من حلفا الى أقصى حدود السودان وبذلك اطمأن الأهالي وزادت عمارتهم وخصبت ارضهم حتى صار أردب الذرة بخمسة قروش وأوقع الله هيبته في قلوب العباد مع انه لم يكن بذية اللسان ولا سفاكاً للدماء بل كان وقوراً كثير الصمت وكانت أوامره ونوايه مقصورة على ما قل ودل كقوله افعلوا او لا تفعلوا ولم يجسر أحد على مخالفتها . وسرت هيبته الى جميع فروع الحكمادارية حتى قيل ان الموظفين والمأمورين في الجهات كانوا يتوهمون انه مقيم بينهم يسمع ويرى فيحذرون في ما يفعلون كل الحذر .

زيارة محمد علي باشا للسودان : وفي أيامه توجه محمد علي باشا الى السودان لمشاهدة البلاد التي افتتحها وتفقد احوالها وكشف مناجم الذهب بنفسه فسار

من القاهرة في ١٥ أكتوبر سنة ١٨٣٩ م فوصل الخرطوم في ٢٣ نوفمبر وكان
احمد باشا اذ ذاك متغيباً في ود مدني فقايله وكيله مقلي عبد القادر اغا ثم حضر
واستأذن للقاضي والمفتي والعمام في مقابلته فأذن لهم قسرثوا من طلاقة وجهه
وحسن خطابه . وأقام ٢٢ يوماً في الخرطوم ثم سار الى جبال فازوغلي فوصلها
في ١٨ يناير سنة ١٨٤٠ وفي معيته احمد باشا الحكمدار . فاستقبله الشيخ الزين
والشيخ ادريس ود عدلان شيخ الهمج والشيخ احمد ابوسن شيخ الشكرية وسائر
مشايخ العربان والحللات فقابلهم بالبشر والايناس وأمر لهم بالكسبي على
حسب رتبهم . وقد بُني له قصر جميل قرب فامكة فأقام فيه مدة يبحث في
أمر المعدن فلم ترضه نتيجة البحث وقفل راجعاً الى الخرطوم فأقام فيها اياماً
قليلة واستطرد السير عن طريق كورسكو فوصل مصر في ١٤ مارس سنة
١٨٤٠ م .

وفي سنة ١٢٥٥ هـ ١٨٤٠ م توجه احمد باشا الى دنقلة للنظر في أحوالها
فأقام فيها اياماً وفي رجوعه بلغه في شندي فرار حمد ولد الملك نمر فذهب
خلفه بجريدة من الفرسان ومعه الملك كنبال فتجا حمد ولد الملك وقتل الملك
كنبال وعاد احمد باشا الى الخرطوم . وفي رابع شوال من تلك السنة توفي
العلامة البليدي المفتي .

وفي سنة ١٢٥٦ هـ ١٨٤١ م زاد البحر زيادة عظيمة . وفيها فتحت بلاد
كسلا ودخلت رسمياً في حوزة الحكومة الخديوية وهاك تفصيل الفتح :

فتح التاكا سنة ١٢٥٦ هـ ١٨٤١ م :

لما استتب الامر لأحمد باشا في الخرطوم وضواحيها اهتم باحتلال السودان
الشرقي وتمهيدته فقاد الجنود الى بربر وأرسل يطلب مشايخ البجة فأثاه الشيخ
محمد دين شيخ الهدندوة العمام مظهراً التسليم اما عوض مسبار كبير الحلانقة
المار ذكره في تاريخ سنار فانه أبى الحضور . وكان بين الحلانقة والهدندوة
عداوة قديمة وحروب متصلة فطلب محمد دين من احمد باشا ان يمدّه بنفر من

الجنود فيخضع الحلانقة له ويكفيه مؤونة تعبهم وهو انما أراد التنكيل بهم من جهة ومنع دخول الجيش الى بلاده من جهة اخرى فلم يجبه احمد باشا الى ذلك بل سار بنفسه مع الجيش قاصداً الحلانقة فلما ذاع الخبر اجتمع الحلانقة وعينوا محمد إيله شيخاً عليهم فخرج مع بعض وجهاء قبيلته لمقابلة احمد باشا والتسليم له فلقبه في قوز رجب على الاتبرة وقدّم له الطاعة وسأله ان يجعل مركز الجيش في بلاده . وكان الحلانقة مقيمين على القاش قرب جبل كسلا فلما رأى احمد باشا بلادهم أعجبه موقعها فبنى فيها استحكامات منيعة وجعلها مركزاً للجيش وحكومة السودان الشرقي وأقرّ محمد إيله على شياخة الحلانقة . اما عوض مسار فانه فرّ الى الحجاز عن طريق سواكن ثم عسّاد الى كسلا بأمان الحكومة فعين ابنه محمد شيخاً على القبيلة ومن ذلك الحين صار عائلتنا عوض مسار و محمد إيله يتناوبان مشيخة الحلانقة الى اليوم .

اما الهدندوة فانهم لما رأوا ان احمد باشا مال الى أضدادهم وجعل بلادهم مركزاً لحكومته ارتدوا عنه وجمعوا جموعهم في غابتي وهياي والكتياب شمالي كسلا فحوّل احمد باشا مجرى القاش ومنع عنهم الماء فعطشوا وأخذوا في التفرق ثم لما يبس الشجر أطلق النار في الغابتين فدعروا منها فلاحق بهم وقتل منهم خلقاً كثيراً وأسر شيخهم محمد دين وزجّه في السجن الى ان مات بداء الجدري .

وعاد احمد باشا الى الخرطوم بعد ان ولّى عمر بك كاشف مديراً على كسلا ثم عزل عمر بك وسمي فرحات بك مديراً فعصاه الهدندوة فاستعان بالحلانقة عليهم وقاتلهم حتى اضطرهم الى الطاعة وشيخ عليهم موسى ابراهيم ابن أخ محمد دين وأخذ منهم الجزية . ثم ارسل البكباشي الياس افندي قومندان الجهادية الى بني عامر فقاتلهم في الدقا وأرغمهم على الطاعة وضرب عليهم الجزية . وتوفي فرحات بك في كسلا ودفن فيها .

وبعد فتح التاكا رسمت خارطة السودان وقسمت الى سبع مديريات وهي : فازوغلي وسنار والخرطوم وكسلا وبربر ودنقلة وكردوفان فجعل

قومندان الجنود في كل مديرية مديراً عليها وُجِعت الخراطوم مركز السودان ومقر الحاكم العام .

وتوفي احمد باشا في رمضان سنة ١٢٥٩ هـ اكتوبر ١٨٤٤ م في الخراطوم ودفن فيها وكانت وفاته بغتة حتى قيل انهم دسوا له السم ليتخلصوا منه لأنه كان يحاول الاستقلال عن مصر. وبعد وفاته توضع حال الحكمدارية واختل نظامها واستقل كل مدير بمديريته وصار يفعل فيها ما شاء .

٥ - احمد باشا المنكلي سنة ١٢٥٩ : ١٢٦١ هـ - ١٨٤٤ : ١٨٤٥ م

وفي سنة ١٢٥٩ هـ ١٨٤٤ م سنة وفاة احمد باشا ابودان حضر احمد باشا المنكلي حاكماً عاماً للسودان ولم يمكث في الخراطوم إلا قليلاً حتى عاد أهل التناكه الى الثورة نظراً لسوء ادارة الموظفين وعدم كفاءتهم فجرّد جيشاً كبيراً وسار لقتالهم ومعه الارباب محمد دفع الله والشيخ عبد القادر والشيخ احمد ابو سن كبير الشكرية فأسر رؤوس العصاة وعاد بهم الى الخراطوم فضرب رقابهم وبقي في الخراطوم الى أواخر سنة ١٢٦١ هـ ١٨٤٥ م ثم عاد الى مصر ومعه الارباب محمد دفع الله والشيخ عبد القادر الزين المار ذكرهما فأنزلها محمد علي باشا في المسافرخانه وأمر باكرامها وبعد ثلاثة ايام طلبها وكرمها بلا واسطة قيل فأعجب بذلكه الشيخ عبد القادر وفصاحته وقال « ما كنت أظن ان بلاداً ليس فيها شيء من اسباب التمدن والتهديب كبلاد السودان يخرج منها مثل هذا الرجل » وأمر له بنيشان وعين لضيفيه ياوراً فطاف بها في جميع دواوين الحكومة والاماكن الشهيرة في مصر والاسكندرية وسائر الجهات .

٦ - خالد باشا سنة ١٢٦٢ : ١٢٦٦ هـ - ١٨٤٦ : ١٨٥٠ م

وفي محرم سنة ١٢٦١ هـ يناير ١٨٤٦ م حضر الى الخراطوم خالد باشا حكمداراً للسودان ومعه الارباب دفع الله والشيخ عبد القادر المار ذكرهما والشيخ ابراهيم الهيتمي قاضياً عاماً للسودان فبقى أكثر مدته في الاسفار

فذهب الى التناكه وعاد منها الى جبال فازوغلي وكردوفان في تطلب مناجم الذهب .

وفي أيامه انخرقت صحة محمد علي باشا لما اصاب مصر من الأوبئة والمحن ولم يعد قادراً على القيام بمهام مصر فتولاها ابنه الأكبر « ابراهيم باشا » في منتصف سنة ١٢٦٤ هـ ١٨٤٨ م . وكان ابراهيم باشا منصرف الصحة فاشتد عليه المرض بغتة وفارق هذا العالم في ١٠ نوفمبر سنة ١٨٤٨ م . وكان « عباس باشا » ابن طوسون باشا ابن محمد علي باشا ولي العهد غائباً اذ ذاك في مكة فدُعي منها ووصل القاهرة في ٢٤ ديسمبر وتولى زمام مصر . وفي ٢ اغسطس سنة ١٨٤٩ م فاضت روح محمد علي باشا الى خالقها بعد ان أبقى في مصر والسودان من المآثر الحسان ما خلد له الذكر الحسن والثناء الجميل مدى الزمان .

٧ - عبد اللطيف باشا سنة ١٢٦٦ : ١٢٦٧ هـ - ١٨٥٠ : ١٨٥١ م

وفي ربيع الآخر سنة ١٢٦٦ هـ فبراير ١٨٥٠ م وصل عبد اللطيف باشا الخرطوم حاكماً عاماً للسودان وكانت الاحكام قد اختلفت كثيراً في مدة سلفه فما دخل الخرطوم حتى انهالت عليه الشكاوي ضده فصادره وأنزله الى مصر ثم شرع في الاحكام فأزال المظالم وبث روح العدل في البلاد . ومن مآثره انه جدد ديوان الحكمدارية في الخرطوم فبقي الى الثورة المهديية . وأنشأ مدرسة أميرية في الخرطوم برئاسة رفاعة بك الذي حضر من مصر ومعه بيومي بك وكثير من الكتبة والمعلمين . وعزل الشيخ ادريس عدلان السالف الذكر من شياخة جبال الفونج وولى ابن اخيه عدلان محمد مكانه . وضرب حسن مسمار ملتزم الجسارك وحبسه وصادره . وعزل حسن خليفة العبادي ملتزم سكة عتمور ابي حمد من المشيخة وحبسه وصادره ايضاً وقلد المشيخة أخاه حسين خليفة . وقلد الشيخ عبد القادر وظيفة معاون الحكمدارية مع مشيخة مشايخ عموم الجزيرة وأحسن معاملة الشيخ احمد ابي سن وعاد الى مصر في أواخر سنة ١٢٦٧ هـ ١٨٥١ م .

غزوة تكارنة القلابات للملك عمر في ميقة: وفي أيام عبد اللطيف بلشا هاج تكارنة القلابات من تعديت للملك عمر على بلادهم فجيشوا جيشاً كبيراً وساروا لقتاله في ميقة واتفق في هذه الأثناء ان مدير كسلا أخرج نفرأ من رجاله لغزو الجادين وكان احد أنسباء الملك عمر في كسلا فظن ان الغزوة على أهله فأنفذ اليهم خبرأ ليكونوا على حذر فأخذوا عائلاتهم الى مضيق بين جبلين قرب ميقة وبقوا هم في ميقة متربصين فاقترب التكارنة منهم ولما رأوهم مقبلين من الجنوب ظنوا انهم أصدقاء لهم سمعوا بغزوة الجند من الشمال فحضروا لنجدتهم فخرج ابو بكر اخو الملك عمر لاستقبالهم مع جريدة من الفرسان فما كان من التكارنة الا انهم بادروهم بالطعن بالحرا ب فعادوا الى ميقة مذعورين فوجدوا الملك عمر جالساً في ديوانه فقالوا له ان الذين تراهم هم تكارنة القلابات وقد جاؤوا ل حربنا فقم بنا الى مكان العائلة وكان التكارنة قد دخلوا ميقة على أثر الفرسان فرأى الملك عمر ان فراره من مكانه عار عليه فافتش فروته وانتظر الموت فاجتمع عليه السعداب وقالوا له أتعطي التكارنة قال الجميلين فتمكنهم من نفسك ليكون لهم الفخر بقتلك ولك من ذلك مهرب فقم بنا نجتمع شتاتنا ونعود الى طرد الأعداء من ديارنا « فان الرجال شرآده ورآده » ثم حملوه بالرغم عنه ووضعوه على بغلة وساروا يحاربون من خلفه حتى وصلوا الى المضيق الذي كانت فيه العائلة فلموا شعشهم ولبسوا دروعهم وتسلحوا بكامل السلاح ومكثوا ينتظرون باقي اخوانهم فلما طال انتظارهم التفت محمد ابن الملك عمر الى ابيه وقال على مَ هذا الانتظار والتكارنة يسلبون أموالنا امام عيوننا وهم على بعد مئة خطوة منا قال ننتظر اولاد دياب قال محمد : أليس فينا الكفاءة لطرد هؤلاء الخراف من ديارنا حتى ننتظر اولاد دياب ؟ قال له ابوه دعنا من هذا الحس الآن فاني أخاف اذا حمي الوطيس أنك تأبى القتال وتلجأ الى الفرار فهاجت في محمد حمية الرجال وقال لأبيه : « أبى القتال وأفر منه وجددي الملك نمر وأبى الملك عمر وأمي بنت دياب ؟ انت الذي تفر منه يا ابن البدوية ! » فدفع الملك عمر حصانه وقال لقومه : « هيا بنا على ميقة

وانظروا اليوم قتال ابن البدوية ، فكر رجاله وراهه فخرج التكارنة لقتالهم والتحم الفريقان فصار الفارس من السعداب يهاجم جمعا من التكارنة فيفتك بهم فلما رأى التكارنة كثرة القتل فيهم فرعوا الى تل صغير قرب ميقة وتحصنوا فيه فاحتاط بهم السعداب وكان معهم عشر بنادق فأخذوا يرمونهم بالرصاص حتى كثر القتل فيهم وعطشوا فصاروا ينزلون من التلة ثلة بعد ثلة والسعداب يقبضون عليهم قبض اليد ويسلمونهم الى النساء والنساء يأخذنهم الى مكات بعيد عن نظر الباقيين من اخوتهم على التلة ويقتلنهم بالعصي والتبايت الى غروب الشمس حتى لم يبق على الراية احد فقتلهم عن آخرهم وكان عددهم نحو ٦٠٠ نفس فغنموا خيولهم وأسلحتهم وعادوا الى ميقة فسكنوها آمنين .

وذهب الملك عمر الى الرأس علي فأخبره بما كان وأعطاه عشر الغنائم على عادته فأكرمه الرأس علي وأهدى اليه بعض الجياد. وانتشر خبر هذه الواقعة في جميع أقطار السودان واشتهر بأس اولاد الملك نمر فزاد عدد المهاجرين اليهم .

٨ - رستم باشا سنة ١٢٦٧ : ١٢٦٨ هـ - ١٨٥١ : ١٨٥٢ م

وفي سنة ١٢٦٧ هـ ١٨٥١ م سمي رستم باشا حاكما عاما للسودان فذهب الى ود مدني وعاد منها مريضا فتوفي في الخرطوم سنة ١٢٦٨ هـ ١٨٥٢ م ودفن هناك . وفي مدته حضرت لجنة من مصر للنظر في احوال السودان كان رئيسها ميري بيك .

٩ - اسماعيل باشا ابو جبل سنة ١٢٦٨ : ١٢٦٩ هـ - ١٧٥٢ - ١٨٥٣ م

وفي رمضان سنة ١٢٦٨ هـ ١٨٥٢ م حضر الى الخرطوم اسماعيل باشا ابو جبل حكامدارا على السودان فجال في الجهات الشرقية قليلا ثم رجع الى الخرطوم وبقي فيها الى ان صدر الامر برجوعه الى مصر وكانت مدته قصيرة .

١٠ - سليم باشا سنة ١٢٦٩ : ١٢٧٠ هـ - ١٨٥٣ : ١٨٥٤ م

وفي شعبان سنة ١٢٦٩ هـ مايو ١٨٥٣ م عين للسودان سليم باشا فذهب

الى الخرطوم على غير ارادته وأقام فيها متطراً مدة قصيرة ثم نُدب الى القلعة .

١١ - علي باشا سري سنة ١٢٧٠ : ١٢٧١ هـ - ١٨٥٤ : ١٨٨٥ م

وفي جمادى الاولى سنة ١٢٧٠ هـ فبراير ١٨٥٤ م وجهت حكمدارية السودان الى علي باشا سري الارناؤطي فذهب الى الخرطوم ولم يخرج منها الا الى سنار ثم عاد الى مصر بعد مدة قصيرة قتل وقد ملأ جيوبه من مال البلاد ولا سيما من جزيرة سنار .

وفي شوال سنة ١٢٧٠ هـ يوليو سنة ١٨٥٤ م توفي « عباس باشا » الى رحمة ربه . وتولى بعده على مصر « سعيد باشا » ابن محمد علي باشا .

١٢ - علي باشا شركس سنة ١٢٧١ : ١٢٧٣ هـ - ١٨٥٥ : ١٨٥٧ م

وفي جمادى الثاني سنة ١٢٧١ هـ فبراير ١٨٥٥ م وصل الى الخرطوم علي باشا شركس حكمداراً على السودان .

زيارة عبد الحلیم باشا للسودان : وفي اول مدته ذهب الى السودان عبد الحلیم باشا ابن محمد علي باشا زائراً فأقام في الخرطوم اياماً وانتشر الهواء الاصفر فامتد الى جميع اقطار السودان ومات به خلق كثير .

ومن مات فيه من الاعيان الشيخ عبد القادر ابن الشيخ الزين شيخ مشايخ الخرطوم وسنار المتقدم الذكر وكان رجلاً فاضلاً جليلاً سديد الرأي فحضر دفنه الحاكم العام ووكيله وجميع وجوه البلاد . وُعِين ابنه الزبير مكانه فخدم في الخرطوم مدة ثم نزل الى مصر فعُين معاوناً في نظارة الداخلية . وتوفي فيه الشيخ ياسين شيخ مشايخ مديرية كردوفان وهو من الأكابر العظام والشيخ الطريفي ابن الشيخ احمد الريح العركي والفقيه عمر بقادي العالم المشهور وغيرهم . ولما اشتد المرض أشار الحكماء على عبد الحلیم بترك الخرطوم فعاد الى مصر .

زيارة سعيد باشا للسودان : وبعد زوال الوباء ذهب سعيد باشا والي مصر

الى السودان لتفقد أحواله فوصل الخرطوم في ١٦ يناير سنة ١٨٥٧ فساءه حاله وأقرّ في بادي الرأي على أخلائه ولكن اعيان البلاد ومشايخها توسلوا اليه بالراح ان يعدل عن رأيه وقالوا له اذا أخليت البلاد عمت الفوضى لا محالة وربما لحق أذاها مصر فعدل عن رأيه وأمر بعدة اصلاحات فجعل الخرطوم وجزيرة سنار مديرية واحدة وفصلها عن باقي المديریات وجعل كل مديرية مستقلة عن الاخرى ترجع في أحكامها الى مصر . ونظم البوستة بين الخرطوم ومصر فسيّرهما على الهجن بطريق كورسكو . وخفض ضرائب الأطنان والسواقي ومنع الجند من جمعها فأناط ذلك بمشايخ البلاد وقرّر جمعها بعد الحصاد لا قبله . وأمر بمقد ناد من الأعيان في الخرطوم كل سنة للنظر في راحة البلاد . وكان عند اول وصوله الى بربر اعلن ابطال تجارة الرقيق التي كانت قد انتشرت في السودان على ما سيحيء ثم أنشأ محطة عسكرية على نهر سبت لمراقبة تجارة الرقيق وقطع دابر النحاسين . وعاد الى مصر في ١٣ ربيع الثاني سنة ١٢٧٣ هـ ١٠ ديسمبر ١٨٧٥ م . وقد رأى في سفرته هذه شدة لزوم تقريب السودان من مصر وتخفيض مشقة السفر اليه فعند عودته الى مصر كلف الموسيو مونجل المهندس الفرنساوي فرسم له خريطة سكة حديد بين حلفا والخرطوم ولكن مالية مصر اذ ذاك لم تسمح باخراج هذا المشروع الى حيّز الفعل . وصحب سعيد باشا في هذه السفارة الدكتور اباته باشا فكتب فيها كتاباً نفيساً .

١٣ - اراكيل بك سنة ١٢٧٣ : ١٢٧٥ هـ - ١٨٥٧ : ١٨٥٩ م

وكان سعيد باشا قد استصحب معه الى السودان اراكيل بك الارمني الملقب بالفرنساوي فلما نظم المديریات على ما مرّ عزل علي باشا شركس وعين اراكيل بك مديراً على الخرطوم فمكث فيها الى ان توفاه الله في صفر سنة ١٢٧٥ هـ سبتمبر ١٨٥٩ م وقد امتاز بحسن السياسة ولين العريكة قيل ان مشايخ الشكرية وغيرهم أنكروا على سعيد باشا تعيينه حاكماً عليهم وهو

نصراني من غير دينهم فأبوا مقابلته وجمعوا جموعهم للثورة فركب اراكيل بك هجينه وسار وحده حتى أناخ بين أيديهم وقال « ان كنت انا السبب في عصيانكم فيها انا الآن بين ايديكم فافعلوا بي ما تشاؤون على ان تعودوا الى الولاة اذ يعز عليّ ان تخرجوا عن طاعة وليّ امركم بسببي » فعجب زعماء الثورة من جرأته وحسن اسلوبه وطابت نفوسهم ورجعوا عما عزموا عليه وصحبوه الى الخرطوم . وكتب اراكيل بك خبر الحادثة الى سعيد باشا في مصر فبعث في طلب زعماء الثورة فأرسل له الشيخ احمد اباسن شيخ الشكرية والفقير ابراهيم عبد الدافع صاحب تاريخ سنار المتقدم الذكر فسجنها بالاسكندرية مدة ثم افرج عنها وأرجعها الى السودان بعد ان حلفا له بين الطاعة .

١٤ - حسن بك سلامة سنة ١٢٧٥ : ١٢٧٨ هـ - ١٨٥٩ : ١٨٦٢ م

وفي رجب سنة ١٢٧٥ هـ ١٨٥٩ م سمي حسن بك سلامة الشركسي مديراً على الخرطوم ولكن لم تطل مدته قليل وكان فظ الاخلاق سيء الادارة قليل الخبرة في سياسة البلاد إلا انه كان ديناً كثير الصلوات حسن الاعتقاد عفيف النفس .

١٥ - محمد بك راسخ سنة ١٢٧٨ : ١٢٧٩ هـ - ١٨٦٢ : ١٨٦٣ م

وفي محرم سنة ١٢٧٨ هـ يوليو ١٨٦٢ م عُزل حسن بك وُسمي محمد بك راسخ مدير التناك مديراً للخرطوم فحضر اليها في شهر صفر وكان يحب الطرب والغناء . ومن مآثره القصر المشهور باسمه تجاه سراي الخرطوم .

وفي أيامه ألقى سعيد باشا النظام الذي سنته عند زيارته للسودان في استقلال المديرية عن الخرطوم ورجوعها في أحكامها الى مصر وأعاد النظام القديم في جعل الخرطوم مركزاً عاماً للسودان .

١٦ - موسى باشا حمدي سنة ١٢٧٩ : ١٢٨١ هـ - ١٨٦٣ : ١٨٦٥ م

وفي ٤ صفر سنة ١٢٧٩ هـ ١ اوجسطس ١٨٦٣ م قدم موسى باشا حمدي حاكماً عاماً للسودان فجعل مركزه الخرطوم وبقي محمد بك راسخ مديراً فيها وكان لموسى باشا خدمات جمة في اكثر جهات السودان وقد أقمع عدة ثورات محلية في كردوفان وتقلي واسمه معروف في البلاد فقابله أهلها باحتفال عظيم فتلا عليهم الفرمان الناطق بتعيينه حاكماً عاماً على السودان ثم أرسل الى المديرين ومشايخ البلاد وأعيانها ف عقد معهم مجلساً و سنّ قوانين جديدة لجمع الضرائب فأعطى كل فلاح « سر كياً » بيده ليدفع ما جعل عليه من الضرائب على ثلاثة أقساط معينة في السنة وكلما دفع قسطاً قيّد له في « السركي » الذي بيده كما قيد في يومية الصراف وجعل من الأهالي نظار اقسام ومعاونين وأمرهم فلبسوا الملابس العثمانية وبذلك حسنت الحال وسهل تحصيل الاموال .

القلابات والحبشة : وفي أيامه كثر تعدّي الاحباش على الحدود ودخل ألوف من العربان وفيهم الشيخ احمد ابوجن شيخ عربان رفاعه الشرق في حمايتهم فجهز جيشاً كبيراً من الجنود المصرية المنظمة والباشبوزق وسار في ٢ جمادى الآخرة سنة ١٢٧٩ هـ ٢٥ نوفمبر ١٨٦٢ م الى بلاد القلابات فأخذ بعض الجيش ودخل الحبشة فامتنع الحبش في الجبال فعاد الى القلابات ومعه العربان الذين كانوا قد هجروا البلاد فأمتنهم وردّهم الى بلادهم . وشرع في تحصين القلابات فأقام فيها « استحكاماً » منيعاً وحصّنه بالمدافع واورطتين من الجهادية وجعل عليه آدم بك قومنداناً وضرب على القلابات جزية سنوية قدرها ٢٤٠٠٠ ريال . ثم ارسل جيشاً الى اولاد الملك نمر فاكتسح بلادهم كما سيجيء . وذهب الى التاكا فكثت فيها مدة ثم رجع الى الخرطوم في ٢٢ القعدة سنة ١٢٧٩ هـ ١١ مايو ١٦٨٣ م .

وكان على التكارنة اذ ذاك الشيخ جمعة ابو ذقن جاء بعد الشيخ احمد ابن الشيخ ميربي المار ذكره فقبل الجزية وامتنع عن ادائها الى ملك الحبشة ولكنه

لم يزل يهدي اليه الأنسجة والأردية والسروج والساعات والخيل الدنقلوية بما قيمته اربعة آلاف ريال وكان ملك الحبشة يهدي اليه الخيل والبغال والبن وغيرها حبا بتميم سوق القلابات وترويج التجارة بين السودان والحبشة .
وضرب الشيخ جمعه الجزية على جميع واردات الحبشة من رقيق وخيل وبقر وحمير وغنم وسن وذهب وشمع وزباد وبن وقمح وعدس وفول وحمص وشعير وسمن وزبدة كما ضرب ملك الحبشة الجزية على واردات السودان في سوق وهنائي على ٤ ايام من القلابات .

وخلف الشيخ ابو ذقن على التكارنة الشيخ صالح ادريس من مجاورى الازهر الذي كان اماماً لجامع القلابات وكان رجلاً شجاعاً صالحاً محبوباً وقد بقي على التكارنة الى ان كانت الثورة المهديّة فكان له مع زعمائها من الشأن ما سنيينه إن شاء الله .

عود الى اولاد الملك نمر في ميقة ، تقدم ان اولاد الملك نمر ازدادت شهرتهم بعد انتصارهم على تكارنة القلابات وازداد عدد المهاجرين اليهم وكان في جملة هؤلاء رجل من قبيلة الهنادي القاطنة بمديرية الشرقية بمصر كان سنجقاً في عسكر بربر فعينه (٩ - اسماعيل باشا ابو جبل ، على خمسين نفرأ وأرسله لجمع الضرائب من عربان رفاعه الشرق فأقام على ذلك سنة ونصف سنة الى ان قدم (١١ - علي باشا سري ، والياً على السودان فعزله وأرجعه الى بربر ثم لم يلبث ان طلبه الى الخرطوم فلبى الطلب ونزل في طريقه عند صديق له في شندي يسمى بشير اغا السنجق فقال له صديقه جئت اليوم من الخرطوم فسمعت فيها ان الحكمدار عازم على استرداد المبلغ الذي استوليت عليه من الحكومة مدة خدمتك في رفاعه الشرق بحجة ان اسماعيل باشا ابا جبل قد استخدمك بلا وجه مالي اذ لم يكن لك محل في ميزانية السودان . وهذا الحكمدار على ما ظهر لي رجل عاتٍ مستبد لامم له إلا جمع المال وانت رجل جليل القدر رفيع المقام فلا يجمل بك ان تعرض نفسك للاهانة والرأي عندي ان تعود الى بربر وتجمع له من المال ما يرضيه وإلا زجك في

السجن حتى تدفع الفلس الاخير . فلما سمع ابو رواش مقالة بشير اغا هاله الامر وعزم من ساعته على الخروج من ارض الحكومة فرجع الى بربر وجهاز رجاله وخبوله وأمتعته وفر الى أولاد الملك نمر في ميقة ففرحوا به وكان لهم أكبر نصير .

ومن لجأ اليهم فراراً من وجه الحكومة فتقووا به «محمود المحلاوي» وهو تاجر من جعافرة اسنا كان في كسلا يتجر في البضائع الاوربية فوقعت القرعة العسكرية عليه في مصر فجنده مدير كسلا وألحقه بالجهادية ولما كانت سنة ١٢٧٦ هـ ١٨٥٩ م فرّ هارباً الى اولاد الملك نمر وتزوج ببنت الشيخ ابي رواش واتحد معهم على الغزو . وقد وجهوا أكثر غزواتهم على الشكرية والضبانية حتى اضطر الشكرية ان يعاهدوهم على جزية سنوية يدفعونها لهم ليأمنوا شرهم ومع ذلك لم يزالوا على التعدي حتى قتل ابو رواش في غزوة غزوا بها سبدرات وبقي المحلاوي الى ان ارسل موسى باشا الغزوة التي مرّ ذكرها فطلب الامان وعاد الى كسلا فحضر ثورة الجهادية فيها كما سيحي .

هذا ويظهر ان الملك عمر واخوته كانوا قد ملتوا عيشة الغزو قبل فرار الشيخ ابي رواش اليهم وحنوا الى وطنهم فبعثوا في طلب الامان من الحكومة للعودة الى السودان وكانت الحكومة تودّ تأليفهم وحملهم على الطاعة فبعث اليهم المغفور له سعيد باشا بالامان وهاك صورة ما أرسله الى الملك عمر بتاريخ ١٧ محرم سنة ١٢٧١ هـ ١٠ اكتوبر سنة ١٨٥٤ م نمره ٩ سايره :

«قد صدر هذا الفرمان المبعوث بالتشريف والامان الى عمدة أمثاله المكرمين الشيخ عمر ولد نمر أعلم انه قد طرق مسامعنا انها علي باشا حكمدار السودان انك في حنين الى وطنك وأنك على مزيد الرغبة والاشتياق الى الرجعى الى ديارك انت ومن يليك من الاقارب والاتباع عاقداً نيتك على حصول العمار في محلك وبذل عزيمة صداقتك في اداء الطلبات الميرية لتفوز بجميل التقرب بالمتن البهية وانك علقنت انتقالك من الغربية الى الوطن على تحصيل هذا الفرمان لتتقلد به شرفاً وتحظى به بالظمان والامان فاقتضت ارادتنا اجابة مسؤولك

بإصدار هذا اليك ليم به مرادك وليطرق مسامعنا بعد هذا ثمرات صداقتك واجتهادك وتقابل من لدنا بما يليق بذلك فعليك بحميد السعي في أحسن المسالك « هـ .

وهذه صورة أمر عال صادر الى « علي باشا شركس » الذي خلف « علي باشا سري » على السودان مؤرخ في ٢٩ ربيع اول سنة ١٢٧٢ هـ ٩ ديسمبر سنة ١٨٥٥ مائة ١٣ ومنه يعلم سير المفاوضات التي جرت بين اولاد الملك نمر وحكومة السودان بشأن العودة الى اوطانهم :

« قد عرض الينا افادة وردت من سلف حضرتكم رقم ٢٩ صفر سنة ١٢٧٢ مائة ٥ ومعها مذاكرة أجراها مع الملك حسن وأخيه الملك عماره اولاد الملك نمر بناء على الامان السابق اعطاؤه من لدنا اليهم والى أخيه الملك عمر وأمرنا السابق صدوره الى الحكمدارية في ٢٥ ل سنة ١٢٧١ هـ وقد علم لدينا انه صار اعطاؤهم الراحة التامة ونيل ما قصدهه والطمان والامان وذلك انه سلم اليهم في اعطائهم كافة أطيانهم وأملاكهم ... وأما الشيخ الحسن فها هو ناظر على عموم مديرية بربر الآن وكذا المتسبحين الذين كانوا معها ومع أخيها وسيحضرون شيئاً فشيئاً . وقد اختاروا الاقامة بالمحل المسمى الجيره بين الصوفي والحمران بمديرية الخرطوم لما رأوا ان أرضه طيبة للغاية وفي غاية الاتساع وليس لأحد فيه ملك وانـه بنزول الامطار يزرعون به وقد أقام به نحو مائتي نفر ممن حضروا من الحبشة وسيحضر الباقون شيئاً فشيئاً مع اخيهم بجميع تعلقاتهم ويكون استكمال حضورهم واستيطانهم في ذلك المحل في ظرف سنة كاملة او اقل لسهولة تخليص علائقهم من هناك كما تعهدوا ...

واما الاربعماية خيال الراغب الملك عمر ترتيبها ليقم بها تحت طلب الحكومة فمن كون لحد الآن لم يتوطن بمحل اقامته ويجري راحة أهاليه وجماعته وينظر في أمر أطيانه وأملاكه وتظهر منه علامات الصداقة والعمارة فكيف الآن يجري ترتيبها . وحيث تبين ان الانفسار الذين معه نحو الستين حلة تقريباً من خمسة عشر الف نفر وما حضر منهم الا المائتا نفر الذين توطنوا بالجيره وقد

تعلقت ارادتنا حصول الامن والامان الى اولاد الملك نمر جميعاً وقرارهم في
أوطانهم في غاية الراحة حسبما جبلت عليه مراحنا من الرأفة والشفقة على العباد
وإعطاء الرعية ما ينبغي لها وقد سرت عدالتنا بإصدار تنبيهات من الحكمدارية
برجوع أملاكهم وأطيانهم اليهم وبكف الحكام ومشايخ الجهات عن التعرض
الى اتباعهم فقد أصدرنا هذا لخصرتكم لتباشروا ادخال البشر عليهم ليجمعوا
اطرافهم ويستوطنوا بالمحل الذي تخيروه وطناً لأنفسهم وجماعتهم ويبادروا
بإجراء ما فيه رضانا لينالوا ازدياد الراحة والسلام . هـ .

ولكن يظهر ان أبا رواس ثنى عزمهم عن التسليم وتقووا به فعادوا الى
سابق بغيهم كما مرّ وبقوا الى ان نقض الرأس طرزه احد كبار الحبشة على
الملك ثيودورس فسأل الملك عمر المساعدة بالاسلحة والجيشانة فتوقف عن
إعانتة خشية الملك ثيودورس فغضب منه وأغار عليه في ميقة فقتله واكتسح
بلادده وكان ذلك في أواسط جمادى الاولى سنة ١٢٨٢هـ أوائل اكتوبر ١٨٦٦م
ففرّ من سلم من الدار وعدتهم نحو الف نفر الى القضايف طالبين العفو والامان
من الحكومة فأمنتهم فحضر بعضهم بقيادة اكبرهم عمارة الى شندي ومعه محمد
ابن عمر وعينت الملك عمارة ناظراً على الجعليين فمات في شندي وبقي البعض
الآخر في الصوفي مع خالد ابن الملك عمر الى ان كانت الثورة المهديّة فكان من
أعزّ أنصارها كما سيجيء .

السر صمويل باكر واكتشاف منابع النيل الابيض

سنة ١٨٦٣ : ١٨٦٥ م

وفي ايام موسى باشا قدم الى السودان السر صمويل باكر من كبار السياح
الانكليز قاصداً اكتشاف منابع النيل الابيض على نفقته الخاصة . وكانت
الجمعية الجغرافية الانكليزية قد أرسلت الرحالتين سبيك وغرانت سنة ١٨٥٨م
لاكتشافها عن طريق زنجبار فاكتشفا بحيرة فكتوريا نيانزه في ٢٨ يوليو سنة
١٨٦٢ م وسميها على اسم ملكتها كما مرّ في الكلام على النيل . وكان محمد

علي باشا قد ارسل بعد فتح سنار عدة حملات من الخرطوم لاكتشاف منابع النيل الابيض فوصلت آخر حملة سنة ١٨٤١ م الى كوندوكرو ولم تتعدّها بسبب الشلالات التي الى جنوبيها . فأراد السر صمويل باكر بعد سفر سييك وغرانت عن طريق زنجبار ان يذهب عن طريق الخرطوم ويستطرد الاكتشاف من كوندوكرو بالبر على رجاء ان يلتقي بالرحالتين المذكورين فيكون نجدة لها ويشاركها في فخر الاكتشاف . فخرج من الخرطوم في ١٨ ديسمبر سنة ١٨٦٢ م بمركبين كبيرين وذهبية ومعه ٤٥ رجلاً مسلحين بالبندق و ٥٠ من الخدم والبحارة و ٢٩ من الجمال والخيل والحير ومقدار كبير من الحبوب وبضعة صناديق من أساور النحاس والخرز الملون الرائجة هناك بدل العملة كما مر . فوصل كوندوكرو في ٢ فبراير سنة ١٨٦٣ م وحطّ رحاله وأخذ يتأهب للسفر برأ واذا بالرحالتين سييك وغرانت قد أقبلا في ١٥ منه فأخبراه باكتشاف بحيرة فكتوريا وانه لم يزل امامه بحيرة اخرى ليكتشفها قد أخبرهما الأهليون بها وأعطياه خارطة سيرها وجميع ما علمه عنها ثم استطردا السفر شمالاً الى اوروبا وسار باكر جنوباً في البر الشرقي بقصد اكتشاف تلك البحيرة حتى أتى عليها في ١٤ مارس سنة ١٨٦٤ م بعد معاناة مشقات كثيرة وأخطار جمّة ولا سيما بسبب تجار الرقيق الذين كانوا قد انتشروا في تلك البلاد يعيشون فيها كما سيحيء وقد أتاها أولاً من الجنوب ثم جال فيها بمراكب السود فأتى شمالها ورأى مصب النيل الآتي من بحيرة فكتوريا وخرج النيل الابيض الذاهب شمالاً وسماها ادوارد نيازه على اسم ولي عهد انكلترا في ذلك الحين . ثم عاد الى كوندوكرو وسار منها بنهيبته ومركبيه حتى وصل الخرطوم في ٣ مايو سنة ١٨٦٥ م فأقام فيها الى ٣٠ يونيو وخرج منها في ذلك اليوم الى بربر فسواكن فبلاد الانكليز فوصلها في اكتوبر سنة ١٨٦٥ م .

وقد صحبه في هذه السفرة امرأته المهامة للفاضة فقاسمته مشاقها وأخطارها ولطفت بحنها وأتماسها وأهانتها على حلّ المشاكل التي عرضت له مع تجار

الرقيق حتى انها أنجته من خطر القتل مرتين ولولاها ما سلم ولا فاز بالمراد
فحبذا المرأة امرأة باكر .

وفي ٢٦ رجب سنة ١٢٧٩ هـ ١٧ يناير سنة ١٨٦٣ م توفي سعيد باشا الى
رحمة ربه وتولى بعده على مصر « اسماعيل باشا » ثاني أنجال ابراهيم باشا فاهتم
للسودان اهتماماً عظيماً وقد سرّ من اعمال موسى باشا فيه فأنعم عليه برتبة
فريق فعمل مهرجاناً عظيماً زينت له البلاد . وفي ٢٣ محرم سنة ١٢٨٠ هـ
١٠ يوليو سنة ١٨٦٣ م ذهب الى مصر فأدّى الشكر لاسماعيل باشا على
انعامه وأطلعنا على حال البلاد وعاد الى الخرطوم فبقي فيها الى ان توفاه الله
في ٨ شوال سنة ١٢٨١ هـ ٦ مارس سنة ١٨٦٥ م فدفن هناك . وقد سارت
البلاد في ايامه على أحسن نظام وكان فيها من الجند نحو ٣٠ . ٠٠٠ من نظامية
وباشبوزق .

جبال تقلي : وكان على جبال تقلي في ايام موسى باشا ملك يسمى الملك
ناصرأ اشتهر بالقسوة والصرامة في العقاب فكان اذا غضب من شخص وضعه
عارياً مكتوفاً على حجر محمى حتى يموت . وقد حكى لي بعض معارفه ما
دلّ على تناهيه في القسوة الوحشية قال : ان صائغاً من صاغة الابيض سمع
بقسوته وكان يُذيب فضة على النار فلما سألت قال « حق هذا السائل ان
يصبّ في انف الملك ناصر جزاء قسوته وظلمه فبلغ الخبر الملك ناصرأ فعزم
على الايقاع به وأركن الى الجبله فأرسل اليه اربع جوار هدية وسأله ان
يحضر مع الرسول الى الجبل ليصوغ بعض الحلى لنسائه ووعدته بمكافأة جلييلة
فذهب الصائغ فأعطاه بعض الفضة والذهب فصاغها له ثم أعطاه فضة وسأله
ان يُسليها على النار ولما سألت قال له : أتذكر انك اشتهيت مرة في الابيض
ان يُصبّ مثل هذا السائل في أنفي ؟ فسكت الصائغ وألجم لسانه فأمر بعض
العبيد فقيّدوه ثم أخذ الفضة وصبّها في أنفه وهي محماة فتورم دماغه ومات
لساعته . وقد ارسل ولاة السودان الحملات عليه قصد إذلاله فقصروا عنه .
وبقي على تمرده حتى وقع خلاف بينه وبين ابن عمه آدم دبالو وكان أهله قد

سُموه لكثرة ظلمه وقسوته فنصروا ابن عمه عليه ففرّ بعائلته الى موسى باشا في الخرطوم فأرسله الى اسماعيل باشا بمصر ثم عاد الى السودان فقطن جزيرة معتوق في بلاد سنار ومات هناك . واما الملك آدم دباله فانه بقي على جبال تقلي حتى كانت الثورة المهدية فكان له فيها من الشأن ما نذكره في محله .

حرب العقال : وفي هذه الأثناء وقع في بادية كردوفان حرب شديدة بين عربان حمر وقائدهم الشيخ مكي ود المنعم وبين عربان الكبابيش وقائدهم الشيخ فضل الله ود سالم اشتهرت بحرب العقال لأن كلا الفريقين جمع رجاله وأولاده الى ساحة الحرب وعقل الابل وعود على النصر او الموت وتقاتلا طويلاً مستقتلين فانتصر الحمر وغنموا نحاس الكبابيش وأموالهم . وهذه الحرب بين حمر والكبابيش مع « قتلة القرطاس » بين حمر والمعالية المار ذكرها في تاريخ دارفور مما اشهر الحروب التي جرت في بادية السودان الغربي الى الآن ولأهلها فيها أغاني مشهورة في مدح الغالب وذم المغلوب .

١٧ - جعفر باشا صادق ١٢٧١ هـ ١٨٦٥ م . وكالة عمر فخري بك

وبعد وفاة موسى باشا قام عمر فخري بك بشؤون الاحكام الى ان حضر جعفر باشا صادق من مصر حكمداراً للسودان .

ثورة الجهادية السود في كسلا سنة ١٨٦٥ م :

وفي أثناء ذلك ثار الجهادية السود في كسلا ثورة أدت الى سفك دماء كثيرة واستغرقت عدة اشهر وكان السبب فيها سوء إدارة القواد وتأخر الحكومة عن دفع مرتبات الجنود . وتفصيل ذلك على ما رواه لي الثقة الذين شهدوا الثورة : انه كان في « استحكام » كسلا في ذلك الحين الاي فيسه نحو ٤٠٠٠ من الجهادية السود ومعهم نحو الف نفر من الباشبوزق الاتراك والشايقية وكان المدير على كسلا ابراهيم بك ادم . فلما كان شهر شوال سنة ١٢٨١ هـ مارس ١٨٦٥ م خطر للمدير ان يرسل غزوة على جبال البارية والبازة فأصدر أمره

لأورطة من الجهادية وبعض الباشبوزق بالتأهب للغزوة وكان قد مضى على الجهادية ستة اشهر لم يقبضوا فيها رواتبهم فرفضوا الامر وقالوا: « لانسافر حتى نقبض المتأخر من رواتبنا » فلما بلغ خطاب افندي قومندان الاورطة قولهم غضب وقال: « أصبح للعبيد شأن يعصون به الامر فوالله لأسوقنهم الى الغزاة بالسياط » فازداد السود تصلباً وعناداً ولما جاء الميعاد المضروب خرجوا من الاستحكام ووقفوا عند باب سبدرات طاوراً فجمعوا اسلحتهم امامهم كوما وارسلوا يخبرون خطاب افندي انهم لا ينتقلون من مكانهم حتى يقبضوا رواتبهم بتمامها وان كان لم يزل ينوي تنفيذ امره بالسياط كما قال فليفعل. فجاءهم خطاب افندي على جواده ونادى بهم « سلاح آل » فهجموا عليه وأوسعوه شتماً وضرباً بالعصي وكان نساؤهم من ورائهم يشجعنهم ويزرغطن لهم فلجأ خطاب افندي الى الفرار واخبر المدير بما كان فاهتم للامر وخشي امتداد الثورة الى الألاي كله وكانت الجبخانة (الذخيرة) بيد ملازم منهم فأخرجها من يده وسلمها الى ضابط من ضباط الباشبوزق الاتراك وجمع التجار المغاربة واهل البلد فسلحهم وضمهم الى الباشبوزق وفرقهم على أبراج السور .

اما العصاة فانهم حملوا سلاحهم وساروا في وجوههم نحو سبدرات وكان خطاب افندي قد وجه اليها بعض العساكر الباشبوزق بمدفعين و ٦٠ صندوق جبخانه محملة على ٣٠ جملاً ليتقدموا الغزوة فأدركهم العصاة على الطريق واستولوا على الجبخانة والمدفعين بعد ان فتكوا بالعساكر وضربوا قائدهم السر سوارى سعيد اغا ابا فلقة فأثخنوه وتركوه بين حي وميت ونزلوا في سبدرات. فعقد المدير نادياً من الضباط والتجار والاعيان للنظر في امر الاورطة فأقرؤا على ان يرسلوا اليهم رواتبهم المتأخرة ومداركة الامر والتي هي احسن حتى تطمئن نفوسهم اولاً ثم ينفذون فيهم رأيهم وكان في خزينة كسلا بعض نقود مودعة أمانة فقرّ رأيهم على إعطائهم إياها حتى يتيسر المال فتتروا الى محلها . وكان في كسلا اذ ذاك الاستاذ السيد الحسن ابن الاستاذ السيد محمد المرغني مؤسس الطريقة المرغنية في السودان فتكفّل بالامر له فحمل النقود وجاء الى سبدرات

فوزعها على المعصاة على التساوي فأصاب كلا منهم اربعة ريات ثم عنفهم على مسلكتهم وطلب اليهم ان يرجعوا الى كسلا فرضوا على ان يكون غير خطاب افندي قومنداننا عليهم فعاد الاستاذ الى كسلا وأخبر المدير بما كان فأرسل اليهم عثمان بك قائمقام العساكر ليقودهم ويفزو بهم الجبال فقابلوه بالطاعة وساروا معه في الغزوة فأقاموا فيها ثلاثة اشهر وعادوا الى كسلا .

وكان المدير في أثناء ذلك قد كتب الى اللواء حسن باشا في الخرطوم يخبره بما حدث فأرسل حسن باشا الميرالاي علي بك ابو ودان لاستلام قيادة الألاي ثم حضر بنفسه على الاثر ومعه اسماعيل بك ايوب للنظر في الامر فوصل كسلا قبل رجوع الاورطة بشهر . فلما حضرت عقدت مجلساً سرياً للنظر في أمرها فاتفق رأيهم على ان يوزعوا العساكر على عربان الهدندوة بمحجة جمع الضرائب ثم يأمروا العربان بالقبض عليهم فصدر الأمر للاورطة فخرجت الى الميتكناب بقيادة الميرالاي علي بك ابو ودان . ولما كان يوم الاثنين ٧ صفر سنة ١٢٨٢ هـ ٢٧ يونيو سنة ١٨٦٥ م أمر علي بك ضباط الاورطة وكان أكثرهم من المصريين بالتفرق بين القبائل لجمع الضرائب فأدرك العساكر ان في الامر دسيسة فرفضوا السفر ولما أغلظ لهم الضباط في الخطاب هجموا عليهم فقتلوا أكثرهم وانتشروا في البلدة فنهوها وانقلبوا راجعين الى كسلا .

اما علي بك ابو ودان فانه نجح منهم بكل مشقة وخف الى كسلا فوصلها قبلهم وأخبر اللواء والمدير بما كان فخرجوا من منازلها التي كانت داخل قشلاق (ثكنة) الجهادية ودخلا ديوان المديرية بعائلاتها وأخذوا يستعدان للملاقاة المعصاة وكان السر سواربي سعيد اغا قد شفيت جراحه فأمره بالمحافظة على الذخيرة مع عساكره وجمعا الاسلحة من الاورط الثلاثة الباقية في كسلا وبدل ان يضعها في خزينة السلاح وضعاها في القشلاق . وكان الشايقية الباشبوزق مقيمين خارج السور فأدخلهم داخل السور وضمهم الى المغاربة وغيرهم من سكان المدينة وفرقاهم على الابراج وأمرهم بضرب عساكر الاورطة عند وصولها وأقاما في برج الحلائقة بين البابين القريين . وفي صباح الاربعاء ١٠

صفر سنة ١٢٨٢ هـ ٥ يوليو سنة ١٨٦٥ م حضرت الاورطة سائرة بالانتظام العسكري فلما شاهدها بهذا الانتظام أمرا بعدم التعرض لها ودخلا ديوان المديرية فتحصنا به فلما اقترب العصاة من باب الجنائن أطلق عليهم البلوكباشي محمد اغا المردلي عياراً نارياً على خلاف الامر فقتل منهم شوايشاً وقال هذا ثأر ابن عمي الذي قتل يوم الثورة عند سلب الجبخانة ثم أطلق عياراً نارياً آخر فقتل اومباشياً فهاج عساكر الاورطة اذ ذلك ودخلوا القشلاق وكان فيه الضباط المصريين وعدتهم ستة وعشرون فقتلوهم عن آخرهم أما خطاب افندي فبعد ان قتلوه وضعوا عليه يبيساً وأحرقوه بالنار ثم اجتمع عليهم الاورط الثلاثة الباقية وتعصبوا للجنسية ضد الاتراك والعرب وكسروا أبواب الغرف التي وضع فيه سلاحهم فأخذوه وتحصنوا في القشلاق وفتحوا فيه المزاغيل وقطعوا السابلة وانتشر أكثرهم في البيوت ينهبون ويسلبون . وكان السيد حسن المرغني قد ذهب الى سبدرات فأرسل اليه المدير يدعوه فحضر في ١١ صفر سنة ١٢٨٢ ١ يوليو سنة ١٨٦٥ الى حلة الحلائقة غربي الاستحكام وكتب الى العصاة يسألهم الكف عن الحرب وسلّم الكتاب الى احد خلفائه فرفعه على قصبة ودخل به الاستحكام وهو ينادي جاءكم كتاب السيد الحسن فتلقاه العصاة بالقبول وكفوا عن الحرب. ثم دخل الاستاذ فهرعوا اليه يقبلون يديه وشكوا اليهم أمرهم فوعدهم بالراحة ثم ذهب الى اللواء والمدير وعقد مجلساً للنظر في تسكين الفتنة فقرّر الرأي المرة الثانية على استخدام العربان للقبض عليهم فجمعوا جموعاً كثيرة من خيالة وقرابة من الهدندوة والحلائقة وعرب سبدرات والجادين وبني عامر ووضعهم في الحاقمية . ثم ذهب السيد الحسن الى الجهادية وقال لهم لقد اتفق الرأي على ان تخرجوا من الاستحكام بجميع أمتعتكم وتذهبوا الى حيث تشاؤون فشر الجهادية ان في الامر مكيدة كالتي كيدت لهم في الميتكناب فأبوا ان يخرجوا إلا اذا أعطي كل منهم ١٢ طلقة من الجبخانة ليحموا بها أنفسهم اذا غدر بهم فاتفق رأي الجميع على اجابة طلبهم إلا سعيد اغا ابو فلقه المولج في حفظ الجبخانة وصاحب الثأر

على العصاة كما مر فإنه رفض هذا الرأي بتاتا وقال « اني لا اعترف بسطة احد منكم علي » وأحسب نفسي مسؤولاً عن الجبخانه من افندينا رأساً . فاجابه المدير واللواء « اذا نحن لم نعظم القدر القليل الذي طلبوه من الجبخانه فلا حيلة لنا في القبض عليهم بل نخشى ان يهاجموك فيقتلوك انت ورجالك ويستولون على الجبخانه كلها فبقي ان نختار أهون الشرين ونعطيهم ما سألوه ثم ننظر الى رأينا فيهم » قال سعيد اغا « أهون الشرين تختارون في تسليمكم جبخانه الحكومة الى عصاة خونة تمردوا عليها وقتلوا الجم الفقير من رجالها في الدنيا شر اعظم من ان يظهر رجال العسكرية الجبن امام العبيد اولاد الجوارى فيسلموا لهم بمطاليب. ما أنزل الله بها من سلطان ويعطونهم الجبخانه ليستخدموها في حريمهم أليس الأجدد بنا ان ندعومهم الى الطاعة فان أبوا حاربناهم حتى فزنا او متنا مشرفين . ومع ذلك فاخترنا انتم لأنفسكم ما تشاؤون اما انا فقد اخترت الموت على التسليم بمطالب هؤلاء الاجلاف واذا هاجموني في محلي وعجزت عن صدم فاني اركب برميلا من البارود وأشعل النار في الجبخانه كلها فأقتل نفسي ولا أمكنتهم من طلقة واحدة منها .

وبلغ العصاة هذا القول فتركوا السفر وانقسموا اربع فرق حسب اجناسهم الدنكة والغور والتوبة والمولدين فتولى كل فرقة رئيس منهم وانتشروا في البندر ينهبون ويسلبون ونزلت فرقة الدنكة على منزل الحاج احمد ود عجيب وكان فيه مطمورة غلة فقتلوا الحاج احمد المذكور وأخاه وتقدموا الى باب المطمورة لاجراج الغلة وكان للحاج احمد بنت تسمى آمنة فلما رأت أباهما وعمها مقتولين هان عليها الموت فأخذت سيفاً ووقفت في الباب فصدتهم عن الدخول وقتلت خمسة منهم فتسلقوا السقف ونقبوه ونزلوا اليها فقتلواها وأخذوا الغلة .

وكان المدير قد ارسل يطلب المدد من عمر فخري بك في الخرطوم ورفع فخري بك الخبر الى اسماعيل باشا بمصر فاهتم اسماعيل باشا بالأمر حق الاهتمام وبعث بجعفر باشا صادق والياً على السودان فذهب اليه عن طريق كورسكو.

وجعل جعفر باشا مظهر وكيلا له وأرسله بجيش ومدفعين الى كسلا لاختاد الثورة فذهب اليها عن طريق سواكن. وبعث بالوامر المشددة الى عمر فخري بك ليبادر الى ارسال النجيدات من حاميات البلاد الى ان يصل مدد مصر .

وكان اول من وصل الى كسلا مدداً السر سوارى علي كاشف الكردي ومعه ٤٠٠ رجل من الباشبوزق جاءها من القصارف في أواخر يوليو سنة ١٨٦٥ م ونزل في ديوان المديرية . وبعد وصوله ببضعة ايام خرج احد رجاله يحملة ليرعاه فلقية جماعة من الجهادية السود فسلبوه جملة وسلاحه وجبخته فعاد الى علي كاشف شاكياً فغضب علي كاشف وضرب طبل الحرب وتهيأ للقتال . وكان السيد الحسن المرغني لا يزال مقيماً داخل الاستحكام فأتى اليه وسكّن غضبه وتكفل له بردّ الجمل والسلاح ثم ذهب الى الجهادية وتلطف لهم فردّوا الجمل والسلاح ولكنهم أنكروا انهم أخذوا شيئاً من الجبخانة فصمم علي كاشف رأيه على استرجاع الجبخانة ولما لم يردوها خرج اليهم ليلاً في ضوء القمر وأشعل فيهم النار فقابلوه بالمثل ولما ثقل عليه الرصاص عاد الى ديوان المديرية وتحصن به . وفي اليوم التالي فتح الجهادية المزاغل في القشلاق والمنازل التي في جواره وصاروا يرمون المارة بالرصاص فقطعوا السابلة وحبسوا الناس في منازلهم مدة ٢٦ يوماً حتى حضر آدم بك من ود مدني فالخرطوم فبربر بمدد من الجنود المنظمة والباشبوزق فكفوا عن الحرب .

اما آدم بك فكان من أعظم ضباط الجيش المنظم وقد تربى في مصر ورافق ابراهيم باشا الى بر الشام فاشتهر بالبسالة والدرية وحسن السياسة وكان اسماعيل باشا يعرفه فلما بلغه انه نذب الى كسلا كتب اليه بالتركية بتاريخ غرة جمادى الاولى سنة ١٢٨٢ هـ ٢٢ سبتمبر سنة ١٨٦٥ م ما مفاده :

« عزتو آدم بك

« ورد لنا في هذا البريد كتاب من عمر فخري بك وكييل الحكدارية سابقاً بتاريخ ٤ ربيع اول سنة ١٢٨٢ هـ ٢٨ يوليو سنة ١٨٦٥ م انك ووجهت بنقر من العساكر النظامية والباشبوزق الى كسلا لاختاد الثورة وقد ارسلت

منذ عشرين يوماً جنداً منظماً ومدفعين بقيادة جعفر باشا مظهر وكيل
الحكمدارية لهذه الغاية عينها . على اني أوامل انك تتمكن من اخماد الثورة قبل
وصوله فان عجزت عنها وحدك فاني جازم انكما تقويان عليها معاً . وقد
اتصل بي ان افراداً من العصاة يخرجون من الاستحكام الى البلاد يميثون
ويفسدون فتعقب مثل هؤلاء وجازم أشد جزاء واذا خرج منهم جماعة كبيرة
من مئة نفر الى مئة وخمسين فجرد عليهم نخبة من فرسان الباشبوزق الذين
استصحبتهم من الخرطوم ومن الجند المصرية المنظمة الذين اعتادوا هواء البلاد
ليطاردوهم حتى يظفروا بهم قتلى او اسرى اما الاسرى فسلمهم الى جعفر باشا
ليفعل فيهم رايه . واني أعلم بسالتك وحسن سياستك منذ كنت مع المرحوم
والدنا في سوريا فحقق آمالنا بك وعند انتهاء الثورة احضر الى مصر
والسلام .

فلما وصل آدم بك الى كسلا أنزل جنده خارج السور تجاه الباب الشرقي
وأخذ بروجيه وبلطجيه وذهب رأساً الى القشلاق حيث أقام العصاة فأمر
البروجي فضرب « نوبة جمعية ضباط » ولما اجتمع الضباط عليه خاطبهم
قائلاً : « يا أولادي ما هذا التمرد والعصيان اللذان جاهرتم بهما ألستم اولاد
أفندينا الذي شرفكم بخدمته وأجرى لكم الرزق والخيرات السنين الطوال
أيحسن بكم ان تعصوه وتنقضوا على حكومته وهو قد عهد اليكم تأييد سلطته
في البلاد ؟ نعم انكم مظلومون لعدم أخذكم رواتبكم في أوقاتها ولكم ان ترفعوا
أصواتكم بالشكوى ولكنكم خرجتم عن حد الشكوى ووسعتم الخرق . ومع
هذا فاني ارجو اصلاح الامر وأخذ العفو لكم من ولي النعم فاذا سألوكم بعد
الآن فقولوا انا لم نجد ضابطاً عظيماً من أبناء جنسنا نرفع له شكوانا ليلبغها
الى ولي نعمتنا فكان منا ما كان . وأريد منكم الآن ان تخرجوا خارج السور
فتقيموا بين جبل مكرام وجبل كسلا حتى يصل اليكم العفو ولا تغتروا بقوتكم
وكثرة جموعكم فان « يد الميري طويلة » فها انا قد جئت بجئت بجيش من العساكر
السود والباشبوزق وجاء قبلي جيش آخر والمدد آت في الطريق من كردوفان

وسنار وبربر ومصر فاذا تماديتم في العصيان فانهم يجتمعون عليكم ويقتلونكم شر قتلة فاقبلوا النصح وسلموا أمركم إليّ وانا أدبركم بحكمي ومروءتي . « وآدم بك عربي الجنس وأبوه محمد ضو البيت شيخ عربان دار حامد بكردوفان ولكنه كان شديد السمرة جداً وعارفاً بأخلاق السود حتى كان يُظن انه منهم فاستأنسوا به واطمأنوا لكلامه خصوصاً لأنه خاطبهم كأب فامثلوا أمره وخرجوا من القشلاق الى المكان الذي عينته لهم خارج السور .

وبعد وصول آدم بك بأربعة ايام حضر الصاري ششمه عبد الله باشا من الخرطوم وبربر ومعه ثلاثة ارادي من الباشبوزق فعسكر خارج السور . وعقد اللواء حسن باشا مجلساً في ديوان المديرية مع عبد الله باشا والمدير وآدم بك وسائر الضباط والسناجق للنظر في شأن العصاة فقرّر رأيهم على تجريدتهم من السلاح وولجوا الأمر لآدم بك فسلموه سلاحهم عن رضى . ثم عقد الضباط مجلساً آخر للنظر فيما يفعلونه بعد فكان رأي الاكثريه على قتلهم فأنكر آدم بك هذا الرأي وقال اني حلفت لهم بشرفي انه لا يقع عليهم حكم إلا اذا صدقه أفندينا وعلى هذا سلموني سلاحهم فالآن نرفع الامر الى افندينا والذي يأمر به نفعله . فأخذ المجلس برأيه ولكنه أقرّ على شد وثاقهم الى ان يأتي الردّ بشأنهم من مصر فأمروا عساكر الباشبوزق فركبوا خيولهم واحتاطوا بهم من كل جانب وأخذوا حبلاً من الخازن وشرعوا في تقييدهم وادخلهم في القشلاق جماعة بعد جماعة . وانهم كذلك اذا ببلوكباشي من الباشبوزق اختطف بنتاً من يد شاويش من الألاي ليتمكن من تقييده فبكت البنت فسأله ابوها ان يتركها وشأنها فشمته البلوكباشي ورفسه برجله فأخرج سكيناً من كفه وطعن البلوكباشي فقتله وهاج السود فأمر عبد الله باشا الباشبوزق فأطلقوا الرصاص عليهم فقتلوا اكثرهم وقبضوا على الباقيين قبض اليد وزجهم في السجن .

ثم لم يكن إلا القليل حتى حضر جعفر باشا مظهر يجنده وحقق أسباب الثورة . وكان الصاغ محمد افندي ابا حظلك قد كشف حظه في الرمل فقيل

له انه اذا بقي مع المدير يموت شنقاً فانضم الى العصاة وذلك قبل مجيء آدم بك من الخرطوم بيومين فأمر جعفر باشا بشنقه فشنق. ثم شنق بعده اليوزباشي بشير اغا السوداني الذي اتحد مع الجهادية بعد رجوعهم من المتكناب . أما الجهادية العصاة الذين سلموا من القتل فقد جعلهم ثلاث فئات فجعل الذين بدأوا بالثورة مع خطاب افندي ثم عصوا في المتكناب فئة اولى . والذين عصوا بعد رجوع الفئة الاولى من المتكناب فئة ثانية . والذين كانوا متغيبين في الجهات خارج البندر او الذين كانوا فيه ولم يظهروا العصيان فئة ثالثة . فحكم على رجال الفئة الاولى بالاعدام فأوثقوهم وصفوهم على خندق حفروه لهم في سفح جبل مكرام وضربوهم بالرصاص فسقطوا في الخندق ثم ردموا الخندق فكان من الردم تل ظاهر . وحكم على رجال الفئة الثانية بالحبس المؤبد مع الاشغال الشاقة فاستخدموهم اولاً في بناء المنازل التي خربوها . وأما رجال الفئة الثالثة فقد نظم منهم ٣ بلوكات وأبقاهم في المديرية . أما ابراهيم بك أدم المدير فقد توفي قبل وصول جعفر باشا الى كسلا بأيام قليلة وكانت وفاته بفترة حتى قيل انه شرب سماً ليتخلص من الامانة والمعقاب . وتوفي بمعه عبد الله باشا ، ثم عثمان بك . وكان اللواء حسن باشا قد أصيب بالاسهال قبل وصول جعفر باشا الى كسلا فتوفي بعد وصوله بأيام قليلة .

وهكذا انتهت ثورة الجهادية السود في كسلا بعد ان جرّت الخراب على أهلها وضاع فيها الكثير من النفوس والاموال . ولم تكتفِ بهذه بل جرّت وراءها ذبلاً أي حمى وبائية نجمت عن فساد الهواء لكثرة القتلى فمات بها خلق كثير .

١٨ - جعفر باشا مظهر سنة ١٢٨٢ : ١٢٨٧ هـ - ١٨٦٦ : ١٨٧١ م

أما جعفر باشا مظهر فانه بعد ان هدأ الثورة في كسلا أقام حسن بك مديراً عليها وتوجه الى الخرطوم وذهب آدم بك الى مصر طوعاً للأمر فأنعم عليه اسماعيل باشا برتبة اللواء وبالنيشان المجيدي الثاني وسمى جعفر باشا

مظهر حاكماً عاماً للسودان فعاد جعفر باشا صادق مريضاً الى مصر ودخل مظهر باشا الخرطوم في ١٧ شوال سنة ١٢٨٢ هـ ٥ مارس ١٧٦٦ و ثاني يوم دخوله قري الفرمان العالي بحضور جمع حافل من العلماء وأرباب المناصب والاعيان وبعد قراءته دخل الناس للسلام عليه وكان هناك شاهين باشا الذي حضر بالنيابة عن اسماعيل باشا لتنظيم مالية السودان فعرفه بجميع الداخلين عليه فخلع على العلماء والوجهاء أحسن الخلع. وجعل علي بك فضلي وكيلاً له. ثم جمع العساكر السودانية من التاكا وود مدني وكردوفان وغيرها وأرسلهم الى مصر وأتى بعساكر مصرية عوضاً عنهم .

وكان عند قدومه الى الخرطوم قد حدث غلاء واشتد حتى هاج الناس فأرسل بعض التجار بنقود من الخزينة الى الجهات فأتوا بالغلل فرخصت حتى صار ربع الذرة بقرش بعد ان كان بخمسة غروش .

وفي أواخر سنة ١٨٦٦ م ذهب الى سنار وفازوغي وكردوفان فاستطلع أحوالها ثم عاد الى الخرطوم فطلب من مصر ردّ العساكر السودانية الى السودان .

وفي هذه السنة أي سنة ١٨٦٦ م تخلت الدولة العليا عن سواكن ومصوع الى الحكومة المصرية بزيادة « ١٦٠٠٠ جنيه مصري » على جزيتها السنوية .

وفي ١٦ الحجة سنة ١٢٨٣ هـ ٢١ ابريل سنة ١٨٦٧ م ذهب جعفر باشا الى مصر بطلب من اسماعيل باشا فأرسل بمهمة الى جهة البحر الاحمر وبعد قضائها رجع الى مصر فوصلها في غرة رجب سنة ١٢٨٥ هـ ١٨ اكتوبر سنة ١٨٦٨ م وحال وصوله أرجع معظم العساكر المصرية الى مصر .

وفي سنة ١٨٦٩ م قام من الخرطوم رجل يسمى البلالي بحملة صغيرة لاحتلال بحر الفزال وحضر السر صمويل باكر مكتشف بحيرة البرت نيازة بحملة من مصر لاحتلال خط الاستواء وذلك لضم هذين البلدين الى حكومة السودان ومنع تجارة الرقيق التي كانت قد عمّت تلك البلاد وسائر بلاد السودان

وقبل الشروع في ذكر هذين الحملتين أذكر طرفاً من تاريخ تجارة الرقيق على سبيل التوطئة فأقول :

تجارة الرقيق في السودان :

الاسترقاق قديم في الناس ظهر فيهم في كل زمان ومكان وأصله الفطرة التي جُبِل عليها الأحياء من استعباد القوي للضعيف . وأول ما ظهر استرقاق الناس في أسرى الحرب فكان الظافر يجعل أسراه في خدمته حتى يُفتدوا بالمال وإلا أبقاهم عبيداً عنده إلى الممات . وهذا في السود والبيض على حد سواء وكلامنا الآن في السود فقد مرّ بنا كيف كان الفراعنة من أول عهد التاريخ يغزونهم ويعودون منهم بالأسرى فينظمونهم في جيشهم أو يدخلونهم في خدمة بيوتهم واقتنى أثرهم اليونان ثم الرومان ثم العرب المسلمون الذين ملكوا مصر على التوالي . ثم كان كلما هاجر قوم من مصر أو آسيا إلى السودان يزحزح السود عن أماكنهم جنوباً ليفسح لنفسه مكاناً طيباً يقيم فيه حتى اضطر السود إلى الاعتصام بالجبال الصعبة ومستنقعات النيل الأعلى . ولما افتتح العرب المسلمون السودان وأسسوا فيه الممالك اشتد الخطب على السود ولم يعد لهم في بلادهم راحة لأن العرب لم ينفكوا عن غزوهم وسبيهم كلما سنحت لهم فرصة وربما أركن بعضهم إلى الحيلة والغدر فخالف ملكاً من ملوك السود وتعلم لغته وتزوج من بناته ثم تسنّت له الفرصة فاختطف النساء والأولاد وعاد إلى بلاده . وبذلك كثر السود عند عرب السودان حتى صار أحقر العرب يملك رقيقاً وزاد الرقيق عن حاجتهم فصاروا يتجرون به في مصر والحجاز وتفرغ من هذين البلدين إلى سورية وتركية والفرس وسائر بلاد المشرق وأصبح الاتجار بالرقيق في السودان مهنة من أعظم المهن .

البحارة : وكان أهل السودان إلى هذا العهد يحاربون بالحراب والسيوف والنشاب ولم يستعملوا البارود إلا نادراً فلما كان الفتح المصري ودخلت جنود مصر بأسلحتها النارية إلى السودان كثر استعمال البارود فيه وصار العربي

الواحد يرهب ببندقيته رهطاً من السود فسهل على العرب غزوم بل أصبح غزو السود وصيدهم صناعة لكثيرين منهم يتعيشون بها ويجمعون منها الاموال الطائلة . وقد توغل صياد الرقيق في النيل الابيض حتى وصلوا الى اعاليه وملأوا بلاد بحر الغزال وخط الاستواء قيل وكان اول من دخل بحر الغزال بعد الفتح المصري تاجر من الخرطوم يسمى الحبشي دخلها سنة ١٨٥٤ م في قارب صغير ثم اقتفى أثره الكثير من التجار وأشهرهم السيد احمد العقاد من مصر وعلي ابو عموري من صعيد مصر ومحجوب البصيلي من اسنا وغطاس القبطي وكوشوك علي التركي وادريس ابتر الدنقلوي وغيرهم . وكانوا في بادى يتجرون بالعاج والريش واللاستك ثم وجدوا ان الرقيق أربح لهم وصيده سهل فانعكفوا عليه وجندوا له العصائب . وكان التاجر منهم يأتي بعصابته بلداً من بلاد السود فيحفر خندقاً يضع داخله بضائعه وأسلحته ورجاله ويحيطه بزريبة من شوك ثم يشرع في جمع السن والريش مقايضه بالخرز والحراب والاساور وغيرها من الاشياء المرغوبة في تلك الجهات ويخزن ما يجمعه منها في زريبته ويبقى على ذلك الى ان يلقى فرصة في ذلك البلد فيهاجم أهله ببنادقه . وكان السود اذا سمعوا صوت البنادق فرؤوا كالانعام مملوئين رعباً وخوفاً فيغنم التاجر ويسبي ويعود الى زريبته . ومما جرأ التجار على مثل هذه الفعال انشقاق ملوك السود بعضهم على بعض فكانوا اذا هاجوا ملكاً منهم لم يخشوا انتصار جيرانه بل ربما استنصروا جيرانه عليه . وكانوا يقيدون أسراهم بقيود من حديد ويسوقونهم الى زرائبهم سوق الانعام حتى لقد يموت كثير منهم في الطريق وعند وصولهم الى الزرائب ينتقون أقوامهم بدنأ وأخفهم حركة وأثبتهم جناناً فيضمونهم الى عصابتهم ويدفعون الباقي مع السن والريش الى النحاسين . وقد عرف هؤلاء التجار « بالبحارة » لأنهم كانوا يغزون في البحر الابيض .

النهضة : وأما الذين كانوا يغزون الجبال كجبال النوبة وجبال فازوغلي فقد عرفوا بالنهضة . حدثني بعض زعماء النهضة في جبال النوبة عن كيفية

غزوم تلك الجبال قال : كنا لا ننهض للغزو إلا في أوان الزرع اذ يترك
السود جبالهم وينزلون الى السهول لزرع الحبوب فيستصحب كل منا نفرأ من
المشاة المسلحين بالبنادق وكتيبة من الفرسان البقارة المهاجرين لتلك الجبال
فيرد كل فارس معه رجلا ويسير الفرسان في مقدمة المشاة حتى اذا ظفروا
بجباة من السود أغاروا عليهم بخيلهم ونزل الرداف عن الخيل فشدوا وثاقهم
وساقوهم امامهم وانقلب الكل راجعين فاذا فزع السود من الجبال تصدئ لهم
المشاة وفتحوا عليهم أفواه البنادق وردوهم على أعقابهم خاسرين واقتسموا
الرقيق فيما بينهم النصف للفرسان والنصف الباقي نصفه للزعم ونصفه للمشاة
ومصير الكل أسواق الرقيق .

وأشهر أسواق الرقيق في ذلك العهد أسواق الأبيض وفاشودة والقلابات
التي كان يرد اليها الرقيق من دارفور وجبال النوبة وبحر الغزال وخط الاستواء
والحبشة وكان النخاسون يشترونهم من هذه الأسواق ويبيعونهم في أسواق
الخرطوم والمسلمية وود مدني وسنار والقضارف وكسلا وبربر وشندي
ويرسلون ما زاد عن حاجة البلاد الى الحجاز ومصر عن طريق النيل والبحر
الاحمر .

اما أثمان الرقيق فتختلف من الريال الواحد الى الخمسة ريال وذلك باختلاف
أجناسهم وأعمارهم وبنيتهم وبعدمهم عن منبعمهم الاصيلي . وثمان الاثنى اعظم من
ثمان الذكر . وأعز الرقيق رقيق الحبشة ثم رقيق الدنكا ثم النوبة ثم الفور
وأدناها رقيق الشلك .

وشر ما أنتجته هذه التجارة المميبة خصي العبيد الذكور بطريقة تقشعر
لها الابدان وهم ينتقون للخصي أقوى الصبيان وأصحبهم بنية من سن ٦ : ١٢
فما يبلغ هؤلاء المساكين سن الرشد حتى يظهر تأثير تلك القسوة البربرية على
وجوههم فتفور عيونهم وترتفع عظام وجوههم ويجرد منها اللحم ويضولون
حتى يصيروا أشبه بالهياكل منهم بالناس .

وقد تنهت الدول الى هذه التجارة المميبة منذ عهد بعيد وسعت في إبطالها وكانت الدولة الانكليزية اول من تنبه لها فألقت جمعية في مدينة لندن سنة ١٧٨٧ م ثم شاركتها باقي الدول دولة بعد دولة حتى تم اتفاقها كلها على ذلك بصورة قطعية في مؤتمر بروكسل في ٢ يوليو سنة ١٨٩٠ م .

اما مصر فانها لم تشارك الدول في إبطالها حتى توفقت الى حكم العائلة المحمدية العلوية فنادى محمد علي باشا بإبطالها على رؤوس الاشهاد عند زيارته السودان سنة ١٨٣٩ م وكذلك فعل سعيد باشا عند زيارته السودان سنة ١٨٥٨ م كما مرّ. ولما تبوأ اسماعيل باشا الأريكة الخديوية سنة ١٨٦٣م أصدر أوامره المشددة الى موسى باشا والي السودان فتعقب تجار الرقيق وفي تلك السنة عينها ألقى القبض على سبعين مركباً مشحونة بالأرقاء بين كاكا وفاشودة وأتى بهم الى الخرطوم ثم أحضر ملك الشلك من فاشودة فسلمه الرقيق الذي أخذ من بلاده وأرجعه بالهدايا ووزع الباقي على التجار والموظفين لتربيتهم . وأما التجار فانه زجّهم في السجن ولم يخرجهم منه حتى تعهدوا بعدم العودة الى مثل هذه التجارة .

احتلال فاشودة سنة ١٨٦٥ م :

وفي سنة ١٨٦٥ م أي في ايام جعفر باشا صادق احتلت العساكر المصرية فاشودة احتلالاً رسمياً فسدت طريق النيل الابيض في وجه اصحاب الزرائب في بحر الغزال وخط الاستواء . وكان التجار الاوروبيون قد باعوا زرائبهم الى وكلائهم العرب سنة ١٨٦٠ م فوضع جعفر باشا الضرائب على الزرائب ثم احتكرها السيد احمد العقاد شريك السيد موسى العقاد من الحكومة بخمسة آلاف جنيه في السنة على ان لا يتجر بالرقيق ولا يغزو بلاد العبيد ومع ذلك لم يزل رجاله يتجرون بالرقيق ويغزون العبيد وأصبحت بلاد خط الاستواء وبحر الغزال فوضى وأهلها بغاية الضيق والشدة . فرأت الحكومة انه لا يمكن

اصلاح الحال وإبطال تجارة الرقيق إلا اذا ضمت بلاد بحرالغزال وخط الاستواء الى السودان فعولت على ذلك وبادرت الى تنفيذه .

فتح خط الاستواء ، والسر صموئيل باكر سنة ١٨٦٩ : ١٨٧٣ م

ولما كانت سنة ١٨٦٩م انتدب اسماعيل باشا السر صموئيل باكر مكتشف بحيرة البرت نيانزة لفتح خط الاستواء فأنعم عليه برتبة فريق مع لقب باشا وعقد له على جيش مؤلف من ١٧٠٠ رجل هذا تفصيله : ٧١٠ من المشاة المصريين و ٥٠٠ من المشاة السودانيين و ٢٠٠ من الباشبوزق و ٢٩٠ من الطويحية المصريين ومعهم ٣ بطاريات مدافع جبلية وبطارية ساروخ وسماء حاكماً على البلاد الاستوائية لمدة اربع سنين ابتدئ من ١ ابريل سنة ١٨٦٩م براتب قدره ١٠٠٠٠٠ جنيه في السنة وأعطاه فرماناً يولج فيه افتتاح تلك البلاد وابطال تجارة الرقيق فيها وتأسيس نقط عسكرية قوية من كوندوكرو الى البحيرات وادخال السفن في نيلها وتنشيط زراعتها .

فقام باكر ومعه امرأته من السويس في ٥ ديسمبر سنة ١٩٦٩ وجاء الخرطوم عن طريق سواكن وبربر فوصلها بعد سفر ٣٢ يوماً وفي السابع من شهر فبراير سنة ١٨٧٠ قام بثلاثين مركباً من الخرطوم قاصداً بلاد خط الاستواء فمنعه السد عن استمرار السير فنزل قرب ملتقى نهر سبت بالنيل الابيض وبنى محطة دعاها بالتوفيقية على اسم ولي العهد وأقام فيها سبعة أشهر ثم فتح طريقاً في بحر الزراف وسار الى كوندوكرو فوصلها في ٢١ ابريل سنة ١٨٧١ فوجد فيها كنيسة للمرسلين النمساويين. وفي ٢٦ مايو سنة ١٨٧١ رفع عليها العلم المصري وسمّاها بالاسماعيلية على اسم الخديوي وجعلها مركزاً لحكومته . وكانت بلاد خط الاستواء لا تزال مأجورة للسيد احمد العقاد في الخرطوم فألحق بباكر باشا صهره وابن اخته أبا السعود العقاد للنظر في صالح تجارته فلم يتفق مع باكر .

وفي ٢٣ يناير سنة ١٨٧٢ سار باكر ببعض الجند من كوندوكرو جنوباً فأسس نقطة في الابراهيمية قرب الدفلاي وظن انها تكون عاصمة البلاد فيما بعد . ونقطة في فاتيكو ونقطة في فويّرة . ثم تقدم منها الى بلاد يونيورو فخلع ملكها كبريقه لأنه لم يخضع له وولى بدله مزاحماً له يُدعى ريونجه . وفي ١٤ مايو سنة ١٨٧٢ أعلن ضم بلاد يونيورو الى الحكومة الخديوية رسمياً وأسس نقطة عسكرية في عاصمتها مسندي وهي على ٥٠ ميلاً من البرت نيازة . وعقد شروطاً ودية مع متاسي ملك اوغنده وبذلك تدرّج الى بسط نفوذ الحكومة المصرية من سبت الى بحيرة فكتوريا نيازة . لكن هذا النفوذ لم يدم طويلاً في يونيورو فان كبريقه الذي خلعه باكر جمع جموعه وهاجمه في مسندي ولم يكن مع باكر إلا مئة رجل فأخلاها مضطراً في ١٤ يونيو سنة ١٨٧٢ وعاد الى فاتيكو فوجد فيها أبا السعود ومعه ٢٧٠ رجلاً فطرده منها فعاد شاكياً الى الخرطوم ثم الى مصر .

وعاد باكر باشا الى كوندوكرو فوصلها في ١ ابريل سنة ١٨٧٣ أي يوم نهاية مدته على خط الاستواء فترك رؤوف بك قومنداناً على العساكر في كوندوكرو وقام في ٢٦ مايو سنة ١٨٧٣ الى الخرطوم ومنها الى مصر فوصلها في ٢٤ اوغسطس سنة ١٨٧٣ واستعفى من وظيفته فقبل استعفاؤه .

الكولونيل غوردون في خط الاستواء

سنة ١٨٧٤ : ١٨٧٦ م

وبعد استعفاء باكر باشا من خط الاستواء أوصى ولي عهد انكلترا اسماعيل باشا بأن يكون الكولونيل غوردون في مكانه وكان اسماعيل باشا يود بقاء تلك البلاد لمصر فأمر بتعيينه ولقد كان لغوردون أعظم الشأن في السودان بل كانت منيته فيه ولذلك نأى على خلاصة تاريخه لهذا العهد فنقول: ولد غوردون في مدينة ولويتش ببلاد الانكليز سنة ١٨٢٣م وانتظم في سلك العسكرية سنة ١٨٥٢ م وكان ميالاً بالطبع الى لقاء الاهوال والصبر على المكاره مما اتصل اليه

بالارث من آباءه واجداده فان أبا جده اشتهر بالبسالة والبأس في الحروب الاسكوتلاندية . وشهد جدّه مواقع عظيمة وأخطار هائلة. وكان ابوه ضابطاً في الطويجية الانكليزية فارتقى فيها الى رتبة فريق . وحضر غوردون حصار سيستبول سنة ١٨٥٥ م فشهد له بالدربة والاقدام . وفي سنة ١٨٦٠ م سافر الى الصين ودخل الجيش فواقع عدة وقائع دلت على شجاعته وتمام براعته في الفنون العسكرية فنال من سلطان الصين لقب صاري عسكر. وفي سنة ١٨٦٥ م عاد الى الجيش الانكليزي فرُقي فيه الى رتبة كولونيل وبقي في بلاد الانكليز الى ان سمي حاكماً للبلاد الاستوائية سنة ١٨٧٤ م كما مرّ .

وهذه هي صورة الفرمان الذي أصدره له اسماعيل باشا بتاريخ ٢ محرم سنة ١٢٩١ ١٩٨ فبراير سنة ١٨٧٤ م نمرة ٩١ سايرة :

و انه بحسب المشهور فيكم من اللياقة والأهلية فد عيناكم مأموراً على جهات خط الاستواء التابعة الحكومة وصار فرز هذه الجهة من تبعية حكمدارية السودان وصارت قائمة بنفسها غير تابعة الحكمدارية انما كافة لوازماتها التي يقتضي الحال لتداركها من طرف الحكمدارية هذه يجري تداركها بمعرفة الحكمدار وصرف ثمنها من طرفه مقابلة محاسبة المالية بذلك كما أمرنا الحكمدار المومي اليه بأمرنا الصادر له في تاريخه ومرسل لكم طي هذا لتوصيله اليه عن يدكم . وبما ان أمور التجارة في ذاك الطرف هي يد واحدة يقتضي ان الذي يتحصلوا عليه من تلك الجهات من انواع التجارة بعد صرف كفاية مرتبات العساكر والتعينات ترسلوه الى حكمدار السودان لقبوله من اصل ما يصرفه في أثمان اللوازم التي تطلبوها منه وعند وصولكم الآن لتلك الجهات واختباركم أحوالها تجروا ترتيبها بحسب ما يترامى لكم وتستحسنوه سواء كان باجعال مديرتين او اجعال اقسام او نحو ذلك مما يتوصل به انتظام الجهات المذكورة واستعدادها مع معاملة أهاليها بالرفق ولين الجانب والتأليف والمراعاة لما فيه عمادتهم وترغيبهم وتشويقهم على العمارية ودخولهم في سلك الانسانية شيئاً فشيئاً وهكذا مما يلزم أجروه على حسب التعليمات التي أعطيت لكم بالفرنساوي وها

هو موجود هناك رؤوف بك قومندان العساكر الموجودة بذاك الطرف وتحرر له أمر من طرفنا ومرسول طيه لتوصيله له بمعرفتكم وأمرناه به ان يكون هو والعساكر تحت أمركم فيما يجب اجراه في صالح المصلحة ولو ان المومى اليه ومن معه من العساكر صار لهم مدة زائدة في تلك الجهات ولذلك منظور في ارسال خلافهم من هذا الطرق لتغييرهم لكنه في مسافة ارسال البديل يكون المومى اليه والعساكر منقادين لأوامركم حسب اصول وقوانين الجهادية. وعلى هذا وما منظور لنا فيكم من حسن الغيرة والاهلية مؤملين الاستحصال على ما فيه عمارية جهات خط الاستواء المحكى عنها وراحة أهاليها وحسن توطينهم وتأليفهم على الدخول في سلك الانسانية شيئا فشيئا كما هو مطلوبنا.

حاشية : انه بعد توجهكم ووصولكم ذلك الطرف تعملوا الترتيب اللازم عن مصاريف تلك الجهة بحسبما يلزم لها من الخدمة والعساكر وكلما يلزم تداركه وارساله من جهات الحكمدارية على حسب الترتيب المذكور تطلبوه من الحكمدارية وتعينوا له الاوقات والمواعيد اللازم تداركه وارسال اللوازم المذكورة فيها بحيث اذا كانت الايرادات على فرض لا تكفي المصروفات فالحكمدار يرسل لكم كلما تطلبوه ويحاسب ديوان المالية بذلك يكون معلوم ، اه .

وسار غوردون من مصر القاهرة ومعه نفر من الموظفين والاتباع في ٢١ فبراير سنة ١٨٧٤ فأخذ من الخرطوم بعض الجنود وفي جملتهم ابراهيم أفندي فوزي (ابراهيم باشا فوزي الآن) وتوجه الى خط الاستواء فوصل كوندوكرو في ١٥ ابريل سنة ١٨٧٤ م فقابله رؤوف بك بالاحتفاء فأبقاه عنده بضعة أشهر ثم أرسله الى مصر فسمي حاكماً على هرر كما سيجيء .

وكان غوردون قد صادف أبا السعود في مصر فأخذه معه الى خط الاستواء وجعله في خدمته مع نفر من تجار الرقيق ليمنعهم عن الاتجار بالرقيق من جهة ويستعين بهم على تعقب تجار الرقيق من جهة اخرى . فبعد وصوله الى كوندوكرو بشهرين اكتشف ثلاث زرائب لتجار الرقيق على بحر الزراف

فهدم الزرائب وأعتق الأرقاء الذين وجدهم فيها . ولكن أبا السعود وارفاه لم يصدقوه الى النهاية فعزلهم جميعاً وكان أكثرهم جملين ودناقلة . وفي ١١ سبتمبر سنة ١٨٧٤ م جاءه ٢٥ رئيساً من رؤساء السود وقدموا له الطاعة وشكروه على مطاردته تجار الرقيق في بلادهم . وفي الشهر التالي ضبط يوسف بك مدير فاشودة زمرة من النخاسين ومعهم ١٦٠٠ رقيق و ١٩٠ رأس بقر أتوا بهم من بحر الزراف .

ورأى غوردون ان هواء كوندو كرو غير صحي فنقل مركز حكومته الى اللادو وذلك في ٢١ نوفمبر سنة ١٨٧٤ م . وقد امتدت حكومته من ملتقى نهر سبت بالنيل الابيض الى بحيرة فكتوريا نيانزه . وكان أهم ما اشتغل به تأسيس نقط عسكرية قوية على النيل لأجل حماية البلاد من تجار الرقيق وحفظ النظام والأمن فلم تنته سنة ١٨٧٤ حتى كان قد أسس عشر نقط وهي سبت والناصر على نهر سبت وشامبه ومكره وبور واللاتوكه واللاو والرجاف والدفلاي وفاتيكو وفويره على النيل الابيض وجعل فيها ٦٤٠ من العساكر السودانية و ١٥٠ من العساكر المصرية و ٦٥٠ من الباشبوزق الدناقلة والجعلين . وبعد ذلك أسس نقطة في مرولي على نيل فكتوريا ونظم في جيشه عدداً كبيراً من الأرقاء الذين حررهم من الزرائب .

وكان باكر باشا قد أحضر وابورين قطعاً من مصر بقصد بنائها وتنشيط الملاحة في البحيرات ولكن انقضت مدته ولم يتمكن من بنائها فلما تم لغوردون تأسيس النقط العسكرية حمل قطع الوابورين في البر الى جنوبي شلال الفوله قرب الدفلاي وبنائها هناك وسمى الكبير منها الحديوي والصغير نيانزه فبقيا بين الدفلاي وبحيرة ألبرت نيانزه الى قيام الثورة المهدية كما سيجيء .

وكان ممن صحبوا غوردون الى خط الاستواء او انضموا اليه بعد ذهابه : الكولونيل لونج من ضباط الاميركان العظام في الجيش المصري والدكتور أمين وجسي والكولونيل بروت وعبد العزيز بك ابن لبنان باشا . وكان للدكتور امين وجسي اكبر شأن في تاريخ خط الاستواء وبحر الغزال

لذلك نقتطف هنا نتفاً من بدء سيرتها قبل الشروع في ما كان من تاريخها هناك : اما الدكتور امين فاسمه الاصيلي ادوارد شنيترز وقد وُلد في ٢٨ مارس سنة ١٨٤٠ م في مدينة اوبلن من اعمال سيليسيا بروسيا وتلقى العلوم في فيينا وباريس ونال شهادة دكتور في الطب ثم دخل في خدمة الدولة العلية في اسكودار وبقي الى ان سُمي غوردون حاكماً على خط الاستواء وكان الدكتور امين يعرفه فذهب الى الخرطوم واستأذنه في السفر اليه فأذن له وحال وصوله أعطاه لقب بك وسماه حاكماً على اللادو .

اما جسي فهو ضابط إيطالي شديد العارضة قوي الارادة وقد رافق الجيش الانكليزي الى حرب القرم بصفة مترجم ثم انضم الى غوردون باشا في خط الاستواء .

وقد استعان غوردون بهؤلاء الضباط على درس البلاد وتمهيدها فانه عند وصوله الى كوندوكرو أرسل الكولونيل لونج الى ملك يونيورو لكشف خبره فوجد جميع المتشردين من تجار الرقيق قد اجتمعوا اليه وهو لم يزل على العصيان فتركه وشأنه وذهب الى متاسي ملك اوغنده فوجده لم يزل على الولاة وعاد بالخبر الى غوردون فأرسل غوردون امين بك الى الملك متاسي للحفاظ على مودته . وأرسل جسي الى بلاد بحر الغزال لكشف خبرها ولما عاد أرسله بركبين الى بحيرة البرت لاستطلاع حالها وحال القبائل المقيمين فيها وذلك في مارس سنة ١٨٧٦ م فطاف البحيرة وقضى في طوافه تسعة ايام فوجد طولها ١٤٠ ميلاً وعرضها ٥٠ ميلاً ووجد القبائل القاطنة حولها معادية للحكومة .

اما عبد العزيز بك لينان فانه قُتل في ثورة أثارها السود على العساكر وهم ينقلون قطع الواورين المار ذكرها الى الدفلاي فأخذ غوردون بثأره .

وبقي غوردون مجدداً في تنظيم البلاد واصلاح شؤونها بلا مساعدة مصر الى سنة ١٨٧٦ م فاستعفى وعاد الى مصر ومنها الى بلاد الانكليز تاركاً الكولونيل بروت من اركان حربه وكيلاً على خط الاستواء. ثم ذهب الكولونيل بروت فناب عنه امين بك فبقي الى ايام الثورة المهديّة على ما سيحيء .

وكان في جملة من شهد اعمال غوردون في خط الاستواء ابراهيم باشا فوزي الذي صحبه من الخرطوم كما مرّ وعاد معه الى مصر وقد بين ذلك تفصيلاً في كتابه « السودان بين غوردون وكتشنر » الذي نشره بعد نجاحه من أسر التعايشي .

هذا ما كان من احتلال خط الاستواء وحكم السر صموئيل باكر وغوردون باشا فيه ولنرجع الآن الى ولاية الخرطوم وما كان في أيامهم من الحوادث .

عود الى ولاية ١٨ - جعفر باشا مظهر :

تركنا الخرطوم في ولاية جعفر باشا مظهر سنة ١٨٦٩ م ودام حكمه عليها محموداً الى ٢ جمادى الاولى سنة ١٢٨٨ هـ ٢٠ يوليو سنة ١٨٧١ م فعزل . وكان رجلاً عفيفاً صادقاً شهماً وكان كاتم أسراره التهامي بك من أمهر الكتاب فقدم له التهامي استغفائه في بعض الايام فكتب اليه في الجواب هذه الكلمات : « حتى يلج الجمل في سم الخياط » .

١٩ - ممتاز باشا سنة ١٢٨٧ : ١٢٨٩ هـ - ١٨٧١ : ١٨٧٣ م

وتولى السودان بعده ممتاز باشا فأدخل اليه زراعة القطن المصري وكان هذا هو الأثر الحميد الوحيد الذي تركه فيه لأنه مدّ يده الى الرشوة وأخذ من سنار وحدها على رواية بعض معاصريه مئة وخمسين الف ريال ونيقاً . وقد أكثر اهل السودان من التشكي عليه فأوقف عن الخدمة سنة ١٨٧٣ م وسجن في الخرطوم لتحقيق تلك التشكيات فمات هناك سنة ١٨٧٥ م .

٢٠ - اسماعيل باشا ايوب سنة ١٢٨٩ : ١٢٩٣ هـ - ١٨٧٣ : ١٨٧٧ م

وجاء على السودان بعد عزله اسماعيل باشا ايوب فجرت في عهده حوادث جمة ذات بال . وكانت فاتحة اعماله انه اشتغل في إزالة السدّ من النيل الابيض .

وفي اول سنة من ولايته أي سنة ١٨٧٣ م قسمت البلاد الى مديريات
وجعل كل مدير مسؤولاً عن مديريته ومستقلاً عن والي الخرطوم وكان اذ ذاك
يوسف بك مديراً على فاشودة وحسين بك خليفة على بربر .

وفي تلك السنة عاد باكر باشا من خط الاستواء ثم سمي غوردون باشا
حاكماً على خط الاستواء وعاد منها وهو أي اسماعيل باشا ايوب الوالي على
الخرطوم كما مرّ .

وأعظم ما تمّ في السودان على ايامه فتح سلطنة دارفور وضمها الى أملاك
الحكومة المصرية عن يد الزبير رحمت باشا . وقد وُفِّقتُ الى تفصيل ذلك
الفتح مع تفصيل سيرة الزبير وحركاته في بحر الغزال من الزبير باشا نفسه
وهناك خلاصتها :

سيرة الزبير باشا

وفيها فتح بحر الغزال ودارفور

نسبه ووطنه : حدثني الزبير عن نفسه قال : أنا الزبير بن رحمت بن
منصور بن علي بن محمد بن سليمان بن ناعم بن سليمان بن بكر بن شاهين بن جميع
ابن جموع بن غانم العباسي . هاجر أجدادي العباسيون بغداد بعد هجوم التتر
عليها سنة ٦٧٦ هـ ١٢٧٨ م فأتوا مصر فوجدوا فيها الفاطميين حكاماً فلم يطبقوا
الاقامة معهم فنزحوا الى بلاد السودان فسكن بعضهم النيل وبعضهم بلاد
دارفور وودّاي وتشعبوا على النيل قبائل فكانت في جملتها قبيلتنا المعروفة
بالجميعاب نسبة الى جدنا جميع وقد أقامت على النيل الكبير بين جبل قرّي
وجبل الشيخ الطيب واشتهرت بين قبائل السودان بالشجاعة وحماية الذمار .
ولما حضر اسماعيل باشا الى السودان فاتحاً استقبله أعياننا بالترحاب وعاهدوه
على الولاة وفي جملتهم المرحوم ابي رحمت وأخوه الفيل فحفظوا العهد الى ان

توفاهم الله وقمنا نحن فسرنا على مثالهم في الطاعة والولاء وما زلنا كذلك الى اليوم . اما أنا فقد ولدت في جزيرة واوسسي في ١٧ محرم سنة ١٢٤٦ هـ ٨ يوليو ١٨٣١ م ونشأت في حجر والدي الى ان بلغت السابعة من العمر فأدخلني مكتب الخرطوم فتعلمت القراءة والكتابة وحفظت القرآن الشريف على رواية ابي عمر والبصري وتفقهت على مذهب الامام مالك ولما بلغت الخامسة والعشرين من العمر تزوجت بابنة عمي لي واشتغلت بالتجارة للتعيش بها .

سفره الى بحر الغزال سنة ١٢٧٣ هـ ١٨٥٦ م : وبعد ذلك بستين دخل ابن عمي المسمى محمد عبد القادر في خدمة علي ابي عموري من أهالي نجع حماده بصعيد مصر ومن التجار الكبار الذين كانوا يتجرون في بحر الغزال وسافر معه خلصة فلما بلغني خبر سفره أخذتني الشفقة عليه لأن بلاد بحر الغزال كثيرة الأخطار بعيدة الشقة فلحقته قصد إرجاعه فأدركته في حلة ود شلعي على النيل الابيض مسيرة يوم من الخرطوم وأخذت أثبط عزمه عن السفر فأقسم ألا يعود الى الخرطوم قبل ان يتم سفرته فشق علي ذلك وأقسمت له بالطلاق انه اذا لم يرجع عن عزمه سافرت معه وقد عظمتم القسم ظناً انه لا يرضى بسفري معه فيرجع مضطراً ولكنه لم يزل مصرأ على السفر فسافرت معه برأ بالقسم ودخلت معه في خدمة ابي عموري فسرنا من ود شلعي في ١٤ محرم سنة ١٢٧٣ هـ ١٤ سبتمبر سنة ١٨٥٦ م قاصدين بحر الغزال وأنا أستعيد بالله من ذلك السفر الذي لم أكن اتوقع منه إلا الشر والاطار لكنه جاء بأحسن ما كنت أتمنى بل كان سبب نجاحي وشهرتي ورفع منزلي الى مقام لم ينله احد في السودان قبلي وهيئات ان يناله احد فيه بعدي « وعسى ان تكرهوا شيئاً وهو خير لكم » .

هذا وما زلنا سائرين في النيل الابيض حتى وصلنا موردة بحر الغزال المعروفة بمشعر الرريك التي لايمكن للمراكب ان تتعدها جنوباً فنزلنا بامتعتنا وبضائعنا الى البر في ٢ صفر من السنة المذكورة واخرقنا بلاد الجانقية الى

بلاد الجور حيث كانت زريبة علي ابي عموري المعروفة باسم عاشور علي اسم شيخ البلد فدخلناها في ١٧ من الشهر المذكور . وكان في بحر الغزال في ذلك الحين تجار كثيرون غير ابي عموري متفرقون في جميع أنحاء البلاد . ولكل تاجر منهم زريبة من شوك يأوي اليها ويضع فيها تجارته . وأهم الأصناف الرائجة في تلك البلاد الخرز علي اختلاف انواعه وألوانه والودع والقصدير وكله مما يتزين به الاهلون نساء ورجالاً ويفضلونه علي الذهب والفضة فيأخذونه من التجار مقيضة بسن الفيل والخرتيت وريش النعام واللاستك والحديد والنحاس وغيرها من محصولات البلاد .

احماده ثورة محلية سنة ١٢٧٤ هـ ١٨٥٧ م : فأقمت مع صاحبي علي عموري مساعداً له علي تجارته ولكن ما لبثنا بضعة أشهر حتى هاج اهل البلاد علي التجار طمعاً في أموالهم سنة ١٢٧٤ هـ ١٨٥٧ م فجمعوا جموعهم من كل الجهات وهاجموا الزرائب فقتلوا بعض التجار وسلبوا أموالهم وهاجموا زريبة صاحبي ابي عموري فقامت في رأس رجاله وأشعلت فيهم النار وهزمتهم شر هزيمة بعد ان قتلت منهم خلقاً كثيراً فلما سمع التجار في الجهات بانتصاري عليهم جاؤوا اليّ والتفوا حولي وهابني اهل البلاد فلم يعودوا يجسرون علي مهاجمتي . وقد رأى صاحبي ابو عموري ان سلامته كانت عن يدي فأحبني وجعل لي قسماً من أرباحه أي عشر السن ولما هدأت البلاد تركني في محله وكيلاً عنه وسار الي الخرطوم فغاب ستة اشهر وعاد بالبضائع فوجد عندي من محصولات البلاد ما لم يكن يجمعه هو في سنين فزادت رغبته فيّ وعرض عليّ الشركة بالنصف فأبيت وعزمت علي انشاء محل تجاري لنفسي .

ذهابه الي الخرطوم وعودته الي بلاد قولو سنة ١٢٧٥ هـ ١٨٥٨ م : وبهذا العزم رجعت الي الخرطوم فدخلتها في ٧ ربيع الاول سنة ١٢٧٥ هـ ١٥ اكتوبر سنة ١٨٥٨ م وكنت قد جمعت من تجارتي مع ابي عموري نحو الف جنيه فاشترت بها بضائع وذهبية واكثريت بعض الانفار علي عادة التجار وسلحتهم

بالبنادق وسرت بهم والبضائع في الذهبية الى مشرع الريك فنزلنا فيه واستأجرت بعض السود فحملوا بضائعي وسرت برأ في بحر الغزال وانا عازم على ان أطرق بلاداً جديدة لم يطرقتها احد قبلي فقطعت بلاد الجانكاه والجور والبنقو وجئت الى بلاد قولو . وكان عليها ملك يقال له كواكي فرحب بي وأكرم مثواي فأخذت أتجر في بلاده حتى اجتمع عندي من سن الفيل وريش النعام وغيرهما من خيرات البلاد شيء كثير فأرسلتها مع ابن عم لي يدعى محمد احمد رحمة الى الخرطوم فباعها وعاد اليّ بالبضائع في ١٧ ربيع اول سنة ١٢٧٦ هـ ١٤ اكتوبر سنة ١٨٥٩ م .

سفره الى بلاد النامم ١٢٧٦ هـ ١٨٥٩ م : وفي أثناء اقامتي في بلاد قولو علمت ان بلاد النامم الواقعة الى الجنوب الغربي منا بلاد واسعة الاطراف كثيرة الجواميس والافئال ولا قيمة لسن الفيل فيها لكثرتة وعليها سلطان عادل يسمى السلطان تكه . فبعد رجوع ابن عمي بنحو شهر ونصف شهر حملت بضائعي وسرت بها خمسة وعشرين يوماً الى سلطان النامم فقدمت له هدية فاخرة واستأذنته في الاتجار في بلاده فأذن لي . وكان النامم لا يعرفون الحمير في بلادهم ولا الجمال ولا الخيل وكان معي حمار فأهديته الى السلطان فاستغرب هيئته وقد ظنه رجلاً ممسوخاً ولم يقبله . وكان لهذا السلطان نحو ٤٠٠ امرأة و ٤٠٠ ولد من صبيان وبنات فزوجني بأكبر بناته رانسبوه فعلا مقامي بهذه المصاهرة في عيون اهل البلاد وزادت تجارتي رواجاً وتحسيناً حتى اجتمع عندي في وقت قصير شيء كثير من سن الفيل والخرتيت وغيرهما .

رجوعه الى الخرطوم مرة ثانية وتيهه في الطريق سنة ١٢٧٨ هـ ١٨٦٢ م : فلما كان ١٧ رمضان سنة ١٢٧٨ هـ ١٨ مارس سنة ١٨٦٢ م استأذنت السلطان تكه وسرت بهذه السلع قاصداً الخرطوم فمررت بصاحبي علي عموري فوجدته متأهباً للسفر بتجارته الى الخرطوم فاتفقنا على الذهاب معاً وكانت زريبتة عاشور قرب نهر البنقو احمر فروع بحر الغزال الذي لم يسلكه احد من قبلنا

فأردنا فتحه للتخلص من مشقة نقل البضائع بالبر فبنينا مركبين ووسقنا فيها
بضائعنا ورجالنا البالغ عددهم ٢١٤ نفرأ وسرنا قاصدين مشرع الريك ومعنا
من الزاد ما يكفيننا نحو شهرين فبعد ان سرنا ١٣ يوماً بلباليها اتسع مجرى
النهر حتى صار أشبه ببحيرة واسعة منه بالنهر وخفي علينا المجرى الاصلي
فتها في تلك البحيرة خمسة وسبعين يوماً لا نرى فيها إلا السماء والماء وقد نفذ
منا الزاد فأكلنا ما كان معنا من الجلود واشتد بنا الجوع .

وفيا نحن في هذا الكرب اذا بدخان لاح لنا من بعيد فاخترت انا وصديقي
علي عموري تسعة أنفار من رجالنا ونزلنا في قارب صغير أتينا به معنا وسرنا
قاصدين جهة الدخان فلم نبعد عن المركبين إلا قليلاً حتى اختفى الدخان ثم
غاب عنا المركبان فأصبحنا نسير على غير هدى فتها وجعنا حتى أشرفنا على
الهلاك ثم حانت منا التفاتة فرأينا شجرة قائمة على تل في وسط الماء ووجدنا
تحتها تمساحاً كبيراً فاصطدناه بالرصاص وتزودنا به فعاد لنا بعض نشاطنا
وانقلبنا راجعين نحو المركبين فالتقينا بهما بعد غيبة ٤ ايام فوجدنا رجالنا قد
مات منهم ١٨ نفرأ ولما علموا بخيبتنا مات منهم رجل في الحال وقد أكدوا
لنا انهم كانوا يرون الدخان كل يوم في آخر النهار فأيقنت اذ ذلك بوجود بر
قريب فانتقيت ١٢ رجلاً من أقوى رجالي وأنزلتهم في القارب وتوجهت ثانية
الى جهة الدخان فلم تمرّ بضع ساعات حتى أشرفنا على جزيرة واسعة مأهولة
بالناس وفيها من الابقار ما لا يحصى عدده فنزلنا الى البر فوجدنا ان الدخان
الذي كنا نراه هو دخان ابروات الابقار التي كان يحرقها الأهليون في عصر كل
يوم ليتخذوا رمادها فراشاً لهم كما هي عادتهم . وكان يسكن تلك الجزيرة
قوم من النوّير وعليهم ملك يسمى كُرُّمٌ فلما دخلنا الجزيرة اجتمع علينا
أهلها وهم يتعجبون من زيّنا وملابسنا فسألونا وهم ينوون الغدر بنا من أين
أتيتم من السماء ام من الارض ام من الماء وماذا ترومون من الدخول في جزيرتنا
وكان معي مترجم يحسن لغة القوم ويعرف ملكهم فقلت اني اعرف ملككم
كريم وأريد ان تأخذوني اليه فلما رأوني عارفاً لغتهم وسلطانهم فرحوا بي

وأمنوني على حياتي وحياة رجالي وذبحوا لنا بقرة قصد الضيافة فأكلناها وقد
أكل البعض منا بشره زايد فماتوا بعد الفراغ من الأكل ببضع دقائق . ثم
اشترت ثمانية أبقار وذبحتها وأرسلتها قطعاً في القارب الى بقية الرفاق في
المركبين فأكلوا وجدوا السير حتى رسوا عند الجزيرة وذهبت لمقابلة الملك
كرّيم ولما امتثلت بين يديه حيثه فردّ عليّ التحية ثم اخذ يسألني عن أمري
والسبب الذي أتى بي الى جزيرته فأجبتة على جميع أسئلته . ولما انتشر
خبرنا في الجزيرة أخذ كبارها يفدون الى الملك أفواجا طالبين قتلنا والاستيلاء
على أموالنا فأذن لهم في ذلك بعد تردد بعد خروجنا من داره وقد أدركنا
غايتهم وبتنا تلك الليلة ونحن نحرس أنفسنا بالمناوبة وجاءت نوبتي في الهجيع
الاول من الليل فشاهدت أسداً مقبلاً من بعيد فرميتة بالرصاص فخرّ على
الارض يخبط بدمائه فاستيقظ الملك كرميم من نومه ظاناً ان رجاله جاؤوا
لحربنا واستيقظ الكثير من سكان الجزيرة فلما رأوا الاسد مقتولاً فرحوا فرحاً
شديداً لأن ذلك الاسد كان متسلطاً عليهم يفترس كل من يصادفه منهم حتى لم
يعد يجسر احد على الخروج من بيته ليلاً أما الملك كرميم فقد عظم سروره من
قتلي للأسد حتى انه عقد لي على احدى بناته ورغبني في الإقامة معه في جزيرته
فأقمت عنده شهراً كاملاً حتى اشترت جميع ما يلزمي من المؤت ثم
احتلت عليه وخرجت من جزيرته بالمركبين ولكن ما كدنا نغيب عن الجزيرة
حتى تهنا ثانية في عرض تلك البحيرة وما زلنا تأهين حتى فرغ زادنا
ومات جميع من في المركبين إلا صديقي علي عموري وستة رجال واذ
أشرفنا على الهلاك لاح لنا مركب من بعيد فأطلقنا له عياراً نارياً فأقبل
علينا فاذا به عبد الرحمن ابو قرون من تجار بحر الغزال فلما رأنا على تلك
الحال بكى وقدم لنا ما لزمنا من الزاد والكسوة . وكنا على خمسة ايام
من مشرع الريك فسرنا اليه مجدّين حتى أتينا في ٢ صفر سنة ١٢٨٠ هـ ١٩
يوليو سنة ١٨٦٣ فاجتمع الناس حولنا يهنئوننا بالسلامة ويعزوننا عما فقدناه
من الاموال والرجال ثم أقلعنا بالمراكب الى الخرطوم فدخلناها في ٢٧ ربيع

الاول من تلك السنة ١١ سبتمبر سنة ١٨٦٣ فلبثت في الخرطوم بضعة أشهر
ريثاً بعث تجارتي واشترت بثمنها تجارة اخرى مما يروج بتلك البلاد وأسلحة
وذخائر وزدت عدد رجالي .

رجوعه الى بلاد النام سنة ١٢٨٠ هـ ١٨٦٣ م : وفي ٢٢ القعدة سنة
١٢٨٠ هـ ٢٩ ابريل ١٨٦٣ م برحت الخرطوم قاصداً بلاد النام فوصلتها في ٢٠
صفر سنة ١٢٨١ هـ ٢٥ يوليو سنة ١٨٦٤ م وقدمت هدايا نفيسة للملك تكمة
فسرّ بها وأولم لي وليمة فاخرة ذبح فيها عدداً وافراً من الوحوش ومئة كلب
من أسمن الكلاب المعدة لأكله وعدتُ الى دار زوجتي رانبوه وشرعت في
بيع البضائع . وقد جرت العادة في تلك البلاد ان يبيعوا في الاسواق اصحاب
الجنايات كالسارق والزاني وينجحونهم كالغنم ويبيعون لحومهم طعاماً فاقتديت من
هؤلاء من وجدته اهلاً لحمل السلاح حتى اجتمع عندي نحو خمس مئة رجل فسلحتهم
بالأسلحة النارية وعلمتهم حملها واستعملها فأوجس الملك تكمة شراً وخاف مني
على مملكته واستشار كهانه فأقرُّوا على قتلي فعلمت بذلك امرأتي رانبوه ابنة
الملك وأخبرتني به سرّاً ونصحتني بالرحيل من بلاد أبيها .

انتقاله الى بلاد الملك دويه سنة ١٢٨١ هـ ١٨٦٤ م : فاهتمت بالامر
وتزلفت الى الملك تكمة بالهدايا وقلت له : بلغني ان في بلاد الملك دويه سن
فيل كثير فأريد ان أذهب برجالي وآتي به فقال اذهب وائت به وحدك ودع
رجالك هنا فقلت بلغني ان تلك البلاد ليس فيها عدل وأخاف ان أهلها اذا
رأوا مني الضعف غدروا بي وقتلوني فلما رأى إصراري على أخذي رجالي
وأمتعي معي أذن لي في السفر ظاهراً وأوعز الى جيشه سرّاً ان يكمنوا لي
في الطريق ويقتلوني انا ورجالي فما خرجتُ من بلاده حتى اعترضني جنوده
الذين في الكمين فصليتهم ناراً حامية لم يطيقوها فانهمزموا امامي ودخلت بلاد
الملك دويه وكان عدواً للملك النام فلما علم بما جرى لي معه خرج لمقابلتي مسيرة
اربع ساعات من عاصمته وأنزلني في جواره على الرحب والسعة وبني لي حصناً

مربعاً منيعاً من الخشب وأمدتني من الحبوب والمؤونة بما يكفي رجالي مدة طويلة . اما الملك تكمة فانه لم يلبث ان أرسل جيشاً جرّاراً بقيادة عمه مغبوه اهتزت له بلاد الملك دويه واستولى الرعب عليه وعلى قومه ففرّوا هارين خلسة تحت جناح الظلام .

انتقاله من التجارة الى الملك سنة ١٢٩٢ هـ ١٨٦٥ م : ولما أصبح الصباح ورأيت ما كان من الملك دويه داخلني الخوف وصرت أنظر في امر النجاة وبينما انا في ذلك اذ وفد عليّ رسل الملك تكمة وقالوا ان حرمة المصاهرة وسابق المودة تمنعان الملك من محاربتك ولكنه يرغب اليك ان تخرج من جميع بلاد الملك دويه التي اصبحت تحت سلطانه وتذهب الى حيث تشاء ولك الأمان فأجبتهم الى ذلك وخرجت الى بلاد قولو حيث يقيم الملك عدوّه شكو فدخلتها اول محرم سنة ١٢٨٢ هـ ٢٧ مايو سنة ١٨٦٥ م وكان هذا الملك قد غدر بأخي منصور وقتله هو ورفاقه الذين أرسلتهم للتجار في بلاده واستولى على جميع ما لهم فلم يشك في اني جئت للأخذ بثأر أخي فلم يسمح لي بالبقاء في بلاده وتهدّدني بالحرب فتزلفت اليه بالهدايا وأكدت له أن لا قصد لي سوى التجارة فرفض الهدايا وأصرّ على خروجي من بلاده في الحال وكان الفصل شتاء والبلاد مغمورة بالمياه فسألته ان يهيني الى ان ينقطع المطر وتفتح الطرق فأبى فناجزته اذ ذاك الحرب وجرى بيني وبينه عدة وقائع دموية حتى قتل فخلفه ابنه فتغلّبت عليه وأخذته أسيراً وامتلكت بلاده وجميع البلاد المجاورة لها الى بحر العرب واتخذت عاصمته بايه التي سميت بعد ذلك « بديم الزبير » مركزاً لي فصرت فيها ملكاً وصارت الناس تتقاطر إليّ من كل الجهات للانتظام في خدمتي فجلبت الاسلحة وجمعت جيشاً قوياً وحكمت البلاد بالكتاب والسنة وشرعت في تمدينها وعمارتها وتوسيع نطاق التجارة فيها .

معاهدته مع عربان الزريقات على فتح طريق شكا سنة ١٢٨٢ هـ ١٨٦٦ م :
وكان اول ما سميت اليه فتح طريق التجارة بين بحر الغزال وكردوفان لبعده
طريق النيل وكثرة أخطارها ومشاقها . وفي شوال سنة ١٢٨٢ هـ مارس سنة
١٨٦٦ أوفدت رسلاً بهدايا الى مشايخ عربان الزريقات الواقعين في طريق
التجار فجاءني ثمانون شيخاً منهم وعاهدوني على فتح الطريق وتأمين القوافل
والتجار من مسلمين ومسيحيين وأقسم كل منهم خمسين قسماً على الكتاب
بالمحافظة على هذا العهد وجعلت لهم مقابل ذلك جعلاً معلوماً يقتضونه من
التجار فكثرت ترداد الناس والتجار بأصناف البضائع لقرب هذه الطريق
وسهولتها وما زالوا في ازدياد حتى صار ازدحامهم عليّ كازدحام العطاش على
المنهل العذب .

حملة البلالي على بحر الغزال وقتله سنة ١٢٨٦ هـ ١٨٦٩ م : وفي سنة
١٢٨٦ هـ ١٨٦٩ م (وهي السنة التي ذهب فيها السر صموئيل باكر لفتح خط
الاستواء) قدم رجل من الخرطوم من متخلفي حجاج الغرب يقال له الحاج
محمد البلالي بقصد احتلال بحر الغزال ومعه سرية من العساكر مؤلفة من ٢٠٠
من العساكر المنظمة السودانية عليهم الصاغ محمد افندي منيب و ٤٠٠ من
العساكر الباشبوزق عليهم السنجق كوشوك علي و ٦٠٠ من الخطرية . فطاف
بلاد بحر الغزال ودخل زرائبها وقرأ لأصحابها فرمان الحكومة بتسميته مديراً
على بحر الغزال فمنهم من طاع وسلم ومنهم من عصي فحارب او فرّ . ثم وجّه
حملة عليّ فجمعت جيوشه ومن لجأ اليّ من اصحاب الزرائب المجاورة لي
وكنتم له في خور على الطريق . فلما اقترب من الكمين أشعلت النار في جيشه
فقتلته وقتلت بعض عسكره وأسرت الباقي ولكنني أصبت في ذلك اليوم
برصاصة في كراعي الأيمن ورجعت محمولاً الى مركزي . وكان الحاكم في
الخرطوم اذ ذاك جعفر باشا مظهر فبعثت اليه بالخبر .

وانتشر خبر انتصاري على البلالي في أقاصي السودان واشتهر ملكي بالعدل
والانصاف فوفد اليّ الناس من كل الجهات اما للانتظام في جيشي او للتجار

في بلادي ولم يمضِ إلا القليل حتى صرت ذا ملك عظيم . وكنت أميل في أحكامي الى استعمال الشفقة على من وُلّيت إلا اني كنت اضطر في بعض الاحيان الى استعمال الصرامة نظراً لقساوة قلوب اهل البلاد فمن جملة ذلك اني كنت أعلق المحكوم عليه بالشنق برجليه ليتدل رأسه الى اسفل وأتركه بلا أكل ولا شرب حتى يموت .

امتلاكه بلاد النانم سنة ١٢٨٩ هـ ١٨٧٢ م : وهذا الملك الذي انتظم لي في بحر الغزال لم يرق للسلطان تكمة سلطان النانم وكانت ابنته رانبوه لا تزال في عصمتي وكان يرسل اليها في كل سنة هدية من السن خمسين قنطاراً ومن العسل مائتي زقٍ ومن السمسم مئة أردب ومن الرقيق مئة فلما اشتهر ملكي في جواره قطع الهدية ونصب لي العدا . وفي اوائل ١٢٨٩ هـ ١٨٧٢ م أرسل عمه مغبوه بجيش جرّار فأغار على اطراف مملكتي فبعثت اليه برسأل أسأله عن ذلك فردّ الرسل مع ثلاثة رسل من عنده يقول انه لا يسمح لي بتأسيس ملك في جوار مملكته فاما ان أنزع عن نفسي صفة الملك وأعود تاجراً كما كنت او ان يحاربني وينزع الملك عني بالقوة . فقلت للرسل اذهبوا الى ملككم وقولوا له ما كنت لأتنازل عن ملك أسسته بسيفي لمجرد تهديد او وعيد فان كان يستصغرنني الى هذا الحد فليجرب قوته التي يتفاخر بها على ملوك الجوس . فجرد الملك تكمة جيوشاً لا يحصى لها عدد وانتشبت بيننا حرب سنة كاملة جرت فيها عدة وقائع شديدة وفي آخرها قتل السلطان تكمة وعمه مغبوه ودان لي ثمانية من كبار ملوك النانم الذين كانوا في حروب مستمرة بعضهم ضد بعض بل كانوا يصيدون بعضهم البعض صيد الطير فلما توليتهم قبحت فعالهم وألفت بينهم وبسطت الامن على ربوعهم وصاروا يتعاملون بالبيع والشراء ويتصاهرون . وسمع من جاورهم من الجوس اخبار عدلي وما نال الذين دخلوا تحت طاعتي من الراحة والامن واتساع العيش فصاروا يأتون اليّ من مسافات بعيدة مقدمين الطاعة وطالبيين عمالاً من قبلي تقوم عليهم حكماً فأجبتهم الى ذلك واتسع نطاق مملكتي اتساعاً عظيماً الى الجهات الاربع .

فتح دارفور

سنة ١٢٩٠ هـ : ١٢٩١ هـ - ١٨٧٣ : ١٨٧٤ م

حربه مع الرزيقات واستيلاؤه على بلاد شكا سنة ١٢٩٠ هـ ١٨٧٣ م :
وكان الرزيقات في أثناء الحرب مع النائم قد نقضوا العهد وقطعوا الطريق وقتلوا
بعض التجار فلما انقضت الحرب أنفذت اليهم رسلاً أسألهم عن ذلك فأجابوا
بالشتم والسباب وأقسموا ألا يدعوا مسافراً يمرّ إليّ عن طريق بلادهم إلا قتلوه
وسلبوه ماله .

وكان على دارفور اذ ذاك السلطان ابراهيم فأرسلت اليه كتاباً بتاريخ ١
جمادى الاولى سنة ١٢٩٠ هـ ٢٧ يونيو سنة ١٨٧٣ م أخبره بما أتاه الرزيقات
من نكث العهد وقطع السابلة والتمست مساعدته عليهم وهذا فحوى الكتاب :

« الى حضرة امير الأمراء الكرام مولانا السلطان ابراهيم ابن السلطان
حسين صاحب العزة والاقدار والهيبة والفضار أدام الله علاه آمين .

« اما بعد فنحن عبيد افندينا وليّ النعم خديوي مصر المعظم أتينا منذ
عام ١٢٧٠ هـ لفتح بلاد العبيد فدانت لنا بلاد الفراتيت برمتها وفتحنا
الطريق منها الى كردوفان عن طريق شكا فتعهد بحفظه مشايخ الرزيقات
نظير جعل معلوم وضعناه لهم على التجار . ولكن لم يكن الا اليسير حتى
نكث الرزيقات العهد وربطوا الطريق وأباحوا دماء المسلمين وأموالهم بدون
وجه شرعي وقد نهيناهم عن ذلك مراراً فلم ينتهوا بل كانوا يتفاخرون بقوتهم
وخيوهم العربية وأسلحتهم النارية وقتلهم للمقدوم عبد العزيز ابي احمد شطه
وآدم طربوش ابي الوزير بجيت وغيرها من الفرسان التابعين لدولتكم الفوراوية
فأوجب الله تعالى علينا حريمهم بدليل قوله : « فقاتلوا التي تبغي حتى تفيء
الى أمر الله » ونحن نتقدم اليكم بهذا الكتاب واثقين انكم متى علمتم حال
هؤلاء العربان الطغاة الذين خرجوا عن طاعة سلطنتكم منذ ثلاثين سنة وينف
تجدوننا بسرية من جيشكم حتى اذا ما تمّ لنا إذلالهم نعود فنسوي الامر

بيننا فإما ان تتركوهم لنا لنحكمهم بالقسط والعدل وإما ان نتركهم لكم
فتفتحون الطريق وتقدمون لنا النفقات التي نبذلها على عساكرنا في الحملة عليهم
والأمل الافادة سريعاً في حفظ الله آمين .

فلم يجب السلطان على كتابي هذا ولا انتهى الرزيقات عن التعدي فاستخرت
الله في حربهم وسقتُ جيشي الى بلادهم فتجمعوا لقتالي وجرت بيني وبينهم
عدة وقائع كان النصر فيها كلها لي وكانت اول الوقائع في ١٤ جمادى الاولى
سنة ١٢٩٠ هـ ١٠ يوليو سنة ١٨٧٣م وآخرها في ٤ رجب من السنة المذكورة
٢٨ اغسطس ١٨٧٣ . وفي الوقعة الاخيرة انهزم الرزيقات شر انهزام وقتل
منهم خلق كثير وأصبحت بلاد شكا كلها في يدي .

خبر عبد الله التعايشي سنة ١٢٩٠ هـ ١٨٧٣ م : وكان الرزيقات قد
استخدموا فقيهاً من فقهاء التعايشة يقال له عبد الله ود محمد آدم تورشين ليقرأ
لهم الأسماء في خلوته لعلها تقبض على سلاحي فلا يطلق ناره في ساحة الحرب
وقد تعهدوا له ببقرة من كل مراح فوقع اسيراً في يدي في حلة السروج بين
شكا وداره فأمرت بقتله . وكان معي ١٢ عالماً من علماء الشرع وقد حلفتهم
على القرآن الشريف انهم اذا رأوا في احكامي اعوجاجاً عن الشرع ينهبوني
اليه فلما أمرت بقتله اعترضني العلماء وقالوا ان الشرع لا يسمح لك بقتل اسير
الحرب فضلاً عن ان السياسة تنكر عليك قتل رجل يعتقد الناس صلاحه
لأنك إن قتلته نفرت القبائل منك وعدتُك رجلاً ظالماً مخيفاً فامتنعتُ عن
قتله ويا ليتني لم أمتنع لأنه عاش ليكون من أعظم البلايا على السودان (كما
سيجيء) .

[والمشهور في نسب عبد الله هذا انه من قبيلة التعايشة من فرع الجباراب
من بطن يقال له ابو صرّة وقد دفن جده في جهة هجيليجة من اعمال شكا
ولما تولى الخلافة في عهد المهديّة أمر اصحابه بعمل قبة فوق ضريحه وعاد الناس
لزيارته كما يستفاد من كتابه الذي أرسله الى محمد شيخ محمد كرقساوي عامل

المهدية في شكا بتاريخ ٦ جمادى الآخرة سنة ١٢٠٤ هـ ٢٥ مارس سنة ١٨٨٧ م
وهذا هو بنصه :

« ثم نعرفك الى جوابك المؤرخ في ٦ جمادى الاولى الذاكر فيه انه منذ
حضرت بشكا لم يبلغك ان جدنا آدم مدفون بجهة هجيلجة الا عن قريب إذ
أعلمك الحبيب عثمان آدم ووصف لك محله وقصدك عمل تابوت فيه وترغب الرد
الى آخر ما به وصل وفهم . والحال يا حبيبنا نعلمك ان لا قصد لنا في رفعة
الدنيا وشهرتها بل كل قصدنا مصروف الى لزوم الخضوع في هذه الدار وعدم
التمييز لننال عظيم الرفعة عند الله ولكن حيثما انك يا حبيب من الاصحاب
الكرام وقد يقظك الله ونور بصيرتك الى فعل هذا الخير فمن باب إعانتك
على نيل ثوابه العظيم آذنناك في فعل ما تراه في ذلك الضريح من عمل التابوت
عليه ومداومة زيارته انت والاصحاب الذين معك ويكون لك من الثواب في
ذلك ما لا يعلم به إلا الله حيث ان هذا الجد مشهور خبره وبركته لدى كل
من له به إلمام فبعد عمل التابوت الموافق عليه بمقتضى حسن نيتك وعلو همتك
واشهار ضريحه نبته على كافة من معك من الاصحاب وأهالي الجهة بزيارة
ضريحه على نية البركة فانه من اهل الفوز عند الله . واعلم ان الجد المذكور
اسمه على الكرار لا آدم وهو ود الاب المبرور السيد محمد أبينا فعرف الاصحاب
بذلك ليعلموه وليداوموا على زيارة ضريحه فان ذلك من السنة وجزاك الله
يا حبيب خيراً في انتباهك لهذا الامر فانه من نعم الله عليك والسلام » [.

قال الزبير : والذي اتصل بي ان اصل جد عبد الله هذا من بلاد الفتري
بينوداي وبرنو سار من بلاده طالباً الحجاز وهو لا يملك شيئاً كجميع الحجاج
التكارنة فلما وصل بلاد التعايشة تزوج منهم وسكن بينهم فانتسب اليهم .
أما ابوه محمد آدم فكان يلقب بتورشين أي تور قبيح لقبح منظره وكان عالماً
بالرمل فنال حظوة كبيرة عند التعايشة واشتهر بعلم الغيب والتقوى وكان
التعايشة يفتنون بلاد السود جنوبيهم من وقت الى آخر فكان اذا بشرهم
بالنصر انتصروا واذا حذرهم من الغزو ثم غزوا انكسروا حتى صاروا لا

يغزون غزوة ولا يقدمون على عمل هام إلا بمشورته فجمع بذلك مالا جزيلا وتزوج بأكثر من امرأة من نساء التعايشة فرزق من واحدة ولدأ سماه يعقوب وهو أكبر من عبد الله وتزوج بأرملة كان لها ولد يسمى السنوسي فولدت له عبد الله هذا وتزوج بجارية فولدت له ولدأ سماه هارون فكان لعبد الله ثلاثة أخوة اشتهروا في تاريخ المهدي وهم : يعقوب أخوه من ابيه والسنوسي أخوه من امه وهارون محمد أخوه من الجارية . ثم لما كبر تورشين قام ابنه عبد الله مقامه في هذه الصناعة فدعاه عرب الرزيقات عند انتشار الحرب بيني وبينهم الى قراءة الأسماء فوق أسيراً بيدي كما قدمت . وبعد فتح دارفور طلب مني ارضاً في قبيجة غرب الكلاكة فأعطيته اياها على ان يكف عما كان به من التدجيل فرضي ولكن لم يمضِ إلا القليل حتى أتاني منه كتاب وأنا في داره يقول فيه « رأيت في الحلم انك المهدي المنتظر وأني احد اتباعك فاخبرني ان كنت مهدي الزمان لأتبعك » فكتبت له في الجواب « استقم كما أمرتك انا لست بالمهدي وانما انا جندي من جنود الله أحارب من طغى وتمرد » . وبقي في قبيجة الى ان كانت ثورة السلطان هارون (الآتي ذكرها) وضاق الرزق في بلاد دارفور بسبب الثورة فرحل منها هو وأبوه وتلامذته قاصدين الحجاز وبقوا سائرين الى ان أتوا دار الجمع بكردوفان فنزلوا عند شيخها عساكر ابي كلام في ابي رغبة فمات ابوه ودفن هناك وبقي هو في أبي رغبة الى ان اشتهر أمر محمد احمد في جزيرة أبا فهاجر اليه وكان من اعز أنصاره . وكان في جملة تلامذة ابيه الذين رافقوه الى ابي رغبة فانتصروا معه للمهدي واشتهروا فيها المساعد قيدوم الهباني وحامد ود علي واخوه احمد من التعايشة وفضل المولى صابون اخ حمد ابن ابي عنجة (وسياقي ذكرهم جميعاً) .

هذا ولما دخلت بلاد الرزيقات فرّ اثنان من مشايخهم وهما الشيخ 'منزل والشيخ 'علتيان ولجأ الى السلطان ابراهيم في الفاشر فبعثت اليه بكتاب بتاريخ ١٥ رجب سنة ١٢٩٠ هـ ٨ سبتمبر سنة ١٨٧٣ م أسأله تسليمها اليّ وهذا نصّ الكتاب :

من الزبير رحمة الجمعيابي الى السلطان ابراهيم ابن السلطان حسين وعمه
الامير حسب الله ابن السلطان محمد الفضل .

« اما بعد فقد دخلنا بلاد شكا في يوم الاثنين المبارك الموافق غرة رجب
سنة ١٢٩٠ هـ ٢٥ اوجستوس ١٨٧٣ م للاسباب التي قد مناهنا لكم في كتاب
سابق ووقعت بيننا وبين عربان الرزيقات معركة شديدة قتلنا فيها أعيانهم
وفرسانهم وكثيراً من أخلاطهم ونحن الآن مقيمون في بلادهم وقد بلغنا ان
الشيخ منزل والشيخ عليان من أكبر طغاة الرزيقات قد التجأ اليكم وهما
يحثانكم على حربنا فغاية ما نرجوه ان لا تسمعوا لأقوالهما الفاسدة فتقعوا بحرب
الدولة المصرية ذات السطوة الغالبة والمدد الغير المنقطع ولا نقول ذلك على
سبيل التهديد بل هو النصح فنحسه لكم لمنع الفتن بين الدولتين وحقق دماء
المسلمين لا سيما وأنتم تعلمون ما كان بين والدكم السلطان حسين وبين عزيز مصر
الخدوي المعظم من المودة والمعاملات التي لا تزال متصلة بينكم وبين خديوي
مصر الحالي لذلك نؤمل منكم الآن ان تأمروا بالقبض على منزل وعليان
وترسلوهما لنا « بالشعبة » والحديد مع الحرس اللازم لنسترد منها ما أخذاه
من حقوق المسلمين بلا تمثيل فيها ولا ظلم بل بما يكون فيه تأديب لها وعبرة
لغيرها . هذا ما رأيناه والرأي مفوض وأدام الله بقاكم آمين » .

وكان السلطان ابراهيم واجداً عليّ لدخولي بلاد الرزيقات التي هي جزء
من بلاده فلم يجيني على كتابي بل ارسل الى الشيخ مادبو بن علي وغيره من
مشايخ الرزيقات كتاباً مشحوناً شتماً وسباباً لي ويقول لهم لا تظنوا اني أترك
البلاد لهذا الطاغية الجلابي وها انا اعدّ الجيوش للزحف عليه وطرده من البلاد
بالخزي والخسران .

فعند اطلاعي على كتابه هذا أرسلت اليه كتاباً بتاريخ ٢١ رمضان سنة
١٢٩٠ هـ ١٢ نوفمبر سنة ١٨٧٣ م بهذا المعنى : من الزبير رحمة الجمعيابي الى
السلطان ابراهيم :

« اما بعد فقد كتبت اليكم اولاً وثانياً بشأن الرزيقات فلم أخطَ بجواب منكم بل رأيت كتاباً مختوماً بختمكم الى الشيخ مادبو بن علي وغيره من مشايخ الرزيقات تكثرون فيه من ألفاظ الشتم والسباب لي بقولكم اني جلّلي باغٍ وتقولون انكم تجردون الجيوش لطردي من البلاد مع اني سبقت فأخبرتكم بالسبب الذي من اجله دخلت بلاد شكا وقلت اني ما جئت ثائراً ولا باغياً بل جئت لتأديب الرزيقات الذين سعوا في الارض فساداً وخرجوا عن سلطانكم وقد استنجدتكم عليهم فلم تنجدوني وسألتكم تسليم منزل وعليان اللذين هما اصل الفساد فما سامتوهما وصمتم على الحرب . وذلك ليس قصدي ولا مرادي فقد قال عليه الصلاة والسلام « الفتنه نائمة لعن الله من أيقظها » . خصوصاً وانه لم يكن بيننا وبينكم ولا كان بين آبائنا وآبائكم حرب ولا عداة ولا أمرتنا دولتنا بمحاربتكم . اما وقد اخترتم هذه السبيل فاعلموا يقيناً ان جميع ما يسفك من دماء الطائفتين من المسلمين انما أنتم المسؤولون عنه بين يدي الله يوم القيامة اذ تجتمع الخُصوم . وبعد هذا الانذار الجلي فاذا حاربتُمونا فاعلموا اننا منصورون عليكم لأننا بجانب الحق والعدل وأنتم بجانب البغي والظلم فضلاً عن اننا ليوث حربية وصلة عباسية وسلالة هاشمية ولنا النصر من رسول الله كما قال عليه الصلاة والسلام « اللهم انصر العباس وأبناءه » . أما ان كنتم تودون خروجنا من بلاد شكا لأنكم تحسبونها قسماً من بلادكم فاعلموا ان خروجنا بعد الذي صرفناه على احتلالها بوجه شرعي لا يكون بالقوة والحرب وانما يكون بالتراضي والسلم بينكم وبين سمو وليّ نعمتنا الخديوي المعظم بأن تضمّنوا لنا نفقات الحملة على الرزيقات التي بلغت ١٠ آلاف كيس ونيفاً فاذا اتفقتُم مع سموه على ذلك وكتب لنا امراً لرفع يدينا من البلاد فنعود الى حيث كنا بجميع جيوشنا امتثالاً لأمره وإلا فلا يخطر ببالكم خروجنا من هذه البلاد وفي هذا كفاية والامر اليكم فانظروا فيما تفعلون أدام الله اجلالكم آمين » .

تعيين الزبير حاكماً على شكا وبحر الغزال سنة ١٢٩٠ هـ ١٨٧٣ م : وفي

أثناء ذلك كتبت الى حكمدار الخرطوم اسماعيل باشا ايوب اعلمه بحالي وانتصاري على الرزيقات وأسأله ان يرسل من يتولى حكومة البلاد التي فتحتها في بحر الغزال ودارفور بالنيابة عن خديوي مصر وقلت في ختام كتابي « فاذا ما وصل الحاكم واستلم البلاد عدت الى تجارتي تاركاً كل ما أنفقت من الاموال في الفتح هدية لحكومة السنية وانتظرت مكافأتها الادبية حسباً تقتضيه عدالتها وكرمها » .

فجاءني الجواب بتاريخ ١ شوال سنة ١٢٩٠ هـ ٢٢ نوفمبر سنة ١٨٧٣ م بما مؤداه :

« عرضنا كتابكم على الجناب العالي الخديوي فشكر ولاءكم وامتحح رغبتكم في وضع البلاد التي فتحتموها بين يديه ليولي عليها من يشاء وقد أنعم عليكم بالرتبة الثانية مع لقب بك وولاكم امر البلاد على ان تدفعوا لخزينته جزية سنوية قدرها ١٥٠٠٠ جنيه » . فقبلت الجزية وتوليت امر البلاد رسمياً وشرعت في تنظيمها وعمرائها . لكن السلطان ابراهيم لم يطق الصبر على بقائني في بلاد شكا فأصدر امره الى احمد شطة مقدم الجنوب في داره وسعد النور مقدم الشرق فأخذنا في حشد الجيوش وجمع العدة لاجراحي منها . وكنت اراقب حركات المقدمين وسكناتها وأبلغها اسماعيل باشا ايوب في الخرطوم فيرفعها الى اسماعيل باشا الخديوي في مصر فأقر الخديوي على اغتنام الفرصة التي كانت تترقبها حكومته منذ فتح كردوفان وأرسل اليّ ٢٨٠ من العساكر المنظمة وثلاثة مدافع نجدة وأمر اسماعيل باشا ايوب فجهز جيشاً مؤلفاً من نحو ٣٦٠٠ مقاتل من الجنود السودانية والمصرية والباشبوزق والشايقية والاتراك والمغاربة والمتطوعة واربعة مدافع جبلية وساروخين على ان يزحف بها على دارفور من الشرق وأنا أزحف عليها من الجنوب ونتمّ الفتح . على ان الفتح كله تمّ عن يدي بعون الله ولم يبقَ لجيش الشرق أقل عمل فيه .

ولما أتمّ احمد شطة وسعد النور استعداداتها زحفا بجيش ينيف على ٣٠ الف مقاتل قاصدين شكا فجرت بيني وبينها واقعتان كانت العاقبة لي في كليهما

وفي الثانية قتلت احمد شطة وسعد النور وهزمت جيوشها ثم تقدمت الى داره فاحتلتها وبنيت فيها استحكاماً منيعاً وبعثت الى السلطان ابراهيم بكتاب بتاريخ غرة محرم سنة ١٢٩١ هـ ١٨٠٥ فبراير ١٨٧٤ م هذا نصه :

« اما بعد فقد حررنا لكم من قبل مرتين بشأن الرزيقات فما أجبتمونا ثم لما علمنا من جوابكم للشيخ مادبو وغيره من مشايخ الرزيقات انكم تجهزون الجيوش لقتالنا حذرناكم من ذلك وأبنا ان ليس لكم فيه وجه شرعي ولا سياسي فما همكم تحذيرنا وتقدم وزيركم احمد شطة ومقدمكم سعد النور بمن معها من الملوك والشراتي والجيوش الكثيرة المهنددة فهاجمانا دفعتين ففي الدفعة الاولى هاجمنا قسماً من عساكرنا الذين انفردوا منا لغزوة على بعض العربان العصاة وذلك في ٢٥ القعدة سنة ١٢٩٠ هـ ١٤ يناير سنة ١٨٧٤ م ثم هاجمنا في مراكزنا فلم تمض ساعة واحدة حتى انهزما أمامنا شرّ انهزام . اما المقدم سعد النور جزاه الله كل خير فانه قاتل قتال الابطال ومات بين كرات المدافع « والفضل ما شهدت به الأعداء » . واما وزيركم احمد شطة امير الجيش فقد فرّ على قدميه حافياً يطلب النجاة حتى قتل مطروداً بمن معه من أخلاط الناس بعيداً عن محل الواقعة ولا بد ان الخوذة التي كان يلبسها على رأسه وصلتكم فأكدت لكم خبر موته . وبعد الواقعة أمرنا بجمع جثث الوزير والمقدم ومن قتل معها من اولاد السلاطين والملوك والشراتي فكفّناهم بأفخر الأنسجة وصلينا عليهم ودفنناهم بنام الاكرام ودخلنا داره في ٢٣ الحجة سنة ١٢٩٠ هـ ٤ فبراير ١٨٧٤ م . وأما الرجال الذين قتلوا فأنتم المسؤولون عن دماهم بين يدي الله تعالى يوم القيامة لأننا أنذرناكم مقدماً بالكتاب والسنة واذا راجعتم كتبنا السابقة علمتم اننا لم نترك وجهاً للنصيحة الا عرضناه عليكم وأنذرناكم به فأعرضتم عن الانذار وخالفتم الشرائط الاسلامية واتبعتم هوى النفس الغضبية وتغريروا العربان المفسدين في الارض . وحيث ان الله لا يغير ما يقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم فقد فوّضت أمري الى الله تعالى وكفى به شهيداً بيننا والله المستعان » .

وفي هذا التاريخ كتبت ايضاً الى أجل علماء دارفور وهم الفقيه سلامه ابن الفقيه مالك شيخ الموطأ والفقيه فخر الدين ابن الفقيه محمد سالم شيخ الشفا والبخاري والفقيه سالم شيخ العزيمة والامام الضو ابن الامام المصري امام السلطان (عم الشيخ الطيب المار ذكره) فبينت لهم السبب الذي جاء بي الى بلاد الرزيقات وأعدت لهم ما كتبت الى السلطان حياً برفع الحرب وحقن دماء المسلمين ثم ختمته بقولي : « فالأمل من حضراتكم يا علماء الاسلام ان تفيدوننا عما دعا سلطانكم الى محاربتنا وهلاك عساكر المسلمين منا ومنه فإن كان له وجه شرعي في ذلك ونحن المخالفون للشريعة فنحن نشكره على ما أجراه ونطلب المغفرة منه وإن كان هو المخالف فكفى بالله شهيداً بيننا وبينه ولا حول ولا قوة الا بالله العلي العظيم اه » . فلا هم أجابوا كتابي هذا ولا السلطان ولكنهم أخذوا في حشد جيش جديد لأخذ الثأر .

واقعة الشرتاي احمد نمر : ثم ان الشرتاي احمد نمر كبير البرقد جمع شتات جيش المقدوم احمد شطة وحصرنا في الاستحكام وأخذ يشاغلنا حتى تصل الجيوش التي يعدها السلطان ابراهيم فصبرت عليه حتى علمت ان الجيوش آتية نجدة له فأمرت اجد قوايدي راجحاً فخرج اليه بفرقة من الجيش فقتله هو ومن معه وغنم ما عنده من خيول ودروع وخوذة ومواش .

وفي ٣ رجب سنة ١٢٩١ هـ ١٦ اوغستوس ١٨٧٤ م بعثت بكتاب الى السلطان ابراهيم أدعوه للتسليم هذا مؤداه : « اني سألتكم في بادىء الرأي ان تساعدوني على الرزيقات الذين سعوا في الارض فساداً ثم سألتكم مراراً تسليم منزل وعليان الذين التجأ اليكم فراراً من وجه العدل فما أجبتهم بل أرسلتم الجيوش لمحاربتي فأوجب الله تعالى علينا محاربتكم حتى تستقيموا انتم ومن معكم من المفسدين في الارض وقد تلقينا جيوشكم ونصرنا الله عليهم ودخلنا مدينة داره وصار القصد الآن إدخالكم انتم وبلادكم تحت طاعة الحكومة الخديوية . فيا حضرة الامير إن كنت تحسب نفسك عبداً لله وموقناً ان الارض لله يورثها من يشاء من عباده فبادر اخلع الملك عن نفسك

بالتسليم الى وليّ نعمتنا الحديوي المعظم حباً بالسلام وحجياً لدماء المسلمين واذا سلمت تسلم وتترك لك خزائنك وأموالك وتبقى مكرماً مبهجلاً عند الجميع وإلا فاننا لا بدّ ان ننال ما نروم بالرغم عنك وأنت المسؤول بين يدي الله عن دماء المسلمين والسلام .

واقعة الامير حسب الله : فلما وصله هذا الكتاب طار صوابه وجهز جيشاً عرمرماً ينيف على المئة الف مقاتل بينهم عدد كبير من الفرسان المدرعين والمشاة المسلحين بالبنادق وعقد لواءه لعمه الامير حسب الله ومعه من الرؤساء علي التاماوي رئيس دادات السلطان والمقدم احمد قومو مقدم الصعيد خلف الوزير احمد شطة والمقدم حسن ود أبلي مقدم الغرب وابن ابراهيم ود دير (المار ذكره في فتح كردوفان) فوصلوا داره في ١٢ رجب سنة ١٢٩١ هـ ٢٥ اوغسطس سنة ١٨٧٤ م وحصرونا في الاستحكام من الجهات الاربع وكتبوا اليّ كتاباً يقولون فيه : « لقد دخلت بلادنا وقتلت وزيرنا احمد شطة ثم الشرتاي احمد نمر فاخرج الآن من بلادنا لنشيمك بالسلامة والأمان ! » وأرسلوا الكتاب مع ثلاثة رسل وفي جملتهم محمد خالد زقل الدنقلوي (الآتي ذكره بعد) فكتبت اليهم في الجواب : « اني دخلت بلادكم عنوة ولست أنوي الخروج منها الا بقدر من الله فإن كنتم قد جئتم لحرب فتقدموا لها وإلا فعودوا من حيث أتيتم . » ورأى الرسل بعض عساكر الخانم الذين في جيشي قد اجتمعوا على جثة آدمي يقتسمونها فيما بينهم فأخذ بعضهم الرأس والكراع وبعضهم الفخذين وبعضهم الصدر وشرعوا يشوونها على النار وبأكلونها فاقشعرت أبدانهم من هذا المشهد فعادوا وأخبروا بما كان من عساكري ومن جوايي فاعتمدوا على الحرب ونزلوا ضمن دائرة مرمى الرصاص وصاروا يناوشوننا القتال كل يوم من قبل طلوع الشمس الى ما بعد نصف الليل وكان معي زهاء ١٢ الف مقاتل مسلحين بالبنادق فصليتهم ناراً حامية صبروا عليها سبعة ايام فأهلكت منهم خلقاً كثيراً وفي اليوم الثامن نقضوا خيامهم ونزلوا بعيداً عن مرمى الرصاص . ولكنهم لم يزالوا على حصرنا ومناوشتنا القتال الليل والنهار

حتى كاد الزاد يفرغ منا وإذ دخل علينا الملك احمد من معسكرهم طالبا ابنته التي أسرناها في واقعة احمد شطة وقدم لنا عشر أواق ذهب فدية لها فأخذت أسأله عن قوة جيش الفور وحركاته فاذا بالحرس الذين وضعتهم في مأذنة جامع داره لمراقبة حركات العدو يشيرون الي ان أصعد اليهم فرأيت الفور في حركة وجلبة فنزلت الى الملك وقلت له: إن كنت تذهب وتأتيني بالخبر فاني أسلمك ابنتك بلا مقابل فحلفني الكتاب على ذلك وحلف لي انه يعود بالخبر اليقين ورجع الى قومه وقال لهم ان الزبير طلب ٢٠ اوقية ذهب فداء ابنتي ولم يكن معي سوى ١٠ أواق فقالوا اخذ هذه عشر اخرى وبادر احضر ابنتك لأن الجيش يستعد للهجوم على السور غداً من كل الجهات فأخذ عشر أواق الذهب وأتى بالخبر ليلة الخميس الموافق ١٨ رجب سنة ١٢٩١ هـ ٣١ اغسطس سنة ١٨٧٤ م . وكان الفور في تلك الليلة قد شربوا الخمر وأكلوا لحم الضأن والابل وناموا نوم الراحة فانتهزت هذه الفرصة الثمينة وخرجت اليهم بثمانية آلاف رجل بهيئة مربع وسرت في جنح الليل حتى صرت على قيد ١٠٠ متر منهم فأمرت عساكري فصبوا عليهم الرصاص كالملطخ الوابل فقاموا مذعورين الى سلاحهم وصوبوا علينا نيرانهم فأصابني رصاصة طائشة في يدي اليمنى وجرحتي جرحاً بليغاً ولكني لم أعبأ بها بل بقيت أشدد قومي وأصب عليهم الرصاص فولتوا الأدبار منهزمين وقد امتلأت الارض من قتلاهم وفيهم ٤٠ رجلاً من اولاد السلاطين فجمعت الغنائم فكان فيها نحو ألفي درع و ٢٧٠٠ خيمة و ٨ مدافع قديمة مكتوب على بعضها اسم سعيد باشا وشيء كثير من الاسلحة والذخائر الحربية ومن الحبوب والزاد ما كفى الجيش أربعة اشهر وعدت الى السور . وعاد الامير حسب الله فجمع شتات جيشه وهاجمني في السور في ٢٧ رجب سنة ١٢٩١ هـ ٨ سبتمبر سنة ١٨٧٤ م فدام القتال بيني وبينه ٤ ساعات متوالية حتى كثر القتلى في جيشه فانهمزم شر هزيمة .

غزوة السلطان ابراهيم الى دارة : فلما بلغ السلطان ابراهيم خبر انكسار عمه الامير حسب الله استعظم الأمر جداً واستكبره وصاح بقومه صيحة عامة

فجرد منهم جيشاً كثيفاً بلغ عدده نحو ١٥٠ الفاً بينهم ٣٠ الف فارس وعدة رجال مسلحين بالبنادق و ٨ مدافع وعزم على الخروج الى الحرب فخلف على الفاشر ابنه الاكبر محمد الفضل وطلب من رجال دولته ان يجعل كلا منهم ابنه الاكبر خليفة عنه مع ابنه محمد الفضل ففعلوا (وكان في جملتهم الشيخ الطيب المتقدم الذكر اماماً لجامع الفاشر خليفة لعمه الشيخ احمد الضو) وزحف بجيشه على دارة فوصلها في ضحى ٥ رمضان سنة ١٢٩١ هـ ١٦ اكتوبر سنة ١٨٧٤م واحتاط السور من الجهات الاربع وهاجمي بجميع جيوشه هجمة واحدة فأمطرت عليهم ناراً حامية فثبتوا عليها حتى الساعة واحدة بعد الغروب وفي اليوم التالي أعادوا الكرة على السور من قبل طلوع الشمس فما كانت الساعة الرابعة من النهار حتى رددتهم على أعقابهم فاستراحوا الى ما بعد الظهر ثم عادوا الى الهجوم بعزم صادق مستقتلين وثبتوا والرصاص يحصدهم حصد الزرع الى ان فصل بيننا الليل فرجعوا وقد قتل منهم في ذلك اليوم خلق كثير وفيهم البعض من اولاد السلطان ابراهيم واولاد اخيه وأعمامه وعماته . وفي الليل أتاني كتاب من السلطان ملوء شتماً وسباباً وتهديداً وقد أقسم بالله العظيم انه لا بد من اعادة الكرة عليّ في الصباح ودخوله الاستحكام عنوة وتأدية صلاة الجمعة في مسجد دارة. وفي الساعة الخامسة من الليل أطلق على السور خمسة واربعين مدفعا فلم أجه بل شرعت في الاستعداد للعد . فلما أصبح الصباح وانكشف لي معسكرهم رأيت خالياً من الجيوش فخرجت بنفر من رجالي لأستطلع خبرهم فوجدتهم قد هربوا بالفعل ولم يكن هناك خدعة لأن رجال السلطان لم يعودوا يطبقون مهاجمة السور فهجروا السلطان فتبعهم ليجمع شتاتهم ويسير بهم الى جبل مرة فيمتنع فيه . فجمعت ما خلفه في معسكره وشرعت في الاستعداد للحوق به :

واقعة منواشي الاحد في ١٤ رمضان سنة ١٢٩١ هـ ٢٥ اكتوبر ١٨٧٤م
وفي ١٢ رمضان سنة ١٢٩١ هـ خرجت بالجيوش مقتفياً أثره حتى أدركته في بلدة منواشي الواقعة على يمين الى الجنوب الشرقي من الفاشر وذلك في الساعة

التاسعة من نهار السبت الواقع في ١٣ رمضان ومعه من العساكر نحو ٣٠ ألفاً
وثمانية مدافع فرتب عساكره ميمنة وميسرة وقلبا وكان هو ومن معه من
الابطال المعدودين من أقاربه وغيرهم مع المدافع في القلب . وما طلعت شمس
الاحد الواقع في ١٤ رمضان سنة ١٢٩١ هـ ٢٥ اكتوبر سنة ١٨٧٤ م حتى
انتشبت الحرب فأطلقوا علينا احد عشر مدفعا فما أجبنهم بل سرنا سيراً
حربياً منظماً قاصدين القلب فهجمت علينا عساكر الميمنة والميسرة واشتد
القتال فما مضى إلا خمس دقائق حتى انكشفوا عنا وتقهقروا الى الوراى وعند
ذلك هاجم السلطان ومن معه في القلب فهزموا مقدمة جيوشنا ودخلوا القلعة
واشتبك القتال بالسيوف والحراب وكنت ترى السلطان يحول في وسط المعركة
ويقاتل كأنه الأسد ولكن لم يكن إلا القليل حتى خرب قتيلاً هو ومن معه من
الفرسان والشجعان وفيهم الكثير من اولاده وأكابر دولته وانكشفت الحرب
عن النصر المبين لنا فأخذت جثة السلطان فكفنتها بالانسجة الفاخرة ودفنتها
في جامع منواشي باحتفال عظيم اجلالاً لمقامه وإقراراً ببسالته ثم دفنت القتلى
من اولاده وأكابر دولته وعفوت عن جميع الاسرى وسمحت لهم بالذهاب الى
حيث شاءوا وقد اغتنمت في هذه الواقعة ثمانية مدافع وسبعة وعشرين حمل
جمل جبخانة ما عدا الاسلحة النارية وغيرها .

دخوله الفاشر : وبعد ان استرحت ٤ ايام في بندر منواشي سرت بالعساكر
الى الفاشر فدخلتها في ٢٣ رمضان سنة ١٢٩١ هـ ٣ نوفمبر سنة ١٨٧٤ م قبل
طلوع الشمس فوجدت عائلة السلطان وأهله الذين تركهم بالفاشر قد فروا
منها فلم يبقَ فيها سوى التجار وبعض العلماء فأمنتهم على أموالهم ودمائهم
وأحسنتم معاملتهم فلما بلغ الاهالي ما عاملنا به التجار وانتشر خبر عدلنا
ووفائنا بالعهود أخذوا يفدون الينا ليلاً ونهاراً مقدمين الطاعة والامثال ولم
يكن إلا ايام قليلة حتى دانت لنا جميع اهالي السلطنة من أعاجم وعربان
حضر وبادية .

دخول اسماعيل باشا ايوب الفاشر : اما اسماعيل باشا ايوب المهاجم لدارفور

من الشرق فإنه أبطأ في سيره جداً وعند وصوله الى فوجه كتب اليّ وانا اذ ذاك في داره يقول : « اني جئتك بنجدة فتشدد » فبعثت أقول له : « إذ كنت قد جئتني بنجدة فلماذا هذا الابطاء في السير والعدو محقق بنا بجيوش لاعدادها ؟ » فأجاب : « ما أنا أمرتك بالتقدم الى داره ولا افندينا فان استطعت ان ترفع الحصار وتنجو بجيشك الى هنا فافعل وإلا فدبر أمرك بما تراه صواباً » .

وبقي في فوجه حتى انقضت الحرب ولم يعد لي به حاجة . وبعد دخولي الفاشر بعثت اليه بالخبر فلقية الرسول في طريقه الى داره فانثنى اذ ذاك عنها ووجه الجيش الى الفاشر فدخلها في ١ شوال سنة ١٢٩١ هـ ١١ نوفمبر سنة ١٨٧٤م فأكرمت لقياءه وأطلقت له مئة مدفع ترحيباً به فهنأني بالنصر وشكر لي ولائي وحسن خدمتي .

ضبط الامير حسب الله : هذا وكان المتخلفون من جيش الفور لما تحققوا موت السلطان ابراهيم في منواشي ولتوا عمه حسب الله سلطاناً عليهم وذهبوا الى جبل مرة فتحصنوا فيه . فلما حضر اسماعيل باشا ايوب الى الفاشر سلمته ادارة البلاد وجهزت جيشاً مؤلفاً من ١٢ الف مقاتل فيهم ٤٠٠ من العساكر المنظمة و ٢٠٠ فارس من عساكر الحكومة وزحفت على جبل مرة فلما رأى الامير حسب الله قوتي سلم بلا قتال وكان معه بعض اولاد السلطان ابراهيم وعمتهم الميرم عرفه وغيرهم من اولاد السلاطين ونحو ١٢٠٠ رجل من أعيان البلاد وكبرائها فجئت بهم جميعاً الى الفاشر . وقد غبت في هذه المهمة ٩٦ يوماً .

إرسال الامير حسب الله وسائر اولاد السلاطين الأمري الى مصر والزيير الى داره : وكان الامير حسب الله قد سألني بعد التسليم إليّ في جبل مرة ان أساعده على توليه البلاد ليحكمها تحت طاعة الحكومة الخديوية فيدفع لها مئة الف جنيه سنوية فأعجبني هذا الرأي ورأيت به الرأي الصواب الذي فيه راحة البلاد والحكومة معاً فعرضته على الحكمدار وأسندته بكل قوتي فرفضه

الحكمدار بتاتا ووقع بيني وبينه جدال طويل أفضى الى النزاع . وأرسل الامير حسب الله والامير محمد الفضل خليفة السلطان ابراهيم وكثيرين غيرهما من اولاد السلاطين الى مصر القاهرة حيث لا يزال أكثرهم أحياء الى اليوم (كما مرّ) . وأمرني بالذهاب الى داره والاقامة فيها بعساكري الى ان يصدر اليّ أمراً آخر بالرجوع الى بحر الغزال .

ثورة الامير بوش وقتله : ولكن لم يمض شهر حتى ورد عليّ كتاب منه يقول ان بوشاً أخا الامير حسب الله شقّ العصا فجمع بقية اولاد السلاطين في جبل مرة وملا البلاد عيناً وافساداً وأمرني بالخروج عليه وإخماد ثورته فصعدت بالامر وجئت جبل مرة في غرة رجب سنة ١٢٩٢ هـ ٣ اوجسطوس سنة ١٨٧٥ م وشهرت عليه حرباً عواناً مدة ١٥ يوماً فترك الجبل واعتصم بالفرار فتركت ابني سليمان مع ١٢٠٠ جندي في الجبل وتتبعته حتى أدركته في صرف الجداد قرب كبكبية فأوقعت به واقعة شديدة انتهت بقتله وقتل اخيه سيف الدين و ٢٧ رجلاً من كبراء جيشه .

دخوله دار وداي ورجوعه عنها : ثم توغلت بالجيش في بلاد الغرب فدانت لي ديار تامه والمساليت وقمر وسلا حتى جئت الى الترجة الفاصلة بين دارفور ووداي فأقمت فيها اياماً للراحة بعزم الدخول في دار وداي واخضاعها للحكومة الخديوية وكان عليها اذ ذاك السلطان علي ابن السلطان محمد شريف فبعثت اليه بكتاب أدعوه الى الطاعة ثم دخلت بلاده وتوغلت فيها حتى صرت على مسيرة يومين من عاصمته فورد عليّ كتاب منه يدل على قبوله الدخول في طاعة الحكومة الخديوية وقد تعهد بدفع مبلغ معلوم جزية سنوية على ان يبقى السلطان على بلاده ووجه اليّ احد وزرائه بهدايا كثيرة للمفاوضة معي في هذا الشأن ولكن قبل وصول الوزير ورد عليّ كتاب من اسماعيل باشا ايوب بناء على ارادة سنية ملحقاً عليّ بالرجوع الى دار وداي في الحال فرجعت الى الفاشر متأسفاً على ما فات من فتح وداي فأخبرني الحكمدار ان سلطان وداي أرسل

وزيره احمد تنقه الى مصر عن طريق سيوه فتشكى للجناب الحديوي فأمر جنابه العالي برجوعي ولكنه أنعم علي برتبة اللواء الرفيعة مع لقب باشا . هذا وكانت غزوة ودأي آخر غزواتي التي زاد عددها على المئة والعشرين وقد نصرني الله فيها كلها فلم أفشل إلا في ثلاث منها .

تحصين الفاشر : وكان اسماعيل باشا ايوب بعد دخوله الفاشر شرع في بناء « استحكام » (حصن) منيع للعساكر على التلة الغربية من الفاشر فبنى سوراً مربعاً متيناً من الطوب سمكه ٣ أقدام وطول الضلع الواحدة منه ٢٠٠ قدم وأقام في أركانه الاربعة أبراجاً على كل ركن برجاً جعل فيها المدافع وحفر من وراء السور خندقاً بلغ عمقه ١٥ قدماً وأحاط الخندق بزريبة من شوك وبني من داخل السور ديواناً للحكومة ومنزلاً للحاكم وقشلاقاً (ثكنة) للعساكر المنظمة وأما العساكر الغير المنظمة فقد أقرها خارج السور وهدم المنازل التي الى جوار السور فجعل الارض التي حوله في غاية الانكشاف الى مسافة بعيدة فجاء حصناً منيعاً جداً . ثم وزع منشوراً في كل البلاد ودعا الناس الى الفاشر لأخذ الامان فصارت الوفود تأتيه من الجهات الاربع فيؤمنهم ويرجعهم الى بلادهم . ثم أمر فعمرت سوق كبيرة في الفاشر وعاد الناس الى معاطاة أشغالهم كالعادة .

وبعد ان تهدت البلاد جعلها اربعة أقسام كما كانت قبل الفتح وهي مديريات الفاشر وداره وكلكل (او كبكيية) وادارة أم شنقة وأقام في كل من مركزي دارة وكلكل حصناً كالذي أقامه في الفاشر وجعل مرتب كل مديرية اورطتين من العساكر المنظمة وستة سناجق من الباشبوزق والشايقية والاتراك والمغاربة وبطارية بستة مدافع وأما ادارة أم شنقة فقد جعل مرتبها بلوكين من العساكر المنظمة وسنجقاً واحداً من الباشبوزق لقربها من الابيض .

وضع ضرائب على الأهلين : ثم لما دخلت سنة ١٢٩٢ هـ ١٨٧٥ م شرع في وضع الضرائب على الاهلين فجعل على كل نفر خمسين غرشاً في السنة ما عدا

اهل اليسار فانه جعل عليهم ضرائب أعظم على نسبة يسارهم . ولما كنت على يقين ان هذه الضرائب تثقل على الاهلين فلا يطيقونها نصحت للحكمدار ان يجعلها من غرشين الى عشرة غروش وقلت اني اخاف اذا ثقلنا الضرائب على الاهلين وهم غير متعودين عليها نفروا منا ونزعوا الى الثورة وكان كما قلت فانهم لم يلبثوا ان ولّوا الامير هارون حفيد السلطان محمد الفضل سلطاناً عليهم وثاروا معه على الحكومة فأتعبوها مدة طويلة (كما سيحيى) ولكن الحكمدار تكدر من نصحي له وكلمني بحدة زائدة وقال انه أدري بما يجب فعله . فكتبت اليه اذ ذاك كتاباً رسمياً ثبت فيه رأيي ورفعت المسؤولية عني وألقيتها عليه فزاده هذا الكتاب غيظاً وحدة . وأصدر أمره اليّ بالرجوع الى بحر الغزال في الحال فصدعت بالأمر وخرجت بعساكري قاصداً دارة فما وصلت اليها حتى ورد عليّ تلغراف من سمو الخديوي اسماعيل باشا من مصر يأمرني بعدم التعرض للحكمدار في ادارة البلاد فعلمت من ذلك ان الحكمدار شكاني الى سموه وطعن في صداقتي واخلاصي له وقيل انه اتهمني بارادة الاستقلال في البلاد .

مجيء الزبير الى مصر وسيرته فيها فعزمت على المجيء الى مصر للتشرف بمقابلة الجناب العالي وعرض حقيقة الحال على سموه والنظر معه ومع رجال حكومته في تنظيم البلاد التي تم فتحها عن يدي والبلاد التي يمكن إلحاقها بحكومته في المستقبل فعرضت له ذلك تلغرافياً فلم يكن إلا يسيراً حتى أجابني تلغرافياً بما نصه :

« سعادتلو زبير باشا : لقد كانت أفكارى متعلقة بك لكن بالنظر لما بيني وبينك من بعد المسافة ولما هو بالغ مسامعي عما أنت فيه من المشغوليات الجسيمة ظننت انه لا يتيسر حضورك فلما ورد تلغرافك بطلب مقابلي بمصر صرت ممنوناً فيبادر احضر الى مصر لأجل المداولة معك في تشكيل حكمدارية تكون مفوضة بك وتحت ارادتك وها قد تنبه على جميع طلباتك بغاية الاعزاز والاكرام » . فلما تلوت التلغراف شعرت في نفسي بأني ان ذهبت الى مصر

فلا أعود الى السودان وبذلك شعر رجالي ايضاً وأرادوا منعي عن الذهاب ولكن اخلاصي لحكومتي وشرف نفسي قضيا عليّ بالمحافظة على قولي فجئت الى مصر عن طريق الابيض والخرطوم وبربر وأبي حمد وكورسكو في ٦ جمادى الاولى سنة ١٢٩٢ هـ ١٠ يونيو ١٨٧٥ م وتشرفت بمقابلة الجناب الخديوي بسراي الجيزة فرحب بي وهنأني بالسلامة وأنزلني في احدى سرايات العباسية مع عائلتي وأتباعي ورتب لي كل ما أحتاج اليه من أكسية ومؤونة .

وكان في جملة ما أحضرته من السودان ١٠٠٠ عسكري سوداني بالسلح الكامل و ١٠٠ حصان من جواد خيل العرب و ١٦٥ قنطار سن فيل من الاسنان المتناهية في الكبر والجودة و ٤ اسود و ٤ نمورة و ١٦ ببغاء قدمتها لاسماعيل باشا عن يد مهرداره خيرى باشا بكتاب خاص فأجابني المهردار بكتاب رقيق العبارة يقول فيه : « ان أفندينا ممنون جداً من هديتكم » . وبقيت في السراي التي أعدت لي الى غرة رجب سنة ١٢٩٢ هـ ٣ اغسطس سنة ١٨٧٥ م اذ دعاني سمو الخديوي الى سراي الجيزة وأصدر لي أمره بالاستعداد للسفر قريباً الى السودان وكان ذلك في حضور مهرداره خيرى باشا فشكرت سموه وشرعت في الاستعداد للسفر فاشترت ذهبيتين بألف وسبعماية جنيهه وشحنتها من البضائع والتحف المصرية ما بلغت قيمته ٤٠ ألف جنيه .

ومكثت أنتظر صدور الامر بالسفر حتى كانت غاية رمضان سنة ١٢٩٣ هـ ١٩ اكتوبر ١٨٧٦ م فدعاني سمو الخديوي الى مقابلته وقال لي : « يا زبير باشا قد استصوبت بقاءك في القاهرة في ظل ساحتي حتى أنظر في أمرك » فأدركت اذ ذاك الغرض الذي دعيت لأجله وتمّ ما توقعت حدوثه ولكن لم يكن لي سوى الطاعة فقلت : « أمرك يا مولاي » وانصرفت والاسف ملء فؤادي على هذا المصير .

ولما كانت الحرب بين الروس والدولة العلية سنة ١٢٩٤ هـ ١٨٧٧ م ندبت الى مرافقة النجدة المصرية فذهبت معها وعدت بعد انتهاء الحرب . هذا وكنت عند قيامي من دارة تركت جيشي بقيادة ابني سليمان فأساءت

الحكومة السودانية اليه فاضطر الى الخروج عن طاعتها فوشى به بعض المنافقين بقولهم اني قبل قيامي من دارة أوصيت ابني سليمان بالثورة اذا حجزت الحكومة عليّ في مصر بل قالوا اني كتبت اليه من مصر أحرصه على الثورة وكان على السودان اذ ذاك غوردون باشا فصدّق الوشاية وأمر بتصدير أمواله في السودان وأرسل « جسي » في طلب ابني سليمان فحاربه في عدة وقائع . فكتبت الى سليمان بالتسليم الى الحكومة وترك الحرب فسلم الى جسي فقتله غدراً .

فلما حضر غوردون الى مصر سنة ١٨٨٤ م اجتمعت به في بيت « السر افلن بارنج » (اللورد كرومر) بحضور السر افلن وود سردار الجيش المصري ونوبار باشا رئيس مجلس النظار فسألته عن سبب تصدير أمواله وقتل ابني سليمان فوجدته مقتنعاً بأنني كتبت الى ابني كتاباً أحرصه فيه على الثورة فقلت له اذا ظهر هذا الكتاب وبان انه مني فاني أقدم نفسي للقتل وإلا فاني أطلب بدم ابني ورد أمواله اليّ . وبالطبع لم يظهر الكتاب لأنه لم يوجد إلا في مخيلة المفسدين اهل البغي ففضّ المجلس ولم يكن شيء .

هذا وكانت الحكومة المصرية قد انتدبتني سنة ١٨٨٣ م لحشد الآلي من السود في مصر والذهاب الى سواكن لقمع عثمان دقنة فحشدت الآلي وقتت به فعلاً الى السويس وبعثت بالرسول الى عثمان دقنة ثم علمت هناك اني سأكون تحت أوامر باكر باشا فقلت اما ان أذهب وحدي لقضاء هذه المهمة او لا أذهب فلم ترضَ الحكومة بالاول فعدت الى مصر .

وعند ذهاب غوردون الى السودان قصد اخلائه سنة ١٨٨٤ م لم يلبث أن بعث الى الحكومة يستدعيني اليه لأساعده على اخلاء البلاد واستلامها بعد ذهابه منها ولكن قيل لي ان جمعية أبطال الرقيق في لندن عارضت في ذلك . وفي سنة ١٨٨٥ م عاد المفسدون فوشوا بي بقولهم ان بيني وبين متمهدي السودان مفاوضات سرية فهجم رجال البوليس على بيتي ليلاً وفتشوه لعلمهم يعثروا فيه على ما يؤيد تلك الوشاية فلم يجدوا شيئاً يلقي أقل تهمة عليّ ومع

ذلك فقد قبضوا عليّ وأخذوني الى جبل طارق فحبسوني ٣٠ شهراً ثم لما
تأكدوا براءتي أطلقوا سراحي وأرجعوني الى القاهرة في سبتمبر سنة ١٨٨٧ م .
ولما كنت في جبل طارق تذكرت عزّي في السودان وقابلته بذل الحبس
فقلت منشداً :

« بعد الأهل والونسه وبعد العز والحرسه
بعد انتظام العساكر المؤسسه وبعد فرسان تقشّ المقصه
انقلب الدهر وانعكسا بحبس الزبير في الاندلسه
يارب ياخالق الكون يا مؤسسسه عجل بالفرج قبل القسا
نرجع ونشوف عزاً مؤسسا من فضلك يا كريم لا ينقصاه

وقلت : « يا ليل ماني هيّن ولا ني هويّن في الكفر والاسلامي اسمي بيتن
وفي قومي هناك بيتي بيتن للمسافر والمقيم قدحي ليتن
وللجار والعشير جانبي ليتن للاقارب والارحام بعطي بهيتن
توفيقاً من المولى الكريم المهيمن وكل شيء منه والامر بيتن » اه

هذه هي سيرة الزبير باشا كما تلقيتها عنه سنة ١٩٠٠ م . وقد سمح له
السردار الحالي بالرجوع الى بلاده وأعاد اليه أملاكه وأكرمه فبقي في الخرطوم
سنتين شاهد فيها أهله ودبر أملاكه ثم عاد الى حلوان حيث ابنتى لنفسه منزلاً
فخيماً للسكنى فيه وله الآن اربع نساء شرعيات وعدة اولاد بينهم ولد في
سن الشباب يسمى ميسره متأسل أباه في خلقه وأخلاقه .

والزبير طويل القامة قوي البنية اسمر اللون عربي الملامح حسن الطلعة
خفيف الشاربين واللحية حديد الصوت فصيح اللهجة ذكي الفؤاد عالي الهمة
أبي النفس كريم الطبع سهل الحجاب قوي الارادة قريب الى الخير بعيد عن
الشر محب للعلم وأهل العلم والتقوى غيور على الاسلام والمسلمين مع مسالمة الذين
على غير دينه وهو لم يزل في معيشته البيتية من المأكل والمشرب والممس على
نحو ما كان عليه في السودان لكنه اذا خرج لبس الطربوش ولباس الافرنج .

وقد وصفه بعض كتاب الافرنج بأنه رجل « تجاري سياسي حربي » وقال بعضهم : « انه خلق ليحكم الناس » .

وأظهر صفاته الكرم والنجدة وحب الفخر والسلطة . وقد اشتهر كرمه منذ كان ملكاً في بحر الغزال فقصده الكثيرون من اهل البيوتات في السودان الذين أخذوا عليهم الدهر فأزال كربتهم وفرج ضيقهم . وقد ذكر في بعض مجالسه المبالغ الكبيرة التي أنجد بها قومه وهو في بحر الغزال فبلغ مجموعها نحو ٢٠ الف جنيه ولم تزل داره الى الآن مقصداً لمن خانته الدهر من اهل السودان المصري والعربي .

والزبير يطالب الحكومة الآن بمبلغ ينيف على المليون جنيه تعويضاً عما أنفقه في السودان ومصر في خدمة الحكومة المصرية وعمما فقداه هو وابنه سليمان من العساكر والأمتعة والاموال بسببها . وقد رافع عنه السر ماريوت لدى حكومة انكلترا قصد تحصيل هذا المبلغ فلم يفلح ولكن الحكومة المصرية ربطت له في ميزانيتها معاشاً قدره ٢٨٩ جنيه في الشهر لكنه غير راض به وهو لم يزل يطالب الحكومة بالتعويض المتقدم ذكره . وقد طالما سمعته قبل العودة الى السودان يكرر هذين البيتين :

سلوا أم عمرو كيف بات أسيرها تفك الأسارى دونه وهو موقوف
فما هو مقتول ففي القتل راحة ولا هو ممنون عليه فيطلق

وما حضرت له مجلساً إلا قص علي شيناً عن غزواته في بحر الغزال ودارفور وشكا من ثلاثة امور : ١ - عدم اعطاء الحكومة التعويض الذي يطلبه منها ٢ - قتل ابنه سليمان غدرأ بعد التسليم . ٣ - هجوم البوليس على منزله وحبسه في جبل طارق . ولكنه يثني أطيب الثناء على الانكليز الذين ولوا أمر حراسته هناك وقد قال لي مرة : « ان الاكرام الذي لقيته من الانكليز مدة أسري في جبل طارق أنساني حبسهم لي بلاحق بل حملي منة لا أنساها أبد الدهر ولأجلها اذا لقيت انكليزياً في أقصى الارض وقد وقع في ضيق او خطر فديته بنفسه » .

وقد تغنى شعراء السودان في مدحه فمدحوه بالكرم والفروسية وعلو
المقام من ذلك قصيدة الحاجة بنت مسيمس الشاعرة المشهورة التي نظمتها له
بعد نزوله الى مصر ومنها :

في الخرطوم نزل ادلى بالبابور وفي بربر رسا بالقهوة غفره يدور
جاوا له الجمال اتوجه العتمور حلق الريف نزل قال لمصر دستور
في بلد النصرى كم سحت بالبابور كل صبح جديد راكب على الخنتور
من قمت الجهل انت المنقديم منصور أدوك الأمان خايفين عليك الجور
في السودان قبيل ما يشبهوك الناس ويا جبل الذهب الصافي الماك نحاس
بارود النصرى عن قمزة الكباس خليت المجوس ألين من القرطاس
عدى عصره زين في ديار بلاد الناس وفي دار الغروب دقيت للرجال اساس
كم قتل السلاطين خلتي الديار يباس ود رحمة الزبير تام الرجاله خلاص

عود الى ولاية ٢١ - اسماعيل باشا ايوب :

اما اسماعيل باشا ايوب فانه بعد ان نظم البلاد على ما مرّ في تاريخ الزبير
ولتى على الفاشر حسن باشا حلمي المشهور بالجويسر وعاد الى الخرطوم .

وأرسل الجناب العالي الخديوي رسالتين علميتين الى دارفور لأجل كشفها
ومعرفة محاصيلها ومعادنها فسارتا من مصر في ٥ ديسمبر سنة ١٨٧٤ وذهبت
احدهما بقيادة الكولونيل بردي عن طريق الاربعين فدخلت دارفور من الشمال
والاخرى بقيادة الكولونيل كولستن فدخلتها من الشرق عن طريق كردوفان
ولكن الكولونيل كولستن مرض في الطريق وعاد الى مصر فترأس الرسالة
الماجور بروت وقامت الرسالتان بما عهد اليها حق القيام وعادتا الى مصر
بتقارير علمية واقية عن سكان البلاد ومعادنها وتجارتهما واجمال حالها .

هذا ما كان في السودان الغربي في عهد اسماعيل باشا ايوب على الخرطوم
فلننظر الآن الى ما كان في عهده في السودان الشرقي :

احتلال سنهيت سنة ١٨٧٤ م :

تقدم ان الدولة العلية تنازلت الى مصر عن سواكن ومصوع في سنة ١٨٦٦م لزيادة في جزيتها السنوية فمد اصبحت مصوع بيد مصر أخذت تسمى في تأييد المواصلات بينها وبين كسلا وكان اول ما فتق لها وصل هذين البلادين بخط حديدي يمر في سنهيت التي عدّها اسماعيل باشا داخلة في الفتح الاول لكسلا فعارضه الملك ثيودورس ملك الحبشة في ذلك . ثم قتل الملك ثيودورس في حرب أثارها عليه الانكليز سنة ١٨٦٨ م وتولى الحبشة بعده الملك يوحنا فانشغل في محاربة القالاً فاغتم اسماعيل باشا الفرصة واستخدم الموسيو مونسنجر السويسري الذي كان قنصلاً لدولتي انكلترا وفرنسا في مصوع فاحتل سنهيت بألف وخمسة رجل سنة ١٨٧٤ م وفي الوقت نفسه اشترى مقاطعة آيلت الواقعة بين حماسين ومصوع من حاكمها فأهاج ذلك غضب الملك يوحنا ورفع الامر الى الدول الاوروبية معتمداً بالاكتر على انكلترا . اما اسماعيل باشا فلم يهتم لغضبه ولم يزل على سعيه ولكنه سُغل عنه قليلاً باحتلال هرر وحملة جوبا:

احتلال هرر سنة ١٨٧٥ م :

هرر سلطنة اسلامية مستقلة شرقي الحبشة وقد أسسها غزاة العرب بعد الاسلام بقليل وحكمها عائلة من أهلها فلما كانت سنة ١٨٧٤ م مات سلطانها الامير احمد فتولى السلطنة بعده الامير محمد فاستبدّ بالأهلين حتى لم يعد لهم طاقة على حكمه فاستنجدوا باسماعيل باشا وسألوه ان يرسل من قبله والياً يتولاهم بدل سلطانهم محمد فأجاب اسماعيل باشا سؤالهم وأخذ يسعى في شراء زيلع وبربره ميناءا هرر من الدولة العلية . وفي يوليو سنة ١٨٧٥ م تنازل له الباب العالي عنها بزيادة ١٣٣٦٥ جنياً مصرياً على جزية مصر السنوية . وفي سبتمبر سنة ١٨٧٥ م جهز حملة مؤلفة من ٥ اورط من المشاة المصريين وبلوكين من الباشبوزق و ٣٠٠ جمل ومدفعين جبليين وعدة صواريخ حربية وعقد لواءها

لرؤوف باشا الذي تقدم ذكره في فتح خط الاستواء فاحتل مدينة هرر في ١١ أكتوبر سنة ١٨٧٥ م وقبض على السلطان محمد وقتله خنقاً بلا موجب وبقي الى ان عزله غوردون . وما زالت مصر قابضة على زمام الاحكام في هذه البلاد الى ان كانت الثورة المهديّة ولم يعد يمكنها ابقاء جنودها فيها فأخلتها لأهلها في مارس سنة ١٨٨٤ م فألت الى الاحباش في عهد الملك منيلك الحالي وما زالت بيد الاحباش الى اليوم .

حملة جوبا سنة ١٨٧٥ م : وفي سنة ١٨٧٥ م ارسل اسماعيل باشا حملة الى نهر جوبا لفتح الطريق بين البحر الهندي وبلاد خط الاستواء وتجنب السد في النيل الابيض الذي لم يقو على إزالته . وكان غوردون باشا اذ ذاك حاكماً على خط الاستواء فأصدر اليه الامر بملاقة الحملة من جهته ولكن تضاربت عدة مصالح دولية ووقفت في سبيل هذه الحملة فنصحت الدولة الانكليزية لاسماعيل باشا فعدل عن رأيه وعادت الحملة الى مصر .

حرب الحبشة سنة ١٨٧٥ : ١٨٧٦ م : وعاد اسماعيل باشا الى النظر في احتلال حماسيم فلما كانت أواخر سنة ١٨٧٥ م أرسل أورطتين وبطارية مدافع بقيادة الكولونيل ارندروب من ضباط الاميركان في خدمة الجيش المصري بقصد احتلالها فلما علم الملك يوحنا بقدمه جرّد جيوشه وتقدم لقتاله فالتقاء في قندت في ١١ نوفمبر سنة ١٨٧٥ م فقتله وأفنى جيشه وغنم أسلحته وذخائره وتقوى بها وكان في جملة القتلى عراقيل بك وكيل مونسنجر في مصوع أما مونسنجر نفسه فلم يذهب مع الحملة ولكن لم تنته سنة ١٨٧٥ م حتى قتله الاحباش على بحيرة أوسا ومثلوا به .

ولما وصل الخبر الى اسماعيل باشا بمصر صمم على الاخذ بالثار فأمر السردار راتب باشا فجرّد جيشاً مؤلفاً من ١٥٠٠٠ مقاتل فيهم أورطة من السواري وأربعون مدفعاً وعدة سواريخ وسار به بطريق البحر الاحمر الى مصوع فوصلها السبت في ١٣ القعدة سنة ١٢٩٢ هـ ١١ ديسمبر سنة ١٨٧٥ م ومعه

الكولونيل لونج رئيس أركان حرب والبرنس حسن باشا ثالث أنجال اسماعيل باشا أركان حرب شرف وزحف بالجيش على قرع الواقعة على ٥٥ ميلاً من مصوع فبنى طابية فيها وطابتين في اول سهلها قرب قياخور وأسس ثلاث نقط حربية بينها وبين مصوع لحفظ خط الاتصال. ولما علم الملك يوحنا بقدمه جرّد جيوشه على قرع وكان من رأي السردار ان يتربص في الطوابي حتى يهاجمه الملك فأنكر عليه الكولونيل لونج هذا الرأي وقال انه دليل الخوف والجن وليس من شأن المهاجم فوقع اللجاج بينها واخيراً تغلب رأي الكولونيل لونج فما أطلقت جنود الملك يوحنا حتى خرج اليهم المصريون وحاربوهم في السهل فأطبق الاحباش عليهم من كل جانب وقد قدر عدد الاحباش بنحو ٢٠٠٠٠٠٠ نفس مع النساء والاولاد وكان بعضهم مسلحين بالبنادق وأكثرهم بالسيوف والحراب والدرق فلم يكن إلا القليل حتى اخترقوا صفوف المصريين وأعملوا بهم السيوف والحراب ففتكوا بهم فتكاً ذريعاً وقتلوا منهم نحو عشرة آلاف رجل وغنموا بنادق القتلى و ٢٥ مدفعاً ومقداراً كبيراً من الذخائر وأسروا ٢٦٧ رجلاً وذلك في يوم الثلاثاء الواقع في ١١ صفر سنة ١٢٩٣ هـ ٨ مارس سنة ١٨٧٦ م .

وأما الذين نجوا من المصريين وعددهم لا يزيد عن الالف فقد لجأوا الى طابية قرع فهاجمهم الاحباش فيها بعد الواقعة بيومين ولكنهم لم يقووا عليها فعادوا بالاسلاب والاسرى الى عدوه .

وكان في جملة الاسرى محمد بك رفعت الذي رافق الحملة كاتباً للبرنس حسن باشا فأخذ يسعى في عقد الصلح مع الملك فتم الصلح على ان يرجع الجنود المصرية من ارض الحبشة ويرد الملك الاسرى الى مصر ويفتح التجارة بين مصوع والحبشة وعاد محمد بك رفعت مع الاسرى الى قرع في ٢٧ ربيع اول سنة ١٢٩٣ هـ ٢٢ ابريل سنة ١٨٧٦ م وعاد السردار وباقي العساكر من قرع الى مصوع ومصر فدخلوا مصر في ٧ محرم ١٢٩٤ هـ ٢٢ يناير سنة ١٨٧٧ م .

وبقيت سنهيت ومصوع بيد المصريين وبقي سليمان باشا نياطي في مصوع
محافظة عليها .

جرى ذلك كله واسماعيل باشا ايوب حاكم في الخرطوم وقد أمن السبل
وأنشأ محطات في طرق القوافل بين الخرطوم ودارفور وبين بربر وسواكن إلا
انه لم يكن محبوباً في السودان وقد وصفه لي بعضهم بقوله : « كان رجلاً
جباراً يعني بالمسكرية ويهمل الرعية ويقبل كل هدية » .

٢١ - غوردون باشا ١٢٩٣ : ١٢٩٦ هـ - ١٨٧٧ : ١٨٧٩ م

ولما دخلت سنة ١٨٧٧ م عاد اسماعيل باشا ايوب الى مصر فلم يرَ الخديوي
رجلاً يوليه السودان على اتساع أطرافه وكثرة مشاكله في هذا العهد أفضل من
غوردون فأرسل يستدعيه تفرافياً من بلاد الانكليز فحضر في أوائل فبراير
سنة ١٨٧٧ م . وكانت مديريات السودان لا تزال مستقلة بعضها عن بعض
فطلب غوردون ضمها كلها تحت ولايته فأجابه الى ذلك وأصدر له فرماناً
بتاريخ ١٧ فبراير بالولاية على جميع بلاد السودان المصري مع دارفور وخط
الاستواء وسواحل البحر الاحمر وهرر ومنحه السلطة العسكرية والمدنية عليها
وأعطاه سلطاناً على القتل والعفو ومنع دخول احد الى السودان إلا بأذنه
ووجه منع تجارة الرقيق وتحديد التخوم بين السودان والحيشة . فسار غوردون
الى الخرطوم بعزم وطيد لاصلاح البلاد وفض مشاكلها ووضع نظام عام يكفل
ها الراحة ويرقيها في معارج المدنية وال عمران ولكنه لم يلبث ان رأى خطارة
المركز الذي تولاه وتعدّر النجاح نظراً لعدم تيسر الايدي اللازمة للعمل
واتساع اطراف السودان ومشقة السفر في بلاده برأ وبجراً مع قلة الجيوش
اللازمة ل حمايته بعد ان ذهب قسم منها لمساعدة الدولة العلية في حرب الروس
ونهاك الباقي حرب الحيشة . ففضى غوردون في السودان سنتين ونيفاً وهو
يتنقل من مكان الى مكان تارة بالبر وتارة بالبحر متمماً كما أمكنه من
الاصلاح حتى أعياه التعب وقاومته السياسة فاضطر الى الاستغناء . وكان أهم

ما اشتغل به في هذه المدة : اخماد ثورة الامير هارون الرشيد في دارفور
وحركة صباحي في كردوفان وسليمان الزبير في بحر الغزال ومنع تجارة الرقيق
والنظر في مد سكة الحديد واصلاح ذات البين بين الحبشة والسودان .

ثورة السلطان هارون سنة ١٨٧٧ : ١٨٨٠ م : تقدم ان اسماعيل باشا
ايوب ضرب الضرائب الفادحة على اهل دارفور فقبلوها على الرغم لأنهم كانوا
قد سثموا عيشة الاضطراب والقلق التي وصلوا اليها في آخر سلطنة الفور وناقوا
الى السكينة ولكن لم يطل الأمد حتى انتشر الباشبوزق في أنحاء البلاد واقتضوا
الضرائب منهم بالعنف والقوة فاستعظموا ذلك وفضلوا العودة الى ما كانوا عليه
قبل . وكان عندهم من اولاد السلاطين الامير هارون الرشيد ابن الامير سيف
الدين ابن السلطان محمد الفضل فبايعوه سلطاناً عليهم في أوائل سنة ١٨٧٧ م
وثاروا ثورة عامة وحصروا حاميات الفاشر وداره وكلكل . وحصر الفاشر
الملك سعد كبير البرتي والمقدم آدم مقدم الشمال سابقاً فهاجماها مرتين وكادا
يستوليان عليها لولا ان العساكر حاربوا حرب الاسود فصدوها ولكنهم لم
يقووا على رفع الحصار . فأرسل حسن باشا حلي الجويسر مدير الفاشر في
طلب المدد من الخرطوم فأتاه عبد الرزاق باشا بجيش كبير فتصدى له العصاة
في بروش بين ام شنقه والفاشر فقتل منهم خلقاً كثيراً ودخل الفاشر فرفع
عنها الحصار وأرسل الجنود الى داره وكلكل فرفعوا الحصار عنها ايضاً .

ثم أخذ حسن باشا عسكرياً من الفاشر وخرج لمطاردة الامير هارون فأدركه
في الطينة مسيرة يوم ونصف الى الفاشر فأوقع فيه واقعة شديدة ثم لحقه الى
بير مرتال فقتل من عسكره خلقاً كثيراً وهزمه الى نيورنيا وسط جبل مرة .

ولما وصل غوردون الخرطوم وعلم بثورته أسرع الى الفاشر فوجده هادئاً
في نيورنيا فتركه وشأنه وأمر الجبابة بالرفق في تحصيل الضرائب وعزل جانباً
كبيراً من عساكر الباشبوزق ورجع الى الخرطوم بعد ان أرجع اليها نصف
العساكر النظامية .

وفي أوائل سنة ١٨٧٩ م عاد الامير هارون الى الحركة فعاد غوردون الى الفاشر فرأى ان دارفور لا يصلح حالها الا اذا حكمها رجل من أهلها تحت طاعة الحكومة على نحو ما أشار به الزبير من قبل فبعث الى مصر في طلب الأرشد من اولاد السلطان ابراهيم وعزل حسن باشا حلمي عن الفاشر وسمى مساداليه بك وهو ضابط ايطالي مديراً على دارفور . وكان عند مروره بسواكن في ديسمبر سنة ١٨٧٧ م قد أطلق من سجنها المقدوم رحمة قومو المار ذكره وقد استصحبه الى الفاشر فجعله معاوناً لمساداليه بك الى ان يجيء ابن السلطان ابراهيم من مصر اما ابن السلطان ابراهيم فانه ما وصل دنقلة حتى فاجأته المنية فبقي حكم البلاد على حاله .

سلاطين باشا : وكان مساداليه بك قبل انتقاله الى الفاشر مديراً على داره فخلفه سلاطين بك وهو الآن سلاطين باشا الذي اصبح له شأن عظيم في السودان لذلك نأتي على لمع من بدء سيرته هنا فنقول : قدم سلاطين الى السودان سائحاً سنة ١٨٧٤ م وهو اذ ذاك في الثامنة عشرة من عمره فقصد جبال النوبة لدرس أحوالها فنثار عرب الحوازمة على الحكومة لثقل الضرائب عليهم فرجع الى الابيض وجعل وجهته الفاشر فبلغه في الطريق ان اسماعيل باشا ايوب قد أصدر أمره بعدم توغل الأجانب في بلاد دارفور خوفاً عليهم من أهلها فانقلب راجعاً الى الخرطوم فوجد فيها الدكتور امين بك وقد جاءها بقصد الدخول في خدمة غوردون في خط الاستواء فتعرف به وكتب الى غوردون يطلبان خدمة عنده فجاءهما الجواب بعد شهرين يدعوها اليه فذهب امين بك على ما مرّ وأما سلاطين فقبل ان يرد الجواب من غوردون بعث اليه أهله يستحثونه على الرجوع اليهم فرجع في ختام سنة ١٨٧٥ م. ولما تولى غوردون حكمدارية السودان سنة ١٨٧٧ م ورأى قلة الأيدي اللازمة للعمل ذكر طلب سلاطين القديم فبعث اليه في أواسط سنة ١٨٧٨ م يستدعيه للخدمة في السودان وكان سلاطين اذ ذاك ملازماً في جيش النمسا في حرب الهرسك وقد حضر « واقعة هرزكوفينا » فلما انتهت الحرب وعادت

اورطته الى مركزها في برسبورج استعفى من الجيش وودع اهله في فيينا في ٢١ ديسمبر سنة ١٨٧٨ م وجاء الخرطوم عن طريق سواكن فدخلها في ٢١ يناير سنة ١٨٧٩ م فرحب به غوردون وسماه مفتشاً في مالية السودان على ان يطوف في المديرية ويبحث في أسباب شكاوي الاهلين من الضرائب فذهب الى سنار وفازوغلي فرأى ان معظم الضرائب غير موزعة بالقسط وان الرشوة سائدة بين الموظفين عموماً ولا يمكن الاصلاح إلا بقلب هيئة العمال كلها فرفع استعفاه الى غوردون وهو اذ ذاك في دارفور فقبله وعينه مديراً على داره كما مرّ . وذهب سلاطين لاستلام مهامّ وظيفته الجديدة فالتقى بغوردون في الطريق بين الابيض والنيل الابيض فأمره بتتبع الامير هارون وإخماد أنفاسه فما وصل داره حتى جاءتته الأنباء ان الامير هارون قد قام من نيورنيا قاصداً نقطة بيرقوي على ثلاثة ايام جنوبي داره فأخذ سلاطين العساكر وقصد بيرقوي فرجع هارون عنها وعاد سلاطين الى داره .

وبعد ذلك بنحو شهر أي في فبراير سنة ١٨٨٠ م جاءه كتاب من مساداليه بك يقول انه صمم على مهاجمة الامير هارون في نيورنيا وقد جرّد عليه سرية من الفاشر بطريق طرّة وسرية من كلكل بطريق ابي حراز وسأله ان يذهب بسرية من عسكره بطريق منواشي ويجمع الكل في نقطة معينة قرب نيورنيا فجهز سلاطين ٢٢٠ رجلاً من الجهادية و ٦٠ من البازنجر وبعض الفرسان وسار بهم الى نقطة الملتقى ولم يكن إلا يسيراً حتى اجتمعت عليه سرية الفاشر فكثوا في انتظار سرية كلكل . ولكن الامير هارون علم بخبر السرايا فجهز أنصاره وقد بلغ عددهم ٤٠٠ رجل مسلحين بالبنادق ومثلهم مسلحين بالسيوف والحراب و ٦٠ فارساً وخرج بهم من نيورنيا فقابل سرية كلكل في الطريق فقتل منها وردّها الى كلكل وسار قاصداً داره فقتل وسبى وغنم ولكنه لم يقوَ على الحامية فعاد عنها قائماً بالغنائم والسبايا . ولما علم به سلاطين خرج لمطاردته فأدركه في رهد النبق بالقرب من مركز سلطان المسبغات فباغته الهجوم وهو يستعد للرحيل فما شعر هارون إلا والرصاص يتخطف رجاله من

كل جهة فانهزم شرانهزام. وغنم سلاطين منه ١٦٠ بندقية وجوادين و٤ نقارات
و٤ رايات وعاد الى داره . وفر هارون الى جهة الغرب فنزل في ابتره في
دار قمر فعلم به النور بك عنجرة مدير كلكل فخرج له وباغته الهجوم في
معسكره فقتله وهو يحاول الفرار على فرسه وقتل من أنصاره خلقاً كثيراً
واستولى على معسكره وذلك في مارس سنة ١٨٨٠ م . وكان لقتله فرح عظيم
في جميع دارفور .

وانضم القليل الذين نجوا من واقعة ابتره على الامير دود بنقه ابن الامير
بكر ابن السلطان محمد الفضل فتحصن بهم في جبل مرة على ضعف وبقي الى
ان كانت الثورة المهدية .

حركة سليمان الزبير في بحر الغزال ١٨٧٧ : ١٨٧٩ م : قال الزبير :
« وبعد ذهابي الى مصر خرج ابني سليمان بالجيش وعدده ٤٠٠٠ مقاتل الى شكا
وأقام فيها الى ان حضر غوردون الى دارفور اول مرة فأرسل اليه أمراً
لمقابلته مع جيشه في داره فصدع بالامر واجتمع على غوردون في شهر اوغسطوس
سنة ١٨٧٧ م . وكان السعيد بك حسين احد سناجق الجيش قد وشى بي الى
غوردون قائلاً اني أوصيت ابني اذا لم أرجع سريعاً من مصر ان ينهض بثورة
على الحكومة كما مرّ فرأى غوردون ان يفرق جيش سليمان فأعطى السعيد بك
الف رجل وسماه مديراً على شكا وأعطى الباقي للنور بك عنقرة من سناجق
جيش سليمان وأرسله الى كبكبية وأمر سليمان فرجع الى شكا بقله وذلة . وفي
أواسط سبتمبر سنة ١٨٧٧م وافاه الى شكا فطيب خاطره وأنعم عليه بالرتبة
الثانية مع لقب بك وسماه مديراً على بحر الغزال فسُرّ سليمان بهذا الالتفات
وذهب الى ديمي القديم وكنت قبل قيامي من الديم لحرب دارفور قد خلفت
ادريس ابتر من تجار الدناقلة وكيلاً عني في بحر الغزال براتب معين فقضى اربع
سنوات في إدارة بحر الغزال لا يشاركه فيها احد فلما حضر سليمان وجد ان
ادريس ابتر قد أخلّ بالادارة واستبدّ بالعباد ولم يهتم إلا بانتفاعه الشخصي
فأعلن سليمان ارادته بمحاكمته في مجلس قضائي ففرّ الى الخرطوم ووشى به الى

غوردون بأنه يريد الاستقلال في بحر الغزال بحجة انها بلاد أبيه وليس للحكومة حق فيها .

حملة ادريس ابتر : ويظهر ان غوردون باشا أصغى الى وشايتيه فأنعم عليه بلقب بك وأعطاه مدفعين و ٢٠٠ من العساكر المنظمة وسماه مديراً على بحر الغزال . فلما وصل ادريس ابتر الى ديم قنده المعروف ايضاً باسمه كتب الى رؤساء الزرائب يخبرهم بتعيينه مديراً على بحر الغزال ويأمرهم بالحضور اليه وكتب الى سليمان يدعوه للتسليم فغضب سليمان من ذلك وكتب اليه في الجواب يقول : « ان ولائي للحكومة يمنعني الخروج عن طاعتها الا ان شرفي لا يسمح لي بالتسليم الى من كان خادمي وخادم أبي من قبلي ولا يمكنني ان أؤتمك على نفسي واموالي بعد الذي رأيته من خيانتك وإنكارك للجميل لأنك لو كنت أميناً وذاكراً للجميل لحفظت عيشتنا وملحننا وتربيتنا لك فلا تنتظر مني التسليم ولو ارسلت الحكومة إلي رجلاً غيرك ولو عبداً لسلمت وذهبت معه الى غوردون وأطلعته على جلية امري وبيتنت له نفاقك والسلام . »

فتيقن ادريس ابتر من هذا الجواب ان سليمان لا يسلم اليه الا بالقوة فتزك جنده في عهدة اخيه عثمان وطاف في الزرائب يحرصهم على محاربتيه وكان عثمان اخو ادريس رجلاً فظاً عاتياً مكروهاً من جميع البحارة وكان يرسل الشتائم الى سليمان وأتباعه ويتهددهم بالقتل وانواع العذاب فجرد سليمان رجاله ورجال الزرائب الذين من حزبه وهاجمه في ديم قنده فقتله وقتل اكثر الجهادية والجلابة الذين معه وغنم اسلحتهم وذخائرهم وعاد بالاسرى والغنائم الى مركزه . فلما بلغ ادريس ابتر خبر الواقعة انقلب راجعاً الى الخرطوم وأخبر غوردون بما كان .

حملة جستي : فجهز غوردون سرية من العساكر وعقد لواءها لجسي باشا المار ذكره في فتح خط الاستواء ومعه يوسف باشا الشلاي فأقلع من الخرطوم في يوليو سنة ١٨٧٨م وسار في النيسل الابيض حتى وصل أورمبك بطريق

شامي في سبتمبر سنة ١٨٧٨ م فوجد البلاد مغمورة بالمياه بسبب الامطار فأقام في أورمبك نحو ثلاثة اشهر حتى جفت الارض فسار قاصداً ديم سليمان ومعه ٣٠٠ من العساكر المنظمة و ٧٠٠ من الباشبوزق و ٣ مدافع . وكان على طريقه في نقطة الدمبو رجل من مشاهير البحارة يُقال له علي بك ابو عموري ومعه نحو الف رجل مسلحين بالبنادق فدعاه للانضمام اليه فأجابه بعد تردد لأنه لم يكن يود محاربة سليمان ولكن كان له محل تجاري في الخرطوم وآخر في مصر فأجاب الدعوة مضطراً مراعاة لتجارته واجتمع على جسي في جور غطاس وساروا كلهم حتى نزلوا في قنّدة في اواسط ديسمبر سنة ١٨٧٨ م .

واقعة قنّدة : وكان سليمان لما علم بقدم جسي قد أخذ في حشد الجيوش حتى اجتمع عنده نحو ١٠٠٠٠ مقاتل فسار بهم الى قنّدة ونزل بالقرب من معسكر جسي . ولما كان صباح ٢٨ ديسمبر سنة ١٨٧٨ م حمل على المعسكر حملة صادقة وكان جسي قد أمر جنوده فبنوا كل منهم متراساً علوه متر ونصف متر ليقية من الرصاص فصلوا رجال سليمان ناراً حامية فثبتوا برهة ثم انقلبوا راجعين الى معسكرهم فبنوا حصناً منيعاً من الاخشاب والتراب ونزلوا فيه ثم جددوا الهجوم على جسي في ١٢ يناير سنة ١٨٧٩ م وفي ٢٩ منه فلم يظفروا بطائل .

وفي ١١ مارس سنة ١٨٧٩ م وصل جسي مدد من العساكر والذخائر فرحف بجيشه حتى صار قريباً جداً من معسكر سليمان وأقام تلاً من التراب وجعل عليه المدافع والسواروخ وشرع يرمي بمقذوفاتها معسكر سليمان وكانت بيوته كلها من قش فاشتعلت النار في المعسكر كله فذُِعِر سليمان منه الى ديه .

واقعة ديم الزبير : وبقي جسي في قنّدة حتى جاءه مدد آخر من غوردون فرحف بجميع جيشه على ديم سليمان فوصله في ٤ مايو سنة ١٨٧٩ م فخرج

عليه سليمان من الديق وحاربه مستقتلا مدة ساعة ثم انهزم راجعاً الى الديق
فتبعه جسي على الاثر وأخرجه منه واستولى على جميع ما فيه من الأمتعة
والاموال . واما سليمان فانه سار شمالاً حتى وصل غرّة غرب الكلكة من
اعمال دارفور فأقام فيها .

وكان غوردون لما حضر المرة الثانية الى دارفور كما مرّ عرّج على شكا في
٧ ابريل سنة ١٨٧٩ م فوجد فيها بعض التجار الجعليين يهرّبون الاسلحة الى
سليمان في بحر الغزال فألقى المديرية وشتت التجار وأمدّ جسي ببعض الذخائر
وتوجه الى الفاشر للنظر في ثورة هارون ولم يلبث ان أناه خبر من جسي بالاستيلاء
على ديم الزبير وفرار سليمان الى غرّة فخاف غوردون ان ينضم سليمان على
هارون فيصعب عليه إذلالها معاً فعاد الى الطويشة وكتب الى جسي فترك
الجيش بقيادة ساني بك في ديم الزبير ووافاه اليها في ٢٥ يونيو سنة ١٨٧٩ م
ومعه يوسف باشا الشلاي فأمره بمطاردة سليمان الى غرّة وعاد بيوسف باشا
الشلاي الى الخرطوم . فقاد جسي العساكر من دارة وبعض مشايخ الرزيقات
والمعالية اصحاب الثأر على الزبير وسار حتى وصل الكلكة فأرسل رسلا
بكتاب الى سليمان يدعوه الى التسليم . قال الزبير :

« وكان قد بلغني خروج ابني سليمان على الحكومة بسبب ادريس ابتر
فكتبت اليه من مصر بتاريخ ٢٥ الحجة سنة ١٢٩٥ هـ ٢٠ ديسمبر سنة ١٨٧٨ م
بما فحواه :

« أوصيتكم قبل مجيئي مصر بالامتنال لأمر الحكومة وعدم مخالفتها في شيء
لتحوزوا تمام رضاها وتنالوا الرتب العالية . ثم بعد انفصال اسماعيل باشا
ايوب عن الخرطوم وتولّي غوردون باشا حكمدارية السودان كتبت اليكم
بالطاعة لأوامره وحذرتكم من مخالفته وقلت لكم ان رضاه مقرون برضى الحضرة
الخدوية وغضبه كذلك واني أوصيته بكم فوعدني خيراً . وقد سرّني امتثالكم
له في بادئ الرأي بمجيئكم مع ٤ آلاف عسكري لمقابلته في داره وسرّني
بالاكثر خضوعكم له عند تجريده إياكم من العساكر لأن فعله هذا كان محض اختبار

لكم وليس بقصد إذلالكم يدل على ذلك لحوقه بكم الى شكا وإنعامه عليكم بالرتبة الثانية وتعيينه إياكم حاكماً على بحر الغزال . وقد بلغني ذلك وأنا في بلاد الترك فسررتي جداً وشكرت الله على حسن قيامكم بوصيتي واتخاذكم سواء السبيل .

« لكن بعد عودتي من بلاد الترك ورد عليّ تلغراف من محمد بك العقاد بالخرطوم كتبه بأمر حكمدار السودان يخبرني بعدم امتثالكم لأوامر الحكمدار ويرغب إليّ ان أكتب اليكم نصحاً لردّكم الى الطاعة وان ارسل كتابي اليكم عن يده فبعثت اليه بهذا الكتاب ليوصله اليكم فعسى ان يجدمكم على أتم الطاعة والامتثال ويكون كل ما بلغ الحكمدار عنكم كذباً وافتراء . واذا كنتم لا سمح الله قد هفوتهم وخالفتم أوامر الحكمدار فارجعوا في الحال الى الطاعة وطلب العفو عما فرط منكم واذا لم تفعلوا ذلك فاعلموا ان الله ساخط عليكم وأنا كذلك .

« وقد ورد عليّ الخبر اليقين بأن خادمكم ادريس ابتر الدنقلاوي قد زحف عليكم في مركزكم بقوة عسكرية تنيف على ٣٠٠٠ مقاتل من عساكر أميرية وخطرية وبسبب تعديّه عليكم وخيانة العيش والملح وإنكار الجميل قد رده الله خائباً ولكنه مع ذلك أوقع الفتنة بينكم وبين الحكومة ولا بدّ ان تكون عاقبة ذلك وخيمة عليكم مع انكم فعلتم ذلك دفاعاً عن انفسكم فيانا الله وإنا اليه راجعون . واعلم يا ولدي ان من قد تربى مثلكم في كنف الحكومة أباً عن جدّ وتشرف برتبها وانعاماتها لا يجدر به الا الطاعة والامتثال لأوامرها لا سيما وانتم تعلمون ان « الحكومة عالية ويدها طائلة » وقد طالما قاومتها الجيوش ورجعت عنها خائبة فما الذي زين لكم هذه الوسوس الشيطانية فان كانت من رأيكم فاطرحوها جانباً لأنها تلقىكم في المهالك ولا تفيدكم شيئاً وإن كانت من تغرير المفسدين بقولهم ان الحكومة حجرت على والدم في القاهرة او انها قتلتها فاعلموا انه قول كذب لا أثر للصحة فيه لأننا والحمد لله لم نزل في قيد الحياة مشمولين بأنعام الحضرة الخديوية الفخيمة ومقيمين في ضيافتها

على أتمّ الراحة والأمان نحن وجميع أتباعنا ولا نجد من لدن الجناب العالي الخديوي وجميع رجاله الفخام الا التجلّة والاكرام فارجعوا الى رشدكم وعودوا الى الطاعة واذكروا أمر الله تعالى في كتابه العزيز بقوله : « أطيعوا الله وأطيعوا الرسول وأولي الأمر منكم » فاذا عصيتم فما جوابكم يوم العرض وكيف الخلاص ؟.

« ثم اعلم يا ولدي ان تماديكم في العصيان يضرّ بركزي الأدبي هنا كما يضر بكم هناك ويجلب عليكم سخط الله والحكومة فحافظوا على كرامتكم وكرامتي واستوعبوا الآن وصيتي. وقد ارسلت كتابي هذا مع محمد آدم (وهو الآن عمدة الجميعاب في الجايلى) ليثبت لكم صحة قولي ويعيد عليكم وصيتي شفاهاً فعند وصوله اليكم اذهبوا معه لمقابلة غوردون باشا حاكمدار السودان في الخرطوم او في دارفور . وأنا أعلم انه حالما يراكم يصفح عنكم ويحسن معاملتكم لأن شرف بريطانيا العظمى وكرم سجيته يوجبان عليه ذلك لا سيما واني أوصيته بكم عند سفره من مصر فوعدني خيراً . تولاكم الله وهداكم الى سواء السبيل » اه .

قتل سليمان وأعمامه بعد التسليم : قال الزبير : « وقد وصل كتابي هذا الى سليمان بعد خروجه من بحر الغزال فاستوعبه وصدقته . ولما دعاه جسي الى التسليم مال اليه فعارضه رابع وانقسم الجيش بها الى حزبين : حزب مال الى التسليم ورئيسه سليمان وحزب أعرض عنه ورئيسه رابع . ولما كان صباح ١٤ يوليو سنة ١٨٧٩ م أتى سليمان الى جسي مسلماً ومعه ٧٠٠ رجل فيهم ثمانية من أقاربه وهم حسن ود دقيل وابو بكر منصور وموسى الحاج واحمد ود ادريس و ابراهيم ود حسن وكلهم من الجميعاب والارباب محمد ود دياب من السعداب وعبد القادر ود الامام وسليمان ود محمد والقائد برنجي الاسود. وكان في جيش جسي كثير من الدناقلة الذين يكرهون سليمان والجمعليين فوشوا به الى جسي قائلين ان تسليمه هو وأقاربه انما هو خدعة فاتخذ هذه الوشاية الساقطة مسوغاً لقتلهم فناداهم الى شيمته ثاني يوم التسليم وسقام القهوة وكان قد أوعز

الى بعض الجند فاحتاطوا بالخيمة ثم خرج منها فدخل بعضهم وأوثقوا سليمان وأقاربه وجعلوهم صفاً واحداً خارج الخيمة ووقفوا خلفهم ورموهم بالرصاص فانكبوا على وجوههم قتلى وبعد ساعة أتى قناوي بك ابو عموري فكفّسهم وحفر لهم حفرة ودفنهم فيها .

« وأما الرؤوس الذين لم يسلموا عدا رابح فهم : ابو القاسم من المجاذيب وموسى جلي وادريس سلطان ومحمد فضل الله وكلهم من الجميعاب وعبد البين الاسود فأخذ كل منهم رجاله وتفرقوا بين عرب البادية فلما بلغ العربان قتل سليمان وأعمامه ألقوا القبض عليهم وساقوهم الى مساداليه بك في الفاشر فقتلهم عملاً بأمر جسي .

رابح الزبير : أما رابح فقد انضم اليه نحو الف رجل مسلحين بالبنادق فقادهم الى جهة الغرب وأخذ يدوّن البلدان الى ان وصل برنو ففتحها وأسس فيها ملكاً عظيماً جعل عاصمته دكوة في جنوبي بحيرة تشاد . وقبل وصوله الى برنو قام مهدي السودان فبذل الجهد هو وخليفته من بعده في استمالة وإرجاعه يجيشه الى ام درمان فلم يجب دعوتها كما سيجيء ولكن اختار راية المهدي راية لجيشه واشتهر ملكه بالعدل والصرامة وبقي الى ان دخلت برنو في نطاق نفوذ الفرنسيين فجردوا عليه اخيراً حملة مؤلفة من ٧٠٠ عسكري مسلحين عدة وقائع . فجردوا عليه اخيراً حملة مؤلفة من ١٥٠٠ عسكري من الباجرمة و ٤ مدافع بقيادة الكونت لامي وكان مع رابح نحو ٥٠٠٠ مقاتل فيهم ٢٠٠٠ مسلحين بالبنادق و ٦٠٠ فارس و ٣ مدافع فالتقى الجيشان في ٢١ ابريل سنة ١٩٠٠ قرب بحيرة تشاد واقتتلا قتالاً شديداً كانت العاقبة فيه للفرنساويين وقد قتل رابح وتشتت جيشه وقتل الكونت لامي بعد ان تم له النصر .

ولم ابن رابح شعث جيش أبيه ولكن لم تلتهِ سنة ١٩٠٠ حتى قتله الفرنسيون وأسروا رجاله ولم يبقَ من قوم رابح من يطالبهم بثأر .

تنظيم مديرية بحر الغزال سنة ١٨٧٩ م : وبعد ان فرغ جسي من امر سليمان عاد الى ديم الزبير فنظم فيه مديرية وجعل الساتي بك مديراً والارباب الزبير ود الفحل وكيلا له ومحمود المحلاوي المار ذكره مفتشاً لمنع تجارة الرقيق وقسم البلاد الى ثمانية اقسام وجعل في كل قسم منها نفراً من الباشبوزق والبازينجر وجعل في ديم الزبير اورطة جهادية وقفل راجعاً الى الخرطوم . ثم نظم ساتي بك اورطة جديدة من اهل البلاد وجاء موسى بك شوقي قومنداناً للعساكر من الخرطوم ومعه ١٦ كاتباً للقيام في اشغال المديرية . وبعد وصولهم بثلاثة اشهر حضر لبتن بك وهو من البحارة الانكليز مديراً على بحر الغزال وقومنداناً للعساكر من قبل غوردون وعاد موسى بك شوقي الى الخرطوم . وبقي لبتن في بحر الغزال الى ان قام المهدي فاضطر الى التسليم الى احد أنصاره كما سيجيء .

اما جسي باشا فقد اعترضه السد في الطريق وفرغ منه الوقود والزاد حتى اكل رجاله بعضهم بعضاً وأشرفوا على الهلاك واذا بوابور قاصد خط الاستواء قد أقبل عليه فرجع به الى فاشودة ثم عاد فآتم سفرته وتقدم جسي بمن بقي من رجاله وفيهم قناوي بك ابو عموري الى الخرطوم فوصلها في ٢٥ يناير سنة ١٨٨١ م وسار منها قاصداً مصر عن طريق سواكن فوافته المنية في السويس في ٣٠ ابريل سنة ١٨٨١ م .

حركة صباحي في كردوفان سنة ١٨٧٩ م : وفي أثناء حركة هارون الرشيد في دارفور وسليمان الزبير في بحر الغزال نهض صباحي احد القواد الذين انفصلوا عن جيش الزبير فألّف عصابة من ٤٠٠ رجل وأغار على الاضية في كردوفان فقتل مأمورها وفرّ الى جبال النوبة فعلم به غوردون وهو ذاهب الى دارفور المرة الثانية في مارس سنة ١٨٧٩ م فأرسل من الابيض نفراً من العساكر فطارده وأتوا به أسيراً فحوكم في مجلس عسكري وحكم عليه بالاعدام .

عود الى تجارة الرقيق : تقدم لنا ذكر تاريخ تجارة الرقيق في السودان

وسمي اسماعيل باشا في ابطالها فلما كان ٤ اوغسطس سنة ١٨٧٧ م عقد معاهدة رسمية مع انكلترا في هذا الشأن على ان تقفل اسواق الرقيق في مصر والسودان في الحال ولكن يُغضى عن بيع الرقيق بين العائلات في مصر الى سنة ١٨٨٤ م وفي السودان الى سنة ١٨٨٩ م ثم يمنع البيع بتاتا من البلادين . فلشر غوردون فحوى هذه المعاهدة في جميع جهات السودان وسمى جيكلر باشا مديراً عاماً لمنع تجارة الرقيق وسمى في كل مديرية عدة مأمورين لهذه الغاية فأخذ العبيد يقدون اليهم افواجا يطلبون تذاكر الحرية فتعطى لهم . وفي أواسط سنة ١٨٧٨ م ضبط غوردون ١٤ قافلة من قوافل الرقيق وفي السنة التالية ضبط ٦٣ قافلة .

سكة الحديد في السودان : وكان غوردون على رأي القائلين بمد سكة الحديد في طريق سواكن وبربر لا في طريق النيل والاكتفاء بمد سكة الحديد عند الشلالات لأن النيل بين الشلالات صالح لسير المراكب فلا يفتقر الى سكة حديد . لكن اسماعيل باشا الخديوي فضل مد سكة حديد على النيل وبدأ بها سنة ١٨٧٧ م فأتم منها نحو ٥٠ ميلاً من حلفا جنوباً أنفق عليها ٤٥٠,٠٠٠ ليرة انكليزية ثم أوقف العمل في السنة عينها لعدم تيسر المال اللازم لاتمامه .

تحديد التخوم بين السودان والحبشة سنة ١٨٧٧ - ١٨٧٩ م : ان مسألة تحديد التخوم بين السودان والحبشة قد شغلت غوردون مدة ولايته كلها فان اول ما باشره من الاعمال عند توليه حكمدارية السودان انه ذهب الى مصوع لعقد وفاق مع ملك الحبشة بشأن الحدود لكنه وجد ود ميخائيل شاهراً العصيان على حدود الحبشة ولا يتأتى الفصل في مسألة التخوم إلا اذا كف عن العداء فأجّل النظر في ذلك الى فرصة اخرى وذهب الى دارفور للنظر في اخاد ثورة هارون كما مرّ ثم عاد الى سنهت فوجد ود ميخائيل لا يزال على العصيان فطلب الى الملك يوحنا ان يتحد معه على سحقه فلم يجبه الى ذلك فعاد الى الخرطوم ومصر ثم رجع بطريق البحر الاحمر الى هرر فوصلها في ابريل

سنة ١٨٧٧ م فوجد رؤوف باشا مشغولاً بالتجارة وقد كثر ظلمه فمزله .
وفي ٦ رجب سنة ١٢٩٦ هـ ٥ يونيو سنة ١٨٧٩ م أقبل اسماعيل باشا من
خديوية مصر وولي ابنه محمد توفيق باشا مكانه . فكان اول ما اهتم به تحديد
التخوم بين السودان والحبشة فبعث في طلب غوردون الى مصر للنظر في هذا
الشأن فحضر في اوغسطس سنة ١٨٧٩ م . وفي هذه الأثناء سلم ود ميخائيل
الى ملك الحبشة واتحد مع الرأس ألولاً لمهاجمة سنهت فعاد غوردون في الحال
الى مصوع لاصلاح ذات البين مع الحبشة وفي ١١ سبتمبر سار من مصوع قاصداً
ملك الحبشة فمرّ بالراس الولا في قرع واستطرد السير الى دبرتاور حيث كان
يقم الملك يوحنا فوصلها في ٢٧ اكتوبر سنة ١٨٧٩ م وفي اليوم التالي قابل
الملك وسأله عما يطلبه من مصر فقال مطالبي هي ان تردّ اليّ المتمة وسنهت
وتعطى لي زيلع وقسم من بلاد هرر وفوقها مليون جنيه او مصوع فسأله
غوردون ان يكتب مطالبيه هذه على ورق ويمهل الخديوي ستة أشهر للاجابة
عليها فلم يفعل . وبعد قليل من الايام أعطاه كتاباً مختوماً في يده وأذن له في
السفر فسار قاصداً الخرطوم بطريق القلابات ولكن قبل وصوله الى القلابات
ألقي القبض عليه وأرجعه الى دبرتاور ثم أذن له في السفر عن طريق مصوع
فوصلها في ٨ سبتمبر سنة ١٨٧٩ م بعد عناء شديد . وعلى أثر ذلك استقال من
حكمدارية السودان وعاد الى بلاده .

ثم أغلق على هذه المسألة بسبب الثورة المهديّة حتى عادت ففتحت بعد
الفتح الاخير في ولاية السر رجينلد ونجت باشا حاكم عموم السودان الحالي
فأبرم وفاقاً مع الملك منيلك ملك الحبشة الحالي بتاريخ ١٥ مايو سنة ١٩٠٢ م
حددت فيه التخوم بين السودان والحبشة فدخلت القلابات وفامكة والناصر
في حدود السودان .

٢٢ - رؤوف باشا سنة ١٢٩٦ : ١٢٩٩ هـ - ١٨٧٩ : ١٨٨٢ م

وخلف غوردون والياً على السودان رؤوف باشا المتقدم ذكره في الكلام

على خط الاستواء وهرر فصدر الامر العالي بتعيينه في ١٥ ربيع ثاني سنة ١٢٩٧ هـ ٢٧ مارس سنة ١٨٨٠ م وفيه الخطة التي أرادت الحكومة اتباعها في السودان وهذا هو بنصه :

« انه نظراً لثقتنا بما انتم متصفون به من الاهلية لأداء المأمورية المهمة المفوضة لأمانتكم والحالة هذه لا نرى لزوماً للاسهاب في شرح وتفصيل ما يجب اتخاذه واجراؤه من الوسائل والاعمال المؤدية لنجاح مأموريتكم التي نحن ناظرون اليها بعين الأهمية وهي تقدم وانتظام احوال مملكة واسعة مثل السودان وبذل ما يجب من المساعي للوصول الى توطيد اسباب عمارتها وتمدن ورفاهية أهاليها بتوسيع نطاق دائرتي التجارة والزراعة اللتين هما أعظم منابع الثروة العمومية انما نرى من اللزوم استجلاب دقة نظركم الى بعض مواد مهمة وهي الآتي ذكرها :

« أولاً - مالية السودان : وكما لا يخفى ان لفظة المالية تشمل كل ما يلزم ويمكن تقريره وتجعله من الاموال والعوائد بطريقتة لا يتأتى منها الاضرار بحالة الاهالي ولا الاجحاف بحقوق الخزينة وكذا تقدير ما يلزم من المصاريف بالنسبة لحالة البلاد واحتياجاتها بشرط ان تكون كافلة لحسن ادارة المصالح العمومية بصورة منتظمة وعلى هذا فأول واجب عليكم هو تنظيم ميزانية مستوفية عن كافة إيرادات ومصروفات الحكمدارية ببيان انواعها ومفرداتها بغاية الضبط والدقة وحصر ما يكون موجوداً من الديون بأنواعها وأسماء أربابها وكيفية الوصول الى سدادها . هذا ومن اللازم ان الحكومة تكون عالمة بكافة احوال السودان اجمالاً وتفصيلاً وبالمثل انواع الضرائب والعوائد وسائر الاموال المقررة والجاري تحصيلها وكيفية استعمالها وصرافها فينبغي ان ترسلوا صورة من هذه الميزانية الى نظارة المالية واستمرار ذلك سنوياً وان تقدموا الى النظارة المشار اليها في كل ثلاثة اشهر حساب إيرادات ومصروفات الحكمدارية بالبيان الكافي وذلك كما هو جارٍ بكافة مصالح الحكومة . وبما ان كافة ما يتعلق بالمواد المالية والحسابية مرجع الامر فيها الى نظارة المالية

فجمع ما يقتضيه الحال من الخبرات والاستثنائات في هذا الشأن يكون خاصاً بالنظارة المشار إليها .

« ثانياً – الإدارة الملكية : يلزم تنظيمها وإجرائها على صورة ثلاثم احوال تلك البلاد وما يختص بهذا القسم من الخبرات وما يتراءى لزوم تغييره وتبديله من المواد والنظامات ذات الأهمية وعزل وتنصيب ارباب المناصب الرفيعة مثل المديرين ووكيل الحكدار وما يتعلق بالإدارة الملكية والاحوال الداخلية مما من شأنه استحصال أوامرنا عن جميع ما ذكر من هذه الأنواع فينبغي ان تكون الخبرة عنه مع نظارة الداخلية . وأما ما يتعلق بالامور القضائية سواء كانت شرعية او نظامية تجرونه على قواعده المتبعة والحالة هذه انما ما يختص بهذا القسم من الخبرات او ما ترون لزوم اجرائه من الاصلاحات يجب اولاً الخبرة عنه مع نظارة الحقانية. ثم ان الرخصة التي كانت ممنوحة لأسلافكم بتنفيذ ما يصدر من الاحكام شرعية كانت او سياسية في المواد القضائية الحقوقية والجنائية قد أبقيناها لعهدتكم ايضاً ما عدا احكام القصاص الواجب استحصال أوامرنا عنها .

« ثالثاً – القسم العسكري : من المهم عند وصولكم الى مركز الحكدارية ان توجهوا أنظاركم والتفاتكم الى تنظيم واصلاح الحالة العسكرية حسباً يقتضيه احتياج تلك البلاد لتوطيد الامن والنظام العام لكافة أنحاء المملكة خصوصاً تقوية حدود الحبشة والمحافظة عليها في الحالة الراهنة مع ما يترتب عليه الامن والاطمئنان للوقاية من وقوع أدنى مهاجمة على هذه الحدود لأنكم عارفون جيداً بأفكارنا وأفكار أعضاء حكومتنا في هذه المسألة وهي اننا لا نقصد أي تجاوز كان على جيراننا ولا نريد أي فتوح جديد انما جل قصدنا المدافعة بغاية البسالة اذا وقع أدنى تعدّي على حدودنا . فهذه الأفكار هي التي تكون أس أعمالكم في ترتيب وتنظيم عسكرية السودان مع مراعاة اجراء القانون العسكري وكافة ما يتعلق بهذا القسم من الخبرات والاستثنائات هو خاص بنظارة الجهادية. هذا ومع بقاء حيازتكم الرخصة المعطاة لأسلافكم بتنفيذ احكام القانون

العسكري في الجنايات وسائر الاحوال حسب ما تصدر به مضابط المجالس العسكرية فان حكم العزل او تنزيل رتبة او ترقية الضابط جميع ذلك لا بد من العرض عنه لطرفنا بواسطة نظارة الجهادية .

« رابعاً - من المعلوم ان مسألة « منع تداول بيع الرقيق » هي في غاية الأهمية اولاً ان بيع الرقيق أمر مخالف للانسانية ومخل باحترام بني آدم المنصوص عليه بالتكريم . ثانياً من الواجب المتعين علينا ابقاء شرائط المعاهدة المعقودة بين حكومتنا الخديوية والحكومة الانكليزية في ابطال تجارة الرقيق . ولو ان ما نعلمه ونثق به من افكاركم في هذه المسألة وما انتم عازمون عليه من المساعي الحميدة لمحو آثار هذه التجارة الذميمة لا يستوجب تكرار التأكيد انما رأينا من الواجب علينا ايضاً اثبات ما نحن عليه من شدة العزم والثبات في هذه المسألة لتوفيقوا اعمالكم في ما تتخذونه من الوسائل المؤثرة والاحتياطات اللازمة لذلك لكي لا يسمع من الآن فصاعداً بحصول أمر مغاير من هذا القبيل في كافة البلاد والطرق المودعة تحت ادارتكم .

« هذا وحيث ان الاقطار السودانية بعيدة عن مراكز الحكومة الخديوية ومن الاقتضاء الوقوف على الوقوعات المهمة التي تحصل سواء كانت بالحدود او بخلافها فتبادروا بالاخبار عنها بوقت وقوعها الى طرفنا والى نظارة الداخلية بالتلغراف . وبناء عليه أصدرنا امرنا هذا لكم للمعلومية والاجراء على مقتضاه كما هو مطلوبنا » اه .

فباشر رؤوف باشا هذه الاعمال عند وصوله الى السودان بهمة ونشاط واهتم على الخصوص بتحديد النفقات وتحصيل الاموال .

وفي صيف سنة ١٨٨٠ ثار السومال فأرسلت الحكومة نجدة لمساعدة حاكم هرر فأطفأت الثورة . ولكن لم تنطفئ ثورة السومال حتى ظهرت الثورة العرابية في مصر .

وفي أثناءها ظهر في السودان رجل دنقلوبي الاصل يقال له « محمد احمد » ادعى انه المهدي المنتظر فصدق الناس دعواه وثاروا معه على الحكومة ورجالها

واستفحل امره سريعاً حتى انه لم تكف تخمد الثورة العربية في مصر حتى اصبح السودان كله شعلة ثورة تفاقم شرها وتعاضم خطرها وزهبت حاميات السودان كلها او اكثرها فريسة لها . وكان رؤوف باشا آخر الولاة الذين حكموا السودان قبل الثورة . وحكم بعده من الولاة في زمن الثورة :

٢٣ - عبد القادر باشا حلمي ١٢٩٩ : ١٣٠٠ هـ - ١٨٨٢ : ١٨٨٣ م

٢٤ - علاء الدين باشا ١٣٠٠ هـ - ١٨٨٣ م

٢٥ - غوردون باشا المرة الثانية ١٣٠١ : ١٣٠٢ هـ - ١٨٨٤ : ١٨٨٥ م

وفي أيامهم أي في ٢١ فبراير سنة ١٨٨٢ م صدر أمر عالٍ فجعلت ادارة عموم السودان وفيها مديرية شرقي السودان ومحافظة سواحل البحر الاحمر ومديرية هرر وزيلع وبربرة ونجرة حكمدارية واحدة . وشكلت نظارة جديدة بعنوان نظارة الأقاليم السودانية وملحقاتها مركزها مصر القاهرة .

ثم في ٢ ابريل سنة ١٨٨٢ صدر أمر عالٍ بتقسيم جهات السودان ٤ أقسام وهي :

١ - حكمدارية اقليم غرب السودان وتشمل مديريات دارفور وكردوفان وشكا وبجر الغزال ودنقلة ومركزها الفاشر .

٢ - وحكمدارية اقليم وسط السودان وتشمل مديريات الخرطوم وسنار وبربر وفاشودة وخط الاستواء ومركزها الخرطوم .

٣ - وحكمدارية اقليم شرق السودان وتشتمل مديرية التاكا وملحقاتها ومحافظتي سواكن ومصوع وملحقاتها الى باب المنذب .

٤ - حكمدارية عموم هرر وملحقاتها وفيها محافظتي زيلع وبربرة ومركزها هرر .

ثم في ٢٠ يناير سنة ١٨٨٣ م صدر أمر عالٍ فسمي علاء الدين باشا حكمداراً

لعموم السودان وملحقاتها وسمي راشد كمال باشا حكمدار عموم السودان الشرقي والبحر الاحمر . وأنشأت ادارة خاصة بأشغال السودان وملحقاته برئاسة مجلس النظار .

ولما اشتدت الثورة صدر امر عال بتاريخ ١٥ يناير سنة ١٨٨٤ م فألحقت ادارة عموم السودان وملحقاته الى نظارة الحربية وبقيت في نظارة الحربية الى نهاية الثورة .

وقبل الخوض في تفصيل هذه الثورة ووقائعها نذكر الاسباب التي حملت اهل السودان على تلقي دعوة زعيمها محمد احمد بالقبول والثورة معه على الحكومة ورجالها ثم تتبع ذلك ذكر سيرة محمد احمد والاسباب التي حملته على الظهور بدعوى المهديّة .



الباب السابع

في

تاريخ الثورة المهدية



الفصل الاول

في

أسباب الثورة المهديّة وأسباب نجاحها

اعلم انه عند قيام محمد احمد الدنقلاوي بدعوى المهديّة كان أهل السودان خاصتهم وعامتهم ناقلين من الحكومة واجدين عليها وهم يتوقعون باباً للفرج او فرصة لشق العصا . والاسباب التي أوصلتهم الى هذه الحالة كثيرة مرجعها كلها سوء الادارة وعدم اتقان السياسة اللائقة بأهل البلاد . وأهمّ تلك الاسباب :

١ - العنف : فقد رأيت ان السياسة التي اتخذها اسماعيل باشا فاتح سنار للتنكيل بالملك نمر عادت عليه وعلى اصحابه وآلت الى خروج الملك نمر عن طاعة الحكومة فلجأ الى الحبيشة واجتمع عليه كل متشرد وعاصٍ فكان شراً عظيماً على الحكومة هو وأولاده من بعده نحو خمسين سنة . ولما ظهر المهدي كانت بقية اولاده في بلاد القضارف فكانوا اول من نصروه ورفعوا رايته في السودان الشرقي . ثم ان الدفتردار الذي جاء من كردوفان للاقتصاص من الجانين في قتل اسماعيل باشا لم يقف عند حدّ بل عمّ غضبه المجرم والبهريء ونكّل بالجعليين تنكيلاً لم يروه ولا سمعوا به من قبل ولا سيما في شندي

والمتمة والغيلفون فانه قتل وسبى وأذلّ الاهلين وأوجعهم فوجدوا على الحكومة بسببه وقد أورثوا الوجد أبناءهم من بعدهم فحفظوه حتى قام المهدي فقاموا معه يطالبون بالتأثر . وقد رأيت الكثيرين ممن ثاروا على الحكومة فقالوا انما فعلنا ذلك لأسباب شتى اولها الأخذ بشار آبائنا من فظائع الدفتردار .

٢ - الضرائب : وتوالت الحكام بعد الدفتردار وضربت الضرائب على الاهلين ولم يكونوا متعودين عليها فاستثقلوها وزادها ثقلا انها لم تكن موزعة بالقسط بل كانت شديدة على الفقراء خفيفة على الأغنياء وقد كانت خفتها على الأغنياء بالنسبة الى مقدرتهم على رشوة المأمورين وقرهيم من الحكام حتى كان جانب كبير من أملاك الاغنياء والمأمورين معفياً من الضرائب . وفوق ذلك فقد ناطوا تحصيل الضرائب بجماعة الباشبوزق الشايقية والاكراد والمغاربة الذين فتحوا البلاد فاستعملوا منتهى القسوة والعنف في تحصيلها حتى كانوا اذا تأخر احدهم عن دفع ما عليه أعمأوا فيه السياط وأهانوه حتى يدفع الفلوس الاخير . وشرّ من ذلك كله مما لم يكن له مثيل في غير السودان ان هؤلاء المأمورين لم يكتفوا بالضرائب الرسمية بل كانوا يفرضون على الاهلين « فرضاً » غير رسمية يحصلونها مع الضرائب . وذلك ان اكثر الولاة الذين حكموا السودان كانوا يأتونه من مصر على غير ارادتهم لبُعد السودان عن بلادهم وكثرة حره ومشاقه فكانوا لا يهتمون في الغالب الا بالانتفاع من وظائفهم فيفرضون على المديرين اموالاً باسم الهدايا فيضطر المديرين الى استرجاعها من مأموري المراكز الذين تحت ادارتهم او من الباشبوزق المولجين بجمع الضرائب وهؤلاء يفرضونها على الاهالي اضعافاً لأجل وفاء ما فرض عليهم وحفظ شيء لأنفسهم . وكانوا يشددون على الاهلين في تحصيل هذا الفرض تشديدهم على تحصيل الضرائب وهم آمنون من القصاص للتواطىء المشار اليه مع الولاة والمديرين ولذلك اشتد نفور الاهالي من الحكام وتمكن الحقد والوجد في قلوبهم وصاروا يتمنون زوال هذه الحكومة التي سلطت عليهم من لم يرحمهم واستبدالها بأية حكومة كانت . يدل ذلك القول الذي جرى على ألسنتهم عند ظهور المهدي وهو « عشرة

في تربه ولا ريال في طلبه . ويدالك عليه ايضاً هجر الناس لأوطانهم
والتجاؤهم الى اطراف البلاد كالقلايات وبجر الغزال ودارفور كما مر . ومما جاء
في قصيدة الشيخ محمد شريف المشهورة التي نظمها في ذم المهدي بحرفه :
وما أبت السودان حكم حكومة الى ان أتى ضعف المطاليب من مصر
فكالثلث والثلثين للمير وحده وللشيخ والنظار اضعافه فادر
بضرب شديد ثم كتف مؤلم ومن بعده الالقاء في الشمس والحر
وأوتاد ذي الاوتاد من بعض فعلهم وأشنع من ذا كله عمل الهر
أي أنهم كانوا يجعلون في سراويل الرجل هراً ثم يشرعون في ضربه حتى
يمزق الهر جسمه . قال وقد رأيت ذلك في قسم الخرطوم نظارة احمد اغا
ابو زيد .

٣ - منع الرقيق : ثم الذي زاد الطين بلة والطنبور نعمة فكان منه معظم
الشر هو تشديد الحكومة في منع النخاسة والاسترقاق فان النخاسة كما علمت
مهنة قديمة في السودان يتعاطاها الجم الغفير من اهلها بل من اعظم اهلها جاهاً
ونفواً والاسترقاق وبيع الرقيق غير محرمين في شريعة اهلها فهم لا يرون
فيها شراً يجب ابطاله بل يرون الشركه في ابطالها خصوصاً لأن خدمة عرب
السودان في البيت وخارج البيت كلها منوطة بالرقيق ولم يكن للعرب إلا
السيادة والتجارة كما مر . وقد تعودوا هذه الحالة السنين الطوال وارتاحوا
اليها كل الارتياح حتى لم يعد من الممكن منعها دفعة واحدة ولكن
الحكومة أصرت على منعها بالقوة ولا سيما في عهد السر صموئيل باكر وفي
عهد الكولونيل غوردون فانها مع اعتقادها الشخصي بأن التشديد في منع
الرقيق هو في غير محله وقبل وقته اضطرراً عملاً بأوامر الحكومة ان يبالغا في
التشديد في منعه والتضييق على تجار الرقيق في جميع الأقطار السودانية ولا سيما
في بحر الغزال وخط الاستواء فنكلا بهم تنكيلاً شديداً وفرقا جموعهم وعاقبا
البعض بالقتل والبعض بالسجن والبعض بضبط الأموال . وحرر غوردون

كثيراً من الأرقاء من أيدي أسيادهم لا سيما بعد نشر المعاهدة التي عقدت بين اسماعيل باشا والدولة الانكليزية سنة ١٨٧٧ م بل لما رأى الأرقاء حرّيتهم في يدهم صاروا يتركون أسيادهم لأقلّ سبب أو بلا سبب . وكان الأهليون يدفعون قسماً من الضرائب عبيداً فأصبحوا بعد ابطال النخاسة لا يقدرّون على اداؤها فاستبد بهم الجباسة وساموهم خسفاً على خسف وذلاً على ذل . وعدّ الجهاال مداخلة باكر وغوردون وجسي وجيكلر وغيرهم من النصارى في منع الرقيق ان النصارى تتعرض لدينهم فعظم الخطب وعمت الشكوى .

٤ - المحاباة : قال المضيوي : « ومن الأمور التي ساءت الأهالي فزادتهم وجدأ على الحكومة تمييز الشايقية الذين جنّدتهم عساكر وحوالات وأعفتهم من الضرائب في حين انها ثقلت بها على سائر الاهالي مع ان الجميع من مقام واحد وما من قبيلة معروفة في السودان تعترف بامتياز الشايقية عليها ومما يدلّك على استياء الاهلين منهم قول الجعليين المشهور عند ظهور الثورة :

يا نعم العباسية ، القامت المهديّة والله ما في ريّة ، غنيمة الشايقية

« ومما ساء الاهالي ايضاً وعلى الخصوص رؤساء الطرق تمييز المرغنية على سائر الطرق في السودان حتى كثر أتباعهم وعظم جاههم وهذا وان لم يكن صريحاً من اصل الحكومة بمصر فهو مسبب عنها فان الحكام وأهل النفوذ من رؤساء الأقسام ليسوا من اهل السودان وعاداتهم في المأكل والمشرب والملبس والمعاملات تختلف عن عادات اهل السودان فمالوا الى مخالطة المرغنية للمساكلة اولاً ولانتساب المرغنية الى مكة المشرفة ثانياً وبسبب ذلك مال اليهم عساكر الشايقية عموماً لتقربهم من رجال الحكومة ودخلوا في سلوكهم حتى صار كل سر سوارى يهدي اليهم مرتبه ومرتب رجاله شهراً في كل سنة فازدادت بذلك صولة خلفاء المرغنية وصاروا يتطاولون على رؤساء الطرق الاخرى بالشم والاهانة فحقدوا عليهم وعلى الحكومة التي كانت سبب في تعظيم شأنهم اه .»

فهذه الاسباب كلها مع انتظار جمهور المسلمين للمهدي كما بيناه قبل هي

التي حملت الأهلين على نصره محمد احمد والثورة معه على الحكومة ورجالها وكان رؤساء الطرق وتجار الرقيق من اكبر انصارها وأشد أيديها ولم يبقَ في جانب الحكومة إلا الشايقية والمرغنية الذين وجهت الثورة ضدهم كما وجهت ضد الحكومة للأسباب التي قدمناها .

هذه هي أسباب الثورة وتعميمها وأما اسباب نجاحها فهي :

(١) استخفاف الحكومة بشأن محمد احمد في بادئ الرأي . مع ان الامر الذي قام به ذو بال وقد كان في كل العصور سبباً لاراقة دماء كثيرة وخراب بلدان شتى .

(٢) ثورة عرابي في مصر : فانه عند قيام محمد احمد في السودان قام ايضاً احمد عرابي في مصر فلم يتأتَّ للحكومة ان تتفرغ لأمر محمد احمد وتوجد السودان بالعساكر قبل انتهاء الثورة العرابية في مصر . ثم لم تنتهِ هذه الثورة حتى كانت الثورة المهديّة قد عمّت السودان كله واتسع الخرق على الراقع .

(٣) ضعف الحاميات العسكرية : فانه حين ظهور الثورة سنة ١٨٨١ م لم يكن في السودان كله مع اتساعه ووعورة مسالكه الا ٤٠٤٩٠ رجلاً موزعين على الحاميات كما يأتي :

١٩٥٠ في دنقلة	٨٠٠ في الجيرة	٣٤٧٠ في هرر
٢١٧٠ » بربر	٢٠٠ » القضارف	٥٨٣٠ » كردوفان
٧٤٧٠ » الخرطوم	٣٩٤٠ » كسلا	٤٨٦٣ » دارفور
٢٣٥٠ » سنار	٩٢٠ » اميديب	٨٨٦ » بحر الغزال
١٦١٠ » القلابات	١٩٠٠ » سنهيت	٢١٣١ » خط الاستواء
الجملة ٤٠٤٩٠		

وهذه الحاميات مع بعدها السحيق بعضها عن بعض لم تكن محصنة قبل الثورة ولما حصنت في أثناء الثورة كان في كل حصن منها غلطة دفاعية . ثم انه لم تكن حامياتها كلها من العساكر المنظمة بل كان بينهم كثير من الباشبوزق

وكلهم غير متمرنين على الحرب والقتال وقد تعودوا الترف والراحة في حين ان اهل السودان مطبوعون على الفروسية والشجاعة ومتعودون على الحرب والنزال وقد صدقوا المهدي وأحبوا الموت معه في سبيل الله .

(٤) تردّد الحكومة : فان الحكومة لم تتخذ سياسة ثابتة نافذة في اخماد الثورة بل أظهرت احيانا التردد والارتباك في مكان الحزم والعزم ففقدت جميع حامياتها واحدة واحدة وعادت الى حدودها بمصر كما سيجيء بالتفصيل .
هذا ما كان من أسباب الثورة ونجاحها فلنتقدم الآن الى ذكر سيرة محمد احمد والاسباب التي حملته على الظهور بدعوى المهدي . ثم نتبع ذلك ذكر حوادث الثورة .

الفصل الثاني

في

بدء سيرة محمد احمد

وذكر الاسباب التي حملته على الظهور بدعوى المهديّة

ولد محمد احمد هذا في جزيرة ضرار من اعمال دنقلة سنة ١٢٥٨ هـ ١٨٤٣ م او حواليها واسم أبيه عبد الله وأمه زينب . وهو ذرية رجل يسمى حاج شريف طال عمره جداً واشتهر بالصلاح والتقوى . وقبيلته من العرب المنتوبة وقد عرفت في دنقلة بصبر نُسِّي أي قبيلة صبر وهو جدّ له أبعد من جدّه حاج شريف وعرفت ايضاً بالاشراف لأنها تدعي النسبة الى جدّ أبعد من صبر يُقال له نجم الدين وهو جدّ الكنوز المدعي النسبة الى آل البيت . ولما ادّعى محمد احمد المهديّة علّس نسبه حتى أوصله الى الحسن السبط طبقاً لما تدوّن في الكتب من شرائط المهدي . وهذه هي سلسلة النسب التي ادّعاها لنفسه :

« محمد المهدي بن عبد الله بن فحل بن عبد الولي بن عبد الله بن محمد بن حاج شريف بن علي بن احمد بن علي بن حسب النبي بن صبر بن نصر بن عبد الكريم بن حسين بن عون الله بن نجم الدين بن عثمان بن موسى بن ابي العباس

ابن يونس بن عثمان بن يعقوب بن عبد القادر بن الحسن العسكري بن علوان بن
عبد الباقي بن صخرة بن يعقوب بن الحسن السبط بن الامام علي بن ابي
طالب ء اه .

وكان ابوه نجاراً ماهراً في بناء المراكب والسواقي وقد ضاق به العيش في
دنقلة فرحل بعائلته الى الخرطوم ومحمد احمد اذ ذاك طفل . وصار يتردد منها
الى كرري مشتغلاً بصناعته الى ان مات ودفن في كرري . وقد خلف بنتاً
تسمى نور الشام واربعة ذكور وهم : محمد ومحمد احمد الذي فيه كلامنا وحامد
وعبد الله الذي تركه حملاً في بطن أمه فولد بعد وفاته فسمي باسمه على عادة
اهل السودان من تسمية الولد الذي يكون بهذه المثابة باسم أبيه .

وقد تعلم اخوة محمد احمد صناعة والدهم واشتغلوا بها وأما هو فانه مال
بالفطرة الى الديانة والعلم كجده حاج شريف فدرس القرآن في مدرستي كرري
والخرطوم . ثم اشتغل بدرس العلوم الفقهية فأخذ عن الشيخ الامين الصويلخ
في مسجد ود عيسى بالجزيرة ثم عن الشيخ محمد الخير في الغبش تجاه بربر فأثقت
مبادئ النحو والتوحيد والفقه والتصوف واشتهر بين أقرانه منذ الصغر
بالتعبد والتقوى بل بالترفض والزهد حتى قيل انه كان يمتنع عن أكل زاد
استاذة محمد الخير لأنه كان يجري عليه من الحكومة لقوله انه مال الظلم فكان
اذا لم يأتيه الزاد من اهله اصطاد السمك من النيل وتقوّت به .

وبعد ان أتم دروسه على محمد الخير مالت نفسه الى التصوف فذهب الى
الشيخ محمد شريف حفيد الشيخ الطيب صاحب الطريقة السمانية وهو اذ ذاك
مقيم عند قبر جدّه في أم مرّحي وسأله الدخول في مصاف تلامذته وذلك في
سنة ١٢٧٧ هـ ١٨٦١ م فأجابه محمد شريف الى طلبه فأقام عنده منقطعاً الى
الصلاة والعبادة وما لبث ان أظهر من التقشف والزهد ما ميزه عن سائر
التلامذة حتى انه كان يشتغل في منزل سيده بما هو منوط بالعبيد والجوار من
احتطاب واستقاء وطحن وطبخ وهو غير مكلف الى شيء من ذلك وكان
كلما وقف للصلاة يبكي حتى يبلل الارض بدموعه واذا جلس امام شيخه

نكس رأسه ولم يرفع طرفه إليه إلا اذا كلفه فيرفع طرفه بأدب واحترام وأقام على ذلك سبع سنين . فلما رآه شيخه على هذه الحالة وأنه سالك طريق المريدين وناهج منهج الصالحين مال اليه وأحبه وجعله شيخاً وأعطاه راية وأذن له في الذهاب حيث شاء لاعطاء اليهود وتسليك الطريقة. فذهب الى الخرطوم وتزوج بابنة عمّ له وأقام مع اخوته يبت طريقته بغيرة وجدّ .

وفي سنة ١٢٨٦ هـ ١٨٧١ م رحل اخوته الى جزيرة أبا لكثرة أشجارها الصالحة للمراكب فرحل معهم وبني في الجزيرة جامعاً للصلاة وخلوة للتدريس فاجتمع عليه سكان تلك الجزيرة وهم دغيم وكنانة وغيرهم من عرب البادية وأخذوا العهد عنه ودخل بعضهم في تلمذته وفي جملتهم علي ود حلو الذي جعله بعد ادعائه المهدي خليفة الثاني . ولم يمض إلا القليل حتى اشتهر صيته وكثر أتباعه وكان استاذة محمد شريف قد انتقل الى القادربة قرب جبل أولى على النيل الابيض فكان يزوره في كل موسم وعيد لتقديم واجب الطاعة وقبل الدخول عليه يجعل الرماد على رأسه والشعبة في رقبته وفروة الضأن على صلبه تشبهاً بالعبد في حالة ذلك فكان محمد شريف يحملّ الشعبة من رقبته والفروة عن صلبه ويلبسه أفخر الثياب فيقيم عنده أياماً ثم يعود الى مركزه في جزيرة أبا . وفي بعض زياراته حدثه عن خيرات البلاد التي رحل اليها وسهولة العيش فيها وزيّن له الإقامة في العراذيب بين أبا والكوة فانتقل اليها سنة ١٢٨٨ هـ ١٨٧٢ م وكانت العراذيب على خصبها خالية من السكان والزراعة فعمرها وأقام فيها على صفاء تام مع محمد احمد برهة ثم لم يلبث ان تكدر هذا الصفاء فصار جفاء ثم نفوراً ثم عداء .

وسبب ذلك فيما رواه الشيخ محمد شريف ان محمد احمد لما كثرت أنصاره ومريدوه كبرت نفسه وسوّل له شيطان الغرور انه أعظم من في الارض وانه المهدي المنتظر قال محمد شريف فأسرّ اليّ بدعواه ورغب ان أكون له وزيراً ومستشاراً فيجعل الامر كله في يدي وذلك سنة ١٢٩٥ هـ ١٨٧٨ م فزجرته ونهيته مراراً ولما لم يلتبه عقدت معه مجلساً في أبا جمعت اليه القضاة والنظار

وبعض الاخيار كبعده الرحمن اللبيح ناظر اللحويين واحمد جفون ناظر الشانخاب ويوسف ابي جمعة ناظر الجزائر ومحمد حسن قاضي الجهة وغيرهم من أكابر أبا وأمرته بالرجوع عن ضلاله وأشهدت الله ورسوله والحاضرين اني ان رجعت شاطرته نصف ما ملكت يدي من مال وعقار فخرج من المجلس لمشاورة من معه من الأصحاب فلم يرجع . ومن ذلك الوقت نفيت من الطريقة وقلت لأصحابي ان يضربوه اذا جاءهم ونصحت لقائمة الكوة بوجوب القبض عليه وزجه في السجن خوفاً من تجسم الامر فلم يفعل وقال انه رجل صالح وصاحب الخضر فلا يمسه بسوء . وللشيخ محمد شريف قصيدة طويلة نظمها بايعاز عبد القادر باشا سنة ١٢٩٩ هـ ١٨٨٢ م في تكذيب دعوى المهدي جاء فيها بحرفه:

لقد جاءني في عام « زع » لموضع
 يروم الصراط المستقيم على يدي
 فقام على نهج الهداية مخلصاً
 وأفرغ في نهج المحامد جهده
 أقام لدينا خادماً كل خدمة
 كطحن وعوس واحتطاب وغيره
 وكم صام كم صلى وكم قام كم تلا
 وكم بضوء الليل كبر للضحى
 لذلك سقي من منهل القوم شربة
 وكان لدينا عيشه صدقاتنا
 الى الخمس والتسعين أدركه القضا
 بصحبة شيطان من الجن ايس
 ولا تنس داعي الاحتياج فثالث
 فقال أنا المهدي فقلت له استقم
 وخادعني بالقول كالمهدي ابنكم
 فقم بي لنصر الدين نقتل من عصا
 على جبل السلطان في شاطئ البحر
 فبايعته عهداً على النهي والأمر
 وقد لازم الاذكار في السر والظهر
 فرقيته جهلاً بعاقبة الأمر
 تعزاً على اهل التواضع في السير
 ويعطي عطا من لا يخاف من الفقر
 من الله لا زالت مدامعه تجري
 وكم ختم القرآن في سنة الوتر
 بها كان محبوباً لدى الناس في البر
 وخادمنا عشرين عاماً من العمر
 على ما مضى في سابق العلم بالشر
 وشيطان انس وافقاه على الضر
 وكم ساقط في الشر من ألم الفقر
 فهذا مقام في الطريق لمن يدري
 ومحسوبكم في الحب في عالم الدر
 فأنت لك الكرسي ولي دول الغير

فقلت له دع ما نويت فانه
وقال له الشيطان بشر ولا تحف
وقد فهم القولين فهم أولى النهى
فقال أنا كالماء في الطبع بارد
وان يستخفوا بي وان يقتلونني
ومن ذلك النادي أبى وأبيته
واني أذنت الجيش ان يضربوه ان
وقد جاء للعلثوب في سفهائه
وكان من الاسرى لديهم بناقة
وكنت نصحت القيمقام بحبسه
وتالله شر قد يجر الى الخسر
فانك منصور على البر والبحر
ومال الى حب الرياسة والجبر
واما يُسخن كان كالنار في الحر
فقبلي علي والحسين ولي أمري
وأفتيت فيه بالضلال والكفر
أثم بما يهواه من واضح النكر
وقد رده الاتباع بالجبر والقهر
ورايته والجيش قد صار في البحر
فما جاءني من غير دَع صاحب الخضر

هذا الذي قاله الشيخ محمد شريف في سبب العدا بينه وبين محمد احمد وقد
أكده لي شفاهاً بعد فتح ام درمان سنة ١٨٩٨ م . ولكن أنصار محمد احمد
ينكرون هذا القول ويقولون ان اصل العدا هو انصراف الناس عن محمد
شريف وميلهم الى محمد احمد بالعقيدة والاتباع . وقالوا في تفصيل ذلك ان
محمد شريف عند انتقاله الى العراذيب رأى من عربان تلك الجهات إقبالاً على
محمد احمد لم ير مثله عليه فساءه ذلك جداً واخذ يعمل على الخفض من سطوة
محمد احمد فأقام له الشيخ رضوان احد خلفائه نداءً في قوز العلوب غربي أبا
وحت العربان على اتباعه فأنكر محمد احمد على شيخه هذا التحامل والجفاء
ووقع النفور بينه وبين الشيخ رضوان وسرى ذلك الى تلامذتها فصار كل فريق
يندد بالآخر ويحقد عليه وما زالت اسباب النفور تتزايد حتى اتصل الفريقان
الى الضرب والملاكمة وتغلب فريق الشيخ رضوان فهشموا جسم محمد احمد
وكسروا يد علي ود حلوا فرفع محمد احمد الامر الى ناظر الكوة وكان فيها اذ
ذاك رحمة الدويهي فأحضر تلامذة الشيخ رضوان وزجهم في السجن فلما درى
محمد شريف بما كان أتى بالشيخ رضوان الى أبا وحمل محمد احمد على مصالحته
وتوسط عند ناظر الكوة فأخرج تلامذة الشيخ رضوان من السجن .

ومن ذلك الحين حقد محمد احمد على استاذة وذهب حبه واحترامه من قلبه فانكشفت له عيوبه وكان محمد شريف يقبل النساء في مجلسه ويسمح لهن بتقبيل يده فأخذ محمد احمد يندد عليه بذلك ويحاهر بأنه يخالف للشرع والاسلام واحتفل الشيخ محمد شريف بختان بعض اولاده فدعا جمعاً غفيراً من تلامذته وأذن لهم في الرقص والغناء وكان محمد احمد حاضراً فنهى اصحابه عن ذلك وقال ان الشريعة تمنع الرقص والغناء فليس في وسع احد ان يجيزها ولو انه شيخ الطريقة وبلغ ذلك محمد شريف وكان قد بلغه تنديده عليه لقبوله النساء في مجلسه فاتخذ تطاوله هذا ذريعة لشفاء غليله منه فاستحضره ووبخه توبيخاً شديداً ومحا اسمه من الطريقة وقال له اذهب فقد صدق فيك المثل القائل « الدنقلوي شيطان مجلد يجلد انسان » .

وكان محمد احمد يحب الطريقة السمانية وأصولها وكان له خلفاء وتلامذة يلقنون اورادها ويقرأون روايتها فلم يكن أمر تركها واتباع غيرها من السهل عليه فتدلل لأستاذة وطلب العفو منه مراراً فلم يعف عنه .

وكان في الحلاويين بين المسامية والكاملين على النيل الازرق شيخ من مشايخ هذه الطريقة يُدعى الشيخ القرشي وقد أخذ الطريقة رأساً عن مؤسسها الشيخ الطيب وكان بينه وبين محمد شريف مناظرة شديدة فلما رأى محمد احمد من استاذة هذا الاباء التجأ الى الشيخ القرشي وجدد عليه عهده ومشيخته فكتب محمد شريف الى الشيخ القرشي يعاتبه على قبوله محمد احمد فكتب اليه في الجواب « اني رأيت محمد احمد مستحقاً ومنع المستحق ظلم » . وأذاع محمد احمد انه انفصل عن شيخه لأنه خالف الشريعة والسنة وكان قد حفر غاراً تحت الارض وسكن فيه فاشتهر صيته في السودان بالتقشف والزهد والغيرة الدينية وأخذ الناس يفتدون اليه من الجهات الاربع وكان المسافرون في النيل يقفون بالمراكب والوابورات فيقدمون اليه الهدايا ويطلبون البركة فيباركهم ويوزع الهدايا على الفقراء زهداً وعفافاً .

وبقي الى ان توفي الشيخ القرشي أواخر سنة ١٢٩٧ هـ ١٨٨٠ م فخرج هو

وتلامذته الى الحلاويين وشرع في بناء قبة فوق قبره . وكان الشيخ القرشي يحب محمد احمد ويثني عليه أمام أتباعه فاتخذوه بعد وفاة شيخهم شيخاً لهم وأشاعوا بأن وارث السلسلة الطيبية هو الشيخ القرشي فأورثها محمد احمد عند وفاته . ووافقهم على ذلك جلّ ذرية الشيخ الطيب لسابق كراهة بينهم وبين محمد شريف فقويت شوكة محمد احمد وكثر أنصاره وقد بالغوا في محبته وتعظيمه حتى قالوا ان في كتب طريقتهم نصاً ان المهدي يكون منهم وان الشيخ القرشي قبل وفاته أو ما بها الى محمد احمد فشكّلوا هذه المفسدة في نفوسهم وصاروا يلوحون بها في أشعارهم .

هذا وكان من عادة محمد احمد ان يخرج سائحاً مع بعض أصحابه لانذار الناس بطريقته ودعوتهم الى الله ثم يعود الى محل اقامته في جزيرة أبا . وقد جال في جميع البلاد من دنقلة الى سنار شمالاً وجنوباً ومن النيل الازرق الى كردوفان شرقاً وغرباً ورأى بعينه وجد الناس خاصتهم وعامتهم على الحكومة وشدة رغبتهم في التخلص منها حتى كان الكثير منهم يتمنون ظهور المهدي الموعود به لينقذهم من هذه الحال بل كانوا كلما رأوا رجلاً يفضلهم عقلاً ودراية وله الغيرة على الدين وأهله ظنوه المهدي .

فلما رأى محمد احمد لهج القوم بأنه المهدي المنتظر وفكّر في الاستعداد الذي عليه الأهلون لقبول المهدي ثم في الحالة التي صار اليها الاسلام في السودان على ما مثله له استاذه محمد شريف وغيره من رجال الدين وكانت نفسه مفطورة على التشيع للدين والغيرة على الاسلام والمسلمين كما مرّ اندفع بحكم الضرورة والطبع الى الاخذ بلهج القوم والقيام بدعوى المهدي وعقد النية على ذلك .

وبينا هو في هذه الحال اذ وفد عليه عبد الله التعايشي المتقدم ذكره في تاريخ الزبير . قيل انه لما رآه وقع مغشياً عليه ولم يقف من غشيته إلا بعد ساعة او اكثر ولما أفاق عاد فنظر الى محمد احمد وتقدم لمصافحته فأغمي عليه مرة ثانية ثم أفاق وتقدم الى محمد احمد حبواً على الارض فأخذ يده وشرع

يقبلها وهو يرتعد ويبكي فقال له محمد احمد من انت يا رجل وما شأنك قال يا سيدي انا عبد الله بن محمد تورشين من قبيلة التعايشة البقارة وقد سمعت بصلاحك الى دار الغرب فجئت لأخذ الطريقة عنك . وكان لي اب صالح من أهل الكشف وقد قال لي قبل وفاته انك ستقابل المهدي وتكون وزيره وقد أخبرني بعلامات المهدي وصفاته فلما وقع نظري عليك رأيت فيك العلامات التي أخبرني بها والذي بعينها فابتهج قلبي لرؤية مهدي الله وخليفة رسوله ومن شدة الفرح الذي شملني أصابني الذي رأيت . فاستبشر محمد احمد بهذا القول ورقص له قلبه لأنه يرمي الى غرضه وبإيع التعايشي وقربه وجدّ في بناء القبة فأتمها بشهر وعاد بتلامذته ومعهم عبد الله التعايشي الى جزيرة أبا .

ومن ثمّ أخذ يفتش الكتب ويبحث عن كنه المهدي وصفاته وعلاماته وما تكون به نصرته ويطبق عليها صفاته . ولما استوفى غرضه شرع في اظهار دعواه فقام بها في بادىء الرأي سراً . وكان أوّل ما أسرّها الى عبد الله التعايشي ثم الى تلامذته الاخصاء ومحبيه الأمثل فالأمثل وذلك في ربيع الثاني سنة ١٢٩٨ هـ مارس ١٨٨١ م .

ثم خرج بهم سائحاً الى دار الغرب وقد لبسوا كلهم لباس الدراويش المعتاد وهو الجبة المرقعة والسبحة والعكاز وابريق الفخار فمرّ باخوة عبد الله في دار الجمع وبايعهم وذهب الى الابيض فأسرّ دعواه الى أخصّ مشايخها وأعيانها قائلاً ان الله اصطفاه ليظهر البلاد من الظلم والفساد ولكنه قال ان وقت ظهوره لم يحن بعد . ثم قفل راجعاً الى جزيرة أبا ومرّ في طريقه بجبال تقلي والنوبة فأسرّ دعواه الى الملك آدم ود دباله ملك تقلي . وقد صرّح عبد الله التعايشي بجلسته في المحراب بعد توليته الخلافة انه لم يكن قصد محمد احمد من هذه السياحة استطلاع رأي الناس في دعواه فقط بل كان القصد منها ايضاً كشف البلاد التي تصلح للهيجان وشن الغارة بعد اشهار دعواه ويظهر انه من ذلك الحين اختار جبل قدير مركزاً لهجرته وقد صرّح به في كتبه فيما بعد . ولما عاد الى أبا شرع في دعوة الناس اليه سراً في الكتب وذلك في غرة

شعبان سنة ١٢٩٨ هـ ٢٩ يونيو سنة ١٨٨١ م فبدأ بمخاطبة اصحابه الأخصاء من الفقهاء والاعيان ومشايخ الطرق والقبائل فصرّح لهم بدعواه وحشهم على القيام معه لنصرة الدين والهجرة من أماكنهم للانضمام اليه ومبايعته على الجهاد في سبيل الله قائلاً : انه قد رأى النبي ﷺ بعيني رأسه يقظة ! فأجلسه على كرسيه وقلده سيفه وغسل قلبه بيده وملاه ايماناً وحكماً ومعارف منيعة وأخبره بأنه الخليفة الاكبر والمهدي المنتظر وان من شك في مهديته فقد كفر ومن حاربه نُخذل في الدارين . وما زال النبي ﷺ يظهر له مع الخضر والملاك جبرائيل فيوحي اليه الى يوم وفاته .

وقال في بعض كتبه : « اني لا أعلم بهذا الامر حتى هجم عليّ من الله ورسوله من غير استحقاق فأمره مطاع وهو يفعل ما يشاء ويختار... » وقد أمرني سيد الوجود ﷺ بمكاتبة المسلمين ودعوتهم الى الهجرة معنا الى محل يكون فيه قوام الدين واصلاح امر الدارين » ... « فلازم تحضروا معنا في رمضان ولا تتخلفوا فيحل بكم الحسran في الدارين » ... وهذه صورة بعض كتبه التي نشرها في أوائل دعوته :

« بسم الله الرحمن الرحيم الحمد لله الولي الكريم والصلاة على سيدنا محمد وآله مع التسليم .

« وبعد فمن العبد المفتقر الى الله محمد المهدي بن عبد الله الى أحبائه في الله المؤمنين بالله وبكتابه . اما بعد فلا يخفى تغير الزمن وترك السنن ولا يرضى بذلك ذوو الايمان والفطن بل أحق ان يترك لذلك الاوطار والوطن لإقامة الدين والسنن ولا يتوانى عن ذلك عاقل لأن غيرة الاسلام للمؤمن تجبره . ثم أحبائي كما أراد الله في أزله وقضائه تفضل على عبده الحقير الدليل بالخلافة الكبرى من الله ورسوله . وأخبرني سيد الوجود ﷺ بأني المهدي المنتظر وخلفني عليه الصلاة والسلام بالجلوس على كرسيه مراراً بحضرة الخلفاء الاربعة والاقطاب والخضر عليه السلام وأيدني الله تعالى بالملائكة المقربين وبالأولياء الأحياء والميتين من لدن آدم الى زماننا هذا وكذلك المؤمنون من الجن وفي

ساعة الحرب يحضر معهم امام جيشي سيد الوجود ﷺ بذاته الكريمة وكذلك الخلفاء الاربعة والاقطاب والخضر عليه السلام وأعطاني سيف النصر من حضرته ﷺ وأعلمت انه لا ينصر عليّ معه احد ولو كان الثقيلين الانس والجن . ثم أخبرني سيد الوجود ﷺ بأن الله جعل لك على المهديّة علامة وهي الخال على خدي الأيمن . وكذلك جعل لي علامة اخرى تخرج راية من نور وتكون معي في حالة الحرب يحملها عزرائيل عليه السلام فيثبت الله بها اصحابي وينزل الرعب في قلوب أعدائي فلا يلقاني احد بعداوة الا خذله الله . ثم قال لي ﷺ انك مخلوق من نور عنان قلبي فمن له سعادة صدق بأني المهدي المنتظر ولكن الله جعل في قلوب الذين يحبون الجاه النفاق فلا يصدقون حرصاً على جاههم قال ﷺ : حب المال والجاه ينبتان النفاق في القلب كما ينبت الماء البقل . وجاء في الاثر : اذا رأيت العالم يحب الدنيا فاتهموه على دينكم . وجاء في بعض كتبه القديمة : لا تسأل عني عالماً أسكره حب الدنيا فيصدك عن طريق محبي فأولئك قطاع الطريق على عبادي . ولما حصل لي يا أحبائي من الله ورسوله أمر الخلافة الكبرى أمرني سيد الوجود ﷺ بالهجرة الى ماسة يجبل قدير وأمرني ان أكتب بها جميع المكلفين امرأ عاماً فكاتبتنا بذلك الأمراء ومشايخ الدين فأنكر الاشقياء وصدق الصديقون الذين لا يبالون في ما لقوه في الله من المكروه وما فاتهم من المحبوب المشتى بل هم ناظرون الى وعده سبحانه وتعالى بقوله : تلك الدار الآخرة نجعلها للذين لا يريدون علواً في الارض ولا فساداً والعاقبة للمتقين . وحيث ان الامر لله والمهديّة أرادها الله لعبده الفقير الحقير الذليل محمد المهدي بن عبد الله فيجب بذلك التصديق لإرادة الله وقد اجتمع السلف والخلف في تفويض العلم لله فعلمه سبحانه لا يتقيد بضبط القوانين ولا بعلوم المتفنين بل يمحى الله ما يشاء ويثبت وعنده أم الكتاب . قال تعالى : ولا يحيطون بشيء من علمه إلا بما شاء وعنده مفاتيح الغيب لا يعلمها إلا هو ولا يُسأل عما يفعل ويخلق ما يشاء ويختار يختص برحمته من يشاء والله ذو الفضل العظيم . وقد قال الشيخ محيي الدين بن العربي في تفسيره

على القرآن العظيم : علم المهدي كعلم الساعة والساعة لا يعلم وقت مجيئها على الحقيقة الا الله . وقال الشيخ احمد بن ادريس : كذبت في المهدي اربعة عشر نسخة من نسخ اهل الله ثم قال : يخرج من جهة لا يعرفونها وعلى حال ينكرونه . وهذا لا يخفى علمكم ان التأليفات الواردة في المهدي منها الآثار وكشف الأولياء وغير ذلك فيختلف كل منها كما علمت من انه يحو الله ما يشاء .. الآية .. ومنها الاحاديث فمنها الضعيف والمقطوع والمنسوخ والموضوع بل الحديث الضعيف ينسخه الصحيح والصحيح ينسخ بعضه بعضاً كما ان الآيات تنسخها الآيات وحقيقة ذلك على ما هي عليه لا يعرفها الا اهل المشاهدة والبصائر . هذا وقد أخبرني سيد الوجود ﷺ بأن من شك في مهديتك فقد كفر بالله ورسوله كررها ﷺ ثلاث مرات وجميع ما أخبرتكم به من خلافتي على المهدي الخ ... فقد أخبرني به سيد الوجود ﷺ يقظة في حال الصحة وأنا خالي من الموانع الشرعية لا بنوم ولا جذب ولا سكر ولا جنون بل متصف بصفات العقل أقفوا اثر رسول الله ﷺ بالامر فيما أمر به والنهي عما نهى عنه . والهجرة المذكورة بالدين واجبة كتاباً وسنة . قال تعالى : يا ايها الذين آمنوا استجيبوا لله وللرسول اذا دعاكم لما يحبيكم . وقال ﷺ : من فرّ بدينه من ارض الى ارض وإن كان شبراً من الارض استوجب الجنة وكان رفيق ابيه خليل الله ابراهيم ونبيه محمد عليها الصلاة والسلام والى غير ذلك من الآيات والاحاديث وإجابة داعي الله واجبة . قال تعالى : واتبع سبيل من أناب إليّ . فاذا فهمتم ذلك فقد أمرنا جميع المكلفين بالهجرة الينا لأجل الجهاد في سبيل الله او الى أقرب بلاد منكم لقوله تعالى : قاتلوا الذين يلونكم من الكفار فمن تخلف عن ذلك دخل في وعيد قوله تعالى : قل إن كان آباؤكم وأبناؤكم الخ ... وقوله تعالى : « يا ايها الذين آمنوا ما لكم اذا قيل لكم انفروا في سبيل الله اثناقلم الى الارض أرضيتم بالحياة الدنيا من الآخرة » الخ ... الآيتين . فاذا فهمتم ذلك فهموا للجهاد في سبيله ولا تخافوا من احد غير الله لأن خوف المخلوق من غير الله يعدم الايمان بالله والعباد بالله من ذلك

قال تعالى : فلا تخشوا الناس واخشوني وقال تعالى : والله أحق ان تخشوه لا سياً وقد وعد الله في كتابه العزيز بنصر من ينصر دينه قال تعالى : إن تنصروا الله ينصركم ويثبت أقدامكم وقال تعالى : ألا تنصروه فقد نصره الله وحيث إن لم تجيبوا داعي الله وتبادروا لإقامة دين الله تلتزمكم العقوبة عند الله تعالى لأنكم أدلة الخلق وأزمته فمن كان مهتماً بإيمانه شقيقاً بدينه حريصاً على امر ربه أجاب الدعوة واجتمع مع من ينصر دينه . وليكن معلومكم اني بن نسل رسول الله ﷺ فأبي حسني من جهة أبيه وأمه وأمي كذلك من جهة أمها وأبوها عباسي والعلم لله ان لي نسبة الى الحسين . وهذه المعاني الحسان تكفي لمن أدركه الله بالايان فلا عبرة لمن يراها ولم يصدق بها هذا والسلام اه .

« بسم الله الرحمن الرحيم الحمد لله الوالي الكريم والصلاة على سيدنا محمد وآله مع التسليم .

« وبعد جزيل السلام الى عزيز المقام حبيبنا ذي الاكرام الاستاذ خليفة جدنا الشيخ محمد الطيب البصير وقاه الله من كل التكدير . لا يخفى عزيز علمكم ان من كان لله وخرج من حظه وهاجر الى الله لا يخشى من شيء ولا يخاف من احد فانه منصور مضمون رزقه وموقى من شرور الخلائق بالوعد الصادق الذي لا يشك فيه إلا منافق وحيث انك النائب عنا وكنفسنا في جميع الامور ولازم تشجع الأهل الى الهجرة الينا وجميع من لم يصلنا فليبايعك وقد جعلت مبايعتك مبايعتي وانت الامين على حقوق الله تعالى ولازم تزهّد المحبين عن الاوطان والأموال فان الدنيا غرور وما للعبد إلا الأعمال الموافقة للكتاب والسنة ومن لم يجتهد على ذلك بشق الأنفس في هذه الأيام القريبة الزوال خسر الدارين ولا تنفعه الأوطان والأموال بل تبقى عليه الحسرة والندامة . ومن البشائر التي حصلت لنا بعدك انه حصلت لنا حضرة نبوية حاضر عليها محبنا الفقيه عيسى فيأتي ﷺ ويجلس معي ويقول للاخ المذكور شيخك هو المهدي فيقول اني مؤمن بذلك فيقول ﷺ من لم يصدق بمهديته كفر بالله ورسوله

قالها ثلاث مرات ثم يقول له الاخ المذكور يا سيدي يا رسول الله الناس من العلماء يستهزئون بنا والحشية ايضاً من الترك فيقول ﷺ والله والله والله ان قوتي تقينكم ان أشرتم بأدنى قشة تنقضي حاجتكم . ثم يقول الشيخ عبد الله يا سيدي الشيخ الطيب نحن مصدقون بمهدية شيخنا والناس ليسوا مصدقين فيقول الشيخ الطيب ان شيخك حين ولادته عرفته اهل الباطن والحقيقة اذنه المهدي فلما أتم اربعين يوماً عرفته الجمادات والنباتات بأنه المهدي ثم يقول الشيخ الطيب الطريقة فيها الذل والانكسار وقلة الطعام وقلة الشراب والصبر وزيارة السادات فتلك ستة والمهدية فيها ايضاً ستة الحرب والحزم والعزم والتوكل والاعتماد على الله تعالى واتفاق القول فهذه الاثنتا عشرة لم تجتمع لأحد إلا لك ويقول عظم قومك ولا تكن فيهم ثلاث خصال الحسد والكذب وترك الصلاة ومن كان متصفاً بواحدة من هذه الثلاث اتصف بالآخرين . ثم يقول وحين قدومك الى «قدير» ليكن النساء متسترات ولا يتكشفن كالبقارة وحين تكون بين كردوفان وتقلي عظم القوم بأجمعهم فمن كان سائراً الى الله بلا علة فليمش معكم ومن كان سائراً لعله لا يمش معكم ولازم ان تصلوا الى الملك آدم بهيئة حسنة مع ترتيب الاذكار فلما تصلوا «قدير» لازم تنفي عن قومك الصفات الثلاث ولا يدخل معكم من كان فيه احد اليهن . ثم يأتي الشيخ التوم ويقرأ عليّ السلام بالمهدية ويقول اجتهد على قومك ان يكون الكبير أباً والصغير ولدأ والمساوي أخاً وفي رمضان ادخل خلوة الاربعين فتبين فيها دسائس وغوامض . ثم يأتي جسدنا الشيخ البصير ويقرأ عليّ السلام بالمهدية ويتكلم بكلام المفهوم منه انه قال اشد الحزام على سنة النبي العدنان . ثم يأتي الشيخ القرشي فيقرأ عليّ السلام بالمهدية ويتكلم بكلام مفهوم منه انه يقول كن ذا كراً ولمن معك سائراً فيقول الشيخ عبد الله يا سيدي الناس منكرون في مهديّة شيخنا فيقول ان النبي ﷺ أعلمني قبل مماتي ان شيخك هو المهدي بذاته وكان أعلمني الشيخ الطيب قبل مماته وقال انك تدرك المهدي وتلاقيه وهو شيخك بعينه . ثم يأتي النبي ﷺ ومعه الشيخ عبد القادر الجيلاني

لابس جبة وعليها سيور فيقول الشيخ عبد الله يا سيدي يا رسول الله الناس منكرون بالجبة ويتعففون عنها أهي سنة واردة ام لا فيقول ﷺ في الانسان نفسه رقع فرأسه رقع زرقاء وباطن شفتيه رقع حمراء وأسنانه رقع بيضاء وأظفاره رقع صفراء ويقول ﷺ الرقع اربعة بيضاء وحمراء وزرقاء وصفراء ويقول ﷺ لولا اني خشيت عليك ان يكون مغشياً عليك لأريتك جيب الخلفاء الاربعة ويأمر ﷺ عزرائيل عليه السلام ويقول من هذه الليلة اصحب المهدي لا تفارقه ويقول ﷺ للخضر عليه السلام من هذه الليلة اصحب المهدي وكن في قومه وهذه الليلة المذكورة التي حصلت فيها هذه الحضرة المباركة غرة شعبان ليلة الاربعاء ثم تلى لنا جميع الاحوال الى دخول مكة ومنازعة أهلها ومبايعة الضعفاء والقربا اولاً ثم مبايعة الشريف ملك مكة وجميع أشرافها معه الى هذا كفاية والسلام غرة شعبان سنة ١٢٩٨ هـ ٢٩ يونيو سنة ١٨٨١ م اه .

وتاريخ هذا الكتاب هو تاريخ اشهار دعواه في الكتب وعمره اذ ذاك دون الاربعين سنة . وكان يدعى اولاً بمحمد احمد بتركيب الاسمين ثم قال أمرني سيد الوجود ﷺ بالاختصار على الجزء الاول أعني محمداً وتغيير اسمي بمحمد المهدي فانه ﷺ قال في بعض حضراته اني كنت أسمى محمداً فلما بلغت الرسالة والنبوة سميت رسول الله وني الله كذلك انت كنت تسمى محمد احمد فلما حصلت لك المهديية يقال لك المهدي وسنطلق هذا الاسم بعد الآن . وقد كان له خواتم يختم بها كتبه ومنشوراته وآخرها خاتم منقوش فيه ثلاثة أسطر بهيئة مربع هكذا : لا إله إلا الله سطر . محمد رسول الله سطر . محمد المهدي ابن عبد الله سطر سنة ١٢٩٢ هـ .

الفصل الثالث

في

وقائع المهدي في جزيرة أبا

دعوة المهدي الى الخرطوم : هذا وكان محمد شريف قد أبلغ رؤوف باشا حكمدار السودان بالذي عليه محمد احمد وحدثه من عاقبة الامل ولكن رؤوف باشا حمل ذلك على ما بينها من العداء فلم يهتم للامر حتى اشتهر امر المنشورات ووقع بعضها في يده فكتب الى محمد احمد يسأله عما نسب اليه من توزيع تلك المنشورات وقد انتحل له عذراً بقوله : لعل بعض العداء كتب هذه المنشورات ونسبها اليكم فأجابه محمد احمد ان هذه المنشورات هي منه لا من غيره وانه هو المهدي المنتظر وهذه صورة الكتاب بحرفه :

« بسم الله الرحمن الرحيم الحمد لله الوالي الكريم والصلاة على سيدنا محمد وآله مع التسليم .

« وبعد فمن عبد ربه محمد المهدي ابن السيد عبد الله الى الحكمدار (بالخرطوم) .

« وبعد فعلى مقتضى المكاتبة فالامر المطلوب كشفه ان دعائي الخلق على تقويم السنة والهجرة بالدين مما عليه الطباع الزمنية أمر من سيد الوجود ﷺ

والاعلام بأبي المهدي المنتظر من سيد الوجود ﷺ مراراً عديدة مع الهواتف الإلهية وعلامات أخبر بها سيد الوجود ﷺ فمن تبع صار من المقربين الفائزين ومن خالف خذله الله في الدارين وصدّه بقوته التي يعجز عن معارضتها جميع العالمين وأما المواعظ للمؤمنين فهي مبينة فمن لم يصدق طهره السيف وليكن المعلوم انه أتاني من الحضرتين النبوة وحضرة الاقطاب سيف وأعلمت انه لا ينصر عليّ معه احد ومن أتانا بالعداوة يأخذه الله إما بالحسف او بالغرق وذلك إعلام منه ﷺ وكل ذلك لم أعمل فيه بشيء من نفسي ولا لغرضي وإنما هو من الله والى الله ومعلوم قوله تعالى : إن تنصروا الله ينصركم . . الآية . وقوله ﷺ : احفظ الله يحفظك احفظ الله تجده تجاهك والى غير ذلك من الأدلة الظاهرية والباطنية وفي ما ذكرته كفاية يكتفي بها اهل العناية والسلام سنة ١٢٩٨ هـ ٤٥٠ هـ .

فجمع رؤوف باشا العلماء وأطلعهم على كتاب محمد احمد ومنشوراته وسألهم رأيهم فيها فالتمس له بعضهم عذراً في انه قد حصل له جذب سماوي من انعكافه على الزهد والعبادة ولكنهم حكوا جميعاً بوجود القبض عليه وتلافي الامر قبل اتساع الخرق . فندب رؤوف باشا لهذا الامر احد معاونيه محمد بك ابا السعود (المتقدم ذكره في فتح الاستواء) وكان اذ ذلك من معاوني الحكمدارية فسار على باخرة الى أبا فوصلها يوم الاحد ١١ رمضان سنة ١٢٩٨ هـ ٧٥ اوغسطس سنة ١٨٨١ م فوجد محمد احمد في الغار جالساً وحوله جمهور من تلامذته فسلم عليه وقال ان حكمدار السودان بلغه أمر الدعوى التي قمت بها وأرسلني لآتي بك اليه بمدينة الخرطوم وهو وليّ الامر الذي تجب طاعته . فأجابه محمد احمد : أما ما طلبته من الوصول معك الى الخرطوم فهذا مما لا سبيل اليه وأنا وليّ الامر الذي تجب طاعته على جميع الأمة المحمدية . ثم شرع في تقديم الأدلة على انه المهدي المنتظر فأغلظ له ابو السعود في الجواب وقال له ارجع عن هذه الدعوى فانك لا تطيق حرب الحكومة ولا نرى معك من يقاقلها فأجابه محمد احمد وهو يبتسم : أنا أقاتلكم

بهؤلاء وأشار الى أصحابه ثم التفت اليهم وقال : أنتم راضون بالموت في سبيل الله ؟ فقالوا كلهم : نعم راضون بالموت في سبيل الله وباذلون أرواحنا في رضى الله ورسوله ومهديه فالتفت الى ابي السعود وقال له : قد سمعت ما أجابوا به فارجع الى وليّ أمرك في الخرطوم واخبره بما رأيت وسمعت . فلما رأى ابو السعود صدق عزم محمد احمد وأعوانه على نصرته دعواهم وان النصح لا ينجع فيهم عاد مسرعاً الى الخرطوم وقصّ على رؤوف باشا ما رآه وسمعه .

واقعة أبا في ١٢ اوغسطس سنة ١٨٨١ م : فجهز رؤوف باشا بلوكين من العساكر جعل على كل بلوك صاعاً ومدفعاً وأرسلهم مع ابي السعود على الباخرة للقبض على محمد احمد وأنصاره . وكان محمد احمد عند ذهاب ابي السعود قد جمع أصحابه وقال لهم : « ايها الناس ان الترك رجعوا لطلب المدد وسيعودون الى حربنا فمن كان منكم خائفاً على اولاده وأمواله فليخرج منا فنحن ساهون له وبيعتنا التي في أعناقكم ليس عليكم فيها حرج فان سلمنا فعودوا الينا وإلا فقد أحرزتم أبناءكم وأموالكم » فقالوا جميعاً بلسان واحد « يا سيدنا نحن بايعناك على الموت ورضينا بذلك ولا نرغب بنفسنا عن نفسك بل نحن معك حيثما توجهت فمر بما شئت فنحن لك سامعون ولأمرك مطيعون يا خليفة رسول الله » فدعا لهم .

ثم أرسل الى القبائل التي حول الجزيرة يستنفرها الى الجهاد فاجتمع عنده ٣٥٠ رجلاً وفيهم تلامذته . ولما كانت ليلة الجمعة الواقع في ١٦ رمضان سنة ١٢٩٨ هـ ١٢ اوغسطس سنة ١٨٨١ م بلغ محمد احمد ان العساكر حضرت بالباخرة للقبض عليه فأمر رجاله بالاستعداد للحرب وان يكون على كل عشرة منهم مقدم وفي فجر يوم الجمعة المذكور وصلت الباخرة بالعساكر فرست تجاه الحلة وخرج العساكر منها وساروا نحو الحلة على غير انتظام فانه عند وصول اولهم الى قرب الحلة كان آخرهم لم يزل عند الباخرة . قيل وسبب ذلك انه وقع خلاف بين ضابطي البلوكين فان كلا منها ادعى انه المقدم والرئيس فكان الواحد منها يأمر العساكر بشيء والآخر بغيره فاختلف نظامهم .

وأما محمد احمد فانه لما رآهم مقبلين أخذ سيفه من المسجد وخرج برجاله من الحلة وكمن لهم بين الأشجار في الجهة الشرقية منها فلما رآهم العساكر ابتدروهم بالرصاص فحملوا عليهم حملة رجل واحد فاختلفوا بهم وأعملوا فيهم السيف والحربة وكان محل الواقعة وحلاً لكونه قريب عهد بنزول المطر عليه فما استطاعت العساكر الفرار ففتك بهم انصار محمد احمد ولم ينج منه إلا الهاربون المسرعون وقليل ما هم . وقد أصابت محمد احمد رصاصة في كتفه اليمنى فجرح جرحاً بليغاً حتى اختضب جسده بالدم وكان عبد الله التعايشي واقفاً عن يمينه فأخذ ثوباً وطرحه على الجرح لئلا يراه الانصار فيفشلوا . وقد قتل من أنصار محمد احمد ١٢ رجلاً فحملوا الى غاره ودفنوه فيه . أما قتلى العساكر فتركوا في العراء وجمع المهدي سلاحهم ووزعه على أنصاره وكان ابو السعود لم يزل في الباخرة فعاد بها وبمن نجا من العساكر الى الخرطوم . وقد سميت هذه الواقعة « بواقعة أبا » وانتشر خبرها في جميع أنحاء السودان بغلو كثير وعدها البسطاء من الاعاجيب السماوية والكرامات العظمى التي 'خص' محمد احمد بها .

الفصل الرابع

في

وقائع المهدي في جبل قدير

هجرة المهدي الى جبل قدير: وعلم محمد احمد ان الحكومة لا تتغاضى عنه بعد الآن ولا بدّ لها من تجريد الجيوش للانتقام منه فجمع أصحابه في عشية يوم الواقعة وقال لهم « ان سيد الوجود ﷺ أمرنا بالهجرة الى جبل ماسه بلصق جبل قدير » ولم يكن بلصق قدير جبل بهذا الاسم ولكنه اختلق هذا الاسم لحجر عظيم يجانب الجبل طبقاً لبعض الأحاديث من ان المهدي المنتظر تكون هجرته الى جبل ماسه كما مرّ فواقفه اصحابه على ذلك وكان عندم بعض المراكب فاجتازوا بها النيل الى الغرب بما معهم من النساء والأولاد والأمتعة وساروا قاصدين جبل قدير .

مطاردة محمد سعيد باشا للمهدي : أما رؤوف باشا فانه عند رجوع أبي السعود بالباخرة من أبا اهتم للأمر وسير القائمة على بك لطفى الى الكوة بخمسة رجل من العساكر المنظمة والباشبورق وأرسل تلغرافاً الى محمد سعيد باشا مدير كردوفان فوافاه اليها بألف من العساكر المنظمة وثلاثمائة من الباشبورق وكان من رأي سعيد باشا مطاردة محمد احمد قبل فوات الفرصة ولكن رؤوف

باشا لم يأذن له في ذلك وأمره فأخذ بعض العساكر وذهب بها الى أبا لي
فراغ الجزيرة من المهدي وانصاره ويقف على تفاصيل الواقعة . وقد رأى
مصر بعض العساكر الذين صحبوا سعيد باشا الى أبا فقـال : ذهبنا الى
الواقعة فوجدناه مستوحلاً وغاصاً بشجر الاراك وكان قتلى العساكر لا
في العراء وقد دلّت جراحهم على انهم قتلوا بالسيوف والحراب ولكن
بعضهم مقتول بالرصاص مما دلّ على اختلال نظام العساكر وقتلهم بعضهم
لأن أنصار المهدي لم يكن معهم سلاح ناري فدفعنا القتل وجئنا الى غار
الذي هو أشبه بسرداب تحت الارض فوجدنا قتلى الدراويش قد دفنوا
بثيابهم . ثم دخلنا منزل محمد احمد فوجدنا فيه عدة كتب من مشايخ الـ
والقبائل جواباً على كتبه لهم وأكثرهم مسلمون بدعواه ويعدون بالقيـام
حين ظهوره إلا الشيخ حمد النيل شيخ العراقيين في أبي حراز والشيخ
السقا في الخرطوم والشيخ احمد الكناني في الابيض فانهم في أجوبتهم يسـ
رأيه ويقولون « ان المهدي عند ظهوره يظهر كالشمس فان كنت نائماً فاد
فأحرق سعيد باشا الحلة وعاد الى الكوة فاستأذن رؤوف باشا ولحق :
احمد حق وصل محلاً يدعى أبا شجيرات ومحمد احمد اذ ذاك قريب من
جبل الكُمر فنزل مطر غزير حبسها على السير أياماً وكان سعيد باشا
فرغ زاده واستخف أمر محمد احمد ولم يخطر بباله انه سوف يحصره في عا
أشهراً ثم يأسره ويقتله بعد ان يريه العذاب ألواناً فقررّ رأيه على الرجوع
وعاد الى الابيض في اول القعدة سنة ١٢٩٨ هـ ٢٥ سبتمبر ١٨٨١ م .

واقعة المختار ٢٤ اكتوبر سنة ١٨٨١ م : واستطرد محمد احمد السير
جبل قدير وهو يدعو الناس من عرب وعجم الى طاعته حق وصل الى
الجرادة وهو جبل حصين يسكنه اخلاط من العرب والنوبة السود وعليه
يسمى المختار فتصدى للمهدي وحاربه فتغلب المهدي عليه وقتله وعرفت الو
« بواقعة المختار » وتاريخها سلخ ذي القعدة سنة ١٢٩٨ هـ ٢٤ اكتوبر
١٨٨١ م .

وسار المهدي حتى وصل جبل قدير يوم الاثنين في ٧ الحجة سنة ١٢٩٨ هـ
٣١ اكتوبر سنة ١٨٨١ م وكان على ذلك الجبل ملك يسمى ناصرأ فقابله
بالبشر والسرور وأنزله على الرحب والسعة . وأمر محمد احمد اصحابه فبنوا
مسجداً للصلاة ومنازل للسكنى وكانوا في تعب شديد مما لاقوه في الطريق من
الامطار والوحول والمحن فأصابتهم الحمى وساءت حالهم جداً .

واقعة راشد بك ٩ ديسمبر سنة ١٨٨١ : وبلغ راشد بك مدير فاشودة
في ذلك الحين ان المهدي استقر في جبل قدير على خمسة ايام منه فاستأذن
رؤوف باشا في مهاجمته فلم يأذن له . ثم أتاه مخبر من قدير وقال له ان المهدي
في ضيق شديد وقد فشئت الحمى في اصحابه فصمم راشد بك على مهاجمته بلا
استئذان وجهاز ٤٠٠ من العساكر المنظمة وألفاً من الشلك وعليهم ملكهم
وزحف بهم قاصداً « قديراً » وقد بذل قصارى الجهد في كتمان سيره بقصد
مباغثة المهدي الهجوم ولكن رأته امرأة كنانية تدعى رابحة قرب جبل قدير
فقامت مسرعة حتى وصلت محمد احمد في الثلث الاخير من ليلة الخميس ١٦
محرم سنة ١٢٩٩ هـ ٢٨ ديسمبر سنة ١٨٨١ م وأخبرته بمسيره اليه . فجمع
محمد احمد اصحابه وكانوا قد بلغوا بعد واقعة أبا ٨٠٠٠ رجل وخرج بهم الى
غابة بالقرب من جبل قدير وهي طريق الجبل الوحيدة وهناك صفهم راية راية
ووقف بينهم خطيباً فحرضهم على الجهاد ورضيهم في ما أعدّه الله للمجاهدين
وصبر حتى دخل راشد بك الغابة برجاله وكان ذلك يوم الجمعة في ٩ ديسمبر
سنة ١٨٨١ م عند طلوع الشمس فأمر اصحابه فحملوا على راشد ورجاله حملة
رجل واحد قبل ان ينتظموا قلعة فقتلوهم باطلاق الرصاص فصر اصحاب
محمد احمد على نارهم ثم هاجوهم بجزم وصدق نية فدخلوا بينهم وقتلوهم شر
قتلة ولم ينج منهم إلا القليل وقد قتل راشد بك وأسر ١١١ من رجاله وغنم
محمد احمد ما كان معه من المال والاسلحة والذخائر والزاد فتقوى بها .

وقد عرفت هذه الواقعة «واقعة راشد» وانتشر خبرها في أقطار السودان
الاربعة وشاع ان المهدي يحارب بسيف القدرة وانه يحول رصاص العساكر

الى ماء فلا تضره بأنصاره وان النار خرجت من حراب الانصار وسيوفهم فأحرقت أجسام العساكر وروى بعضهم انهم رأوا بأعينهم اسم المهدي مكتوباً على ورق الشجر وبيض الطيور في البرية . وكان محمد احمد بعد استقراره في قدير قد أرسل البعوث الى كل الجهات فأخذ الناس يفدون اليه من سنار وكردوفان ودارفور ومن كل فج .

ولاية عبد القادر باشا حلمي ١٢٩٩ : ١٣٠٠ هـ - ١٨٨٢ : ١٨٨٣ م

وكالة جيكلر باشا ١٨٨٢ م :

ولما بلغ رؤوف باشا خبر راشد بك راعه الخبر وشرع في تجنيد عساكر شابوزق من الشايقية والذناقلة وخاف على فاشودة من المهدي فأرسل اليها قوة من العساكر بقيادة جيكلر باشا (رئيس مصلحة التلغرافات السودانية) وبعث في طلب المدد من مصر .

وكانت الحكومة في مصر لم تزل مشغولة بالثورة العرابية ولم يسعها امداد السودان بالعساكر فرأت ان تبعث اليه بوال مدبّر حازم يتمكن من إطفاء الثورة بما لديه من العساكر فعزلت رؤوف باشا فبرح الخرطوم في أوائل مارس سنة ١٨٨٢ م وندبت لهذا العمل الهام البطل المدرب والسياسي المحنك عبد القادر باشا حلمي ولكن دعت الضرورة الى تأخيره بمصر فبقي فيها الى أوائل مايو من تلك السنة .

واقعة الشادلي في ٢٩ مايو سنة ١٨٨٢ م : وفي هذه الأثناء قام بأعباء الاعمال بالنيابة عنه جيكلر باشا فأرسل الى مصر رسالة برقية يلحّ فيها على الحكومة ان تأذن له في تجهيز حملة قوية لسحق المهدي في قدير قبل استفحال أمره فأذنت له . وقد اتصل بي ان عبد القادر باشا عارض الحكومة في ذلك وألحّ على ترك المهدي وشأنه الى ما بعد وصوله الخرطوم فينظر في أمره فلم يُسمع له . فحشد جيكلر جيشاً في الكوة مؤلفاً من ١٣ بلوكاً من العساكر

النظامية و ١٥٠٠ رجل من الباشبوزق والخطرية من عساكر الخرطوم وسنار والابيض وعقد لواءه ليوسف باشا الشلاي المتقدم ذكره مع جسي في بحر الغزال وكان على باشبوزق الابيض عبد الله محمد دفع الله وعبد الهادي صبر من أعيانها وسلطان كنجارة وسلطان المسبعات وكلهم من الابطال المعدودين .

وفي أواسط مايو سار يوسف باشا الشلاي يبيشه من الكوة قاصداً قديراً عن طريق فاشودة وعلم المهدي بقدمه بمن هاجروا اليه من جزيرة سنار وأرسل طلائعه الى قرب فاشودة فكانوا يمتالون حتى يدخلوا الجيش ويتجسسوه فيعودوا اليه بالخبر كل يوم .

وأرسل يوسف باشا كتاباً الى المهدي يدعوه الى التسليم وحقق الدماء فكتب اليه المهدي في الجواب ما نذكره بالحرف الواحد ليعلم منه ما صار اليه محمد احمد من الجرأة والاستخفاف بالحكومة وعساكرها وهذه هي صورة الجواب :

« بسم الله الرحمن الرحيم الحمد لله المنتقم القهار والصلاة على سيدنا محمد وآله الأخيار من الفقير المعتصم بمولاه محمد المهدي ابن السيد عبد الله الى يوسف حسن الشلاي ومن معه من الجموع .

« أما بعد فانه وصل الينا جوابكم وما ذكرتم فيه من وقوفكم على مكابنتنا وانكاركم صار معلوماً لدينا وكنا قصدنا ان نضرب عن افادتكم صفحاً ونطوي دون اجابتكم كشحاً لوقوفكم على الانذار ومجاهرتكم بالانكار لكن أردنا ان نبين لكم غلطكم في ما ذكرتموه في جميع المواضع ونوضح لكم خطأكم في ما ادعيتموه بالبراهين السواطع فنقول أما قولكم أنا قتلنا العساكر غدرأ في الوقعتين قبل ان يحاربونا فهذا كذب صريح لأنهم في الوقعتين ابتدأونا بالمحاربة والضرب بالسلاح حتى حاربناهم وقتلناهم . وقولكم ان الحكومة أرسلتهم ليقفوا على ما عندنا من الأدلة باطل ضرورة لأن الحكومة لو أرادت المراجعة والاطلاع على ما عندنا من البراهين لأرسلت الصلحاء والعلماء أهل المذاكرة والدراية بهذا الشأن ولم ترسل العساكر الأغبياء وتعطيهم الأسلحة . وقولكم أنا قتلنا جملة من

المسلمين المتوطنين بهذا المكان ظلماً وعدواناً باطل ايضاً لأننا ما قتلنا إلا أهل
 الجراداة بعد ان كذبونا وحاربونا وقد أخبرنا النبي ﷺ وأخبر جميع أهل
 الكشف بأن من شك في مهديتنا وأنكر وخالف فهو كافر ودمه هدر وماله
 غنيمة فحاربناهم لأجل ذلك وقتلناهم وبعد ذلك لما انقاد باقيهم لحكنا رجعنا
 لهم جميع أمتعتهم التي بأيدي اصحابنا رفقا بهم مع انها حلال لنا . وقولكم
 ان الذين قتلناهم من العسكر مسلمون ومتبعون ما جاء به الرسول صلى الله
 عليه وسلم ونسأل عن دمائهم بين يدي الله تعالى باطل لأن القطب الدرديري
 قد نص في باب المحاربة على ان امرء مصر وجميع عساكرهم وأتباعهم محاربون
 لأخذ أموال المسلمين منهم كرهاً فيجوز قتلهم كما قال تعالى انما جزاء الذين
 يحاربون الله ورسوله ويسعون في الارض فساداً ان يقتلوا الى آخر الآية . على
 ان النبي صلى الله عليه وسلم أمرنا صريحاً بقتال الترك وأخبرنا بأنهم كفار
 لخالفتهم لأمر الرسول باتباعنا وارادتهم لاطفاء نور الله تعالى الذي أراد به
 اظهار عدله فكيف نسأل عنهم بعد هذا. وايضاً قد شاهد جمع من الاخوان
 التهاب النار في اعضاء العساكر المقتولين جهاراً تعجيلاً لعقوبتهم واظهاراً
 لحقيقتهم وقولكم انكم ضبطتم أربعة انفار الطليعة وآذيتموهم فاعلموا انه قد
 أوذى قبلهم اصحاب الرسول عليه افضل الصلاة والسلام بالسجن والضرب
 والقتل وجميع أنواع الأذى كبلال وحبیب وأمثالهم فليس لهم إلا الثواب
 ولا بد ان يجازيكم الله على ما صنعتهم . وقولكم ان الطليعة تنافي المهدي لأن
 المهدي يعلم الغيب ضرورة جهل منكم بسيرة الرسول فان النبي ﷺ كان يرسل
 الطلائع كحذيفة اليماني والزبير بن العوام وغيرهم ولم يناف ذلك رسالته فكيف
 ينافي مهديتنا وقد قال الله لنبيه ﷺ قل لا أقول لكم عندي خزائن الله ولا
 أعلم الغيب ولا أقول لكم اني ملك ان أتبع إلا ما يوحى اليّ وقوله تعالى انما
 الغيب لله هو يعلمه لا غيره إلا ان يريد الله اطلاقه في بعض الاحيان لحكمة
 يعلمها هو . وقولكم ما اتبعنا إلا البقارة الجهلاء والمجوس فاعلموا ان اتباع
 الرسل من قبلنا واتباع نبينا محمد ﷺ الضعفاء والجهلاء والأعراب الذين كانوا

يعبدون الحجر والشجر وأما العلماء والاغنياء واهل القوة والترف فلم يتبعوهم إلا بعد ان يخربوا ديارهم ويقتلوا أشرفهم ويملكوهم بالقهر قال تعالى حاكياً عن قوم نوح وما نريك اتبعك إلا الذين هم أراذلنا باديء الرأي وقال تعالى وما أرسلنا في قرية من نذير إلا قال مترفوها اننا بما أرسلتم به كافرون وقالوا نحن أكثر أموالاً واولاداً وما نحن بمعذبين . ولما بعث نبينا محمد ﷺ كانت مدافن اليهود والنصارى مشحونة بالأحبار والرهبان والاغنياء والملوك أهل الطغيان وكانوا يتمنون ادراك زمنه ويستعزون به فلما ظهر أنكروا وجحدوا نبوته وقالوا ما اتبعه إلا أجلاف الأعراب عراة الأجساد وجياع الأكباد واستكبروا عن اتباعه وكفروا به مع انهم يعرفونه كما يعرفون أبناءهم ويعلمون انه الحق من ربهم ولم ينفعهم علمهم ولا غنائم بل ضربت عليهم الذلة والمسكنة وبأؤوا بغضب من الله ولم يبق لهم ملكهم الذي منعهم عن اتباع الحق إلا أياماً قليلة حتى فرقه الله وشتت شملهم وجعلهم غنيمة لضعفاء الاعراب الذين كانوا يستهزئون بهم وكذلك نرجو الله ان تكونوا أنتم ومن ورائكم غنيمة للبقارة الجهلاء الذين تستهزئون بهم قال تعالى موجئاً اهل الكتاب وما اختلف الذين أوتوا الكتاب إلا من بعد ما جاءهم العلم بغياً بينهم وقال تعالى وما تفرق الذين أوتوا الكتاب إلا من بعد ما جاءتهم البينة وقال تعالى أفرايت من اتخذ إلهه هواه وأضله الله على علم فشال العلماء والصلحاء الذين أنكروا مهديتنا وخالفونا كأمثال احبار بني اسرائيل ورهبانهم الذين اضلمهم الله على علم . وقولكم قم واحضر عندنا لتتوجه الى محل الهدى مكة المشرفة فاعلموا ان توجيهنا انما يكون بأمر رسول الله ﷺ في الوقت الذي يريده الله ولسنا تحت امركم بل أنتم ومن فوقكم تحت امرنا وانا وليّ الأمر في هذا الآن على سائر الانس والجان وان خالفتم امرنا في هذه الأيام فلا بد ان تقعوا في قبضتنا وتذوقوا السوء بما صددتم عن سبيل الله ونحن نتربص بكم ان يصيبكم الله بعداب من عنده او بأيدينا وسيعلم الذين ظلموا أي منقلب ينقلبون . وقولكم ارسل الينا ملكاً من الملائكة جهل منكم كما قال تعالى موجئاً كفار قريش وقالوا لولا

أنزل عليه ملك ولو أنزلنا ملكاً لقضي الأمر ثم لا ينظرون وقد أخبر تعالى بأنهم لا تنفعهم الآيات ولا يدهم على الإيمان ظهور المعجزات قال جل وعلا ولو أنزلنا عليك كتاباً في قرطاس فمسوه بأيديهم لقال الذين كفروا إن هذا إلا سحر مبين وقال تعالى ولو فتحنا عليهم باباً من السماء فظلوا فيه يعرجون لقالوا إنما سكرت أبصارنا بل نحن قوم مسحورون فالآيات لا تنفع المنكر الجاحد واطهارها إنما يكون بارادته تعالى لا بتعني العباد وليس علينا إلا التبليغ والانذار كما قال تعالى وقالوا لولا أنزل عليه آية من ربه إنما أنت منذر وقال تعالى قل إنما الآيات عند الله وما على رسولنا إلا البلاغ المبين فكذلك نحن ليس علينا إلا التبليغ ولا نطلب من الله اظهار آية على مهديتنا بل نقف معه على حد أدبنا وعبوديتنا فان شاء اظهر آية كما ظهر لكثير من المحبين نقش اسمنا على بيض الدجاج وورق الاشجار حتى صار لهم ذلك سبباً في اليقين مع انا لا نطلب من الله ذلك ولم نتشوف الى ما هنالك والى الآن نكون ان شاء الله كذلك . وقولكم لا تعتروا بنوأي ولا اسماعيل الامين جهل منكم بأمرنا لأننا لا نعتد إلا على الله ولا نستنصر غير الله . وقد صرح لنا النبي ﷺ في حضرات كثيرة بأن الله ناظرنا وناصرنا وأقسم على ذلك ثلاثاً واذا كانت نصرتنا بالله فلا نبالي بمدافعكم وصواريخكم وكثرة جيوشكم ولو بلغت عدد الرمل لأنه لن يغلب الله شيء وهو غالب كل شيء قال تعالى ان ينصرم الله فلا غالب لكم وقال تعالى لن يضروكم إلا أذى وان يقاتلوكم يولوكم الادبار ثم لا ينصرون وقال تعالى : كم من فئة قليلة غلبت فئة كثيرة باذن الله والله مع الصابرين وقال موجباً على أمثالكم السابقين : ولن تغني عنكم فتكم شيئاً ولو كثرت وان الله مع المؤمنين . وقد ذكرتكم انكم كاتبتمونا لأن الخديوي الاعظم قال لكم لا تحاربوه حتى يتعدى الحدود فاعلموا انه ما أخرجكم عنا الا الخوف الشديد والجزع الذي ليس عليه من مزيد لأننا من حين كنا بجزيرة أبا تعدينا حدودكم وخالفنا مقصودكم فكيف تخاطبونا الآن بمثل هذا القول الذي لا ينشأ الا عن ضعف العقول فسارعوا الى محاربتنا

لتأخذوا مناصبكم التي غرّكم بها الشيطان ولا تجبنوا وتحرصوا وتتخلوا إن كنتم كما زعمتم رجالاً أبطالاً اهل دراية بالحرب فانه ليس بيننا وبينكم الا السيف ولسنا محتاجين الى مراجعتكم حتى نرسل لكم العلماء ليذاكروكم فمن شاء فليؤمن ومن شاء فليكفر والحذر الحذر من المجاوبة ثانية فاننا لا نرد لكم جواباً ما دتم منكرين ولو جاوبتمونا طول السنين فليس لكم عندنا الا الرماح الطعان والسيوف السنان . وليكن معلوماً عندكم اني من نسل رسول الله ﷺ فأبي حسني من جهة ابيه وأمه وأمي كذلك من جهة امها وأبوها عباسي والعلم لله ان لي نسبة الى الحسين رضي الله عنه وفيما ذكر كفاية لأهل العناية والسلام على من اتبع الهدى . في ٤ رجب سنة ١٢٩٩ هـ ٢٢ مايو سنة ١٨٨٢ م .

ويوم الاحد الواقع في ١٠ رجب سنة ١٢٩٩ هـ ٢٨ مايو سنة ١٨٨٢ م وصل الشلاي يجيشه الى جبل الجراة فنزل في سهل بسفح الجبل وبني زريبة مربعة من شوك ووضع العساكر عليها وجعل المدافع في أركانها الاربعة والمؤن والذخائر والدواب في الوسط فعادت طلّاع محمد احمد اليه بالخبر . وبعد صلاة المغرب من ليلة الاثنين حادي عشر رجب ٢٩ مايو سنة ١٨٨٢ م خرج محمد احمد من منزله شاهراً سيفه يكبرّ وقال : أانا الخبر من سيد الوجود ﷺ بأن نوجه الجيش الى حرب الترك واستدعى اصحاب الرايات فجعلهم اربع فرق وعيّن لكل فرقة جهة من الزريبة يهاجمها وكان قد بلغ عدد أنصاره نحو ١٥ ألفاً فساروا وسار وراءهم حتى قربوا من الزريبة فنزلوا هناك الى ان لاح فجر الاثنين فصلى محمد احمد بهم الصبح ثم حرضهم على الجهاد وقال : اذا رأيتم العدو فكبروا ثلاثاً وقولوا اللهم انت ربنا وربهم نواصينا ونواصيهم بيدك وانما تقتلهم انت قولوها ثلاثاً ثم أمرهم بالحملة على الزريبة . وكانت العساكر تشتغل ببناء الزريبة وتحصينها الليل كله فناموا عند الفجر وفيما هم كذلك حمل عليهم أنصار المهدي بغزم وصدق نية ما بين مهلل ومكبر وصارخ فشعر الخفراء بهم وأيقظوا العساكر فأطلقوا المدافع والبنادق ولكن

ما كادوا ينتظمون في أماكنهم حتى دخل الانصار عليهم في الزريبة وتتبعوهم قتلاً حتى أخرجوهم منها فاقتفوا اثرهم يقتلونهم في كل جهة ولم ينجُ الا القليل الذاهب في بطون الأودية والمختبىء تحت الاشجار فاتخذوا الطريق الى فاشودة. وُقُتل يوسف باشا الشلاي وعبد الله محمد دفع الله وعبد الهادي صبر وطاها الشايقي بعد ان حاربوا حرب الابطال وقتلوا بسيوفهم عدداً كبيراً من أنصار المهدي وكان قتلى الانصار نحو ٢٠٠ رجل فيهم حامد اخو المهدي فدفنوا بأمر المهدي كما هم ثم مُجمعت الغنائم فكانت شيئاً كثيراً من النقود والازواد والملبوسات والدواب والذخائر والاسلحة فعزل المهدي الخمس منها لنفسه ووزع الباقي على الانصار ففرحوا به جداً وتيسر امرهم بعد ان كانوا في ضيق شديد. وقد عُرفت هذه الواقعة بواقعة الشلاي .

وهذا النصر المتتابع الذي ناله محمد احمد على عساكر الحكومة أدهش عالم السودان كافة وحطّ من كرامة الحكومة في أعينهم بقدر ما رفع من كرامة محمد احمد . فلقد كان للحكومة قبل الآن سطوة عجيبة في البلاد حتى كان جنديها الواحد يرهب رهطاً من الأهلين وقد مرّ عليها ستون سنة ونيف لم تظهر في خلالها بغير مظهر القوة والبطش فأقمت كل ثورة ونكلت بمن ناوأها تنكيلاً شديداً . والآن قام فقيهه خامل الذكر وضيع الشأن بنفر معدود من المستضعفين الجياع فتغلب على سراياها القوية المرة بعد المرة وما زال يتهددها ويستعد لمناوأتها فلم يبقَ للعامة ريب في ان هذا الفقيه هو المهدي المنتظر وان نصره من الله فهاجروا اليه من كل فج . وقد انحاز اليه على الأخص: أهل البادية لأنهم ميالون بالفطرة الى الحرب والسلب فرأوا عنده ما يوافق ميلهم خصوصاً وانه رفع عنهم الضرائب التي كانوا يئنون منها كما بيئنا قبل . وتجار الرقيق لأنهم رأوا الوازع قد ذهب واطلقت لهم الحرية في البيع والشراء . وقطاع الطرق واللصوص لأنهم وجدوا به ملجأ من العقاب . والعلماء والفقهاء لأن القائم هو واحد منهم وقد قام ليحررهم من المصيرين ويجعلهم حكماً في مكانهم . وهكذا انفتحت الأحزاب على نصره وكثرت الوفود عليه حتى بلغ

عدد انصاره في قدير نحو ٢٠ الفاً فضلاً عن الذين أتوا وبايعوه وعادوا الى نصرته في بلادهم .

بيعة المهدي : اما المبايعة التي كان الناس يبايعونه بها فهذه صورتها :

بسم الله الرحمن الرحيم الحمد لله الوالي الكريم والصلاة على سيدنا محمد وآله مع التسليم . اما بعد فقد بايعنا الله ورسوله وبايعناك على توحيد الله وألا نشرك به احداً ولا نسرق ولا نزني ولا نأتي ببهتان ولا نعصيك في معروف بايعناك على زهد الدنيا وتركها والرضى بما عند الله رغبة بما عند الله والدار الآخرة وعلى ان لا نفر من الجهاد .

وكانت هذه المبايعة على وجهين الاول باليد وهي ان يضع المبايع يده في يد المهدي جاعلاً ايمامه على ايمامه ثم يقرأ المهدي صورة المبايعة فيعيدها المبايع بعده . وان كانوا اكثر من واحد الى العشرين وضع واحد منهم يده في يد المهدي وألقى الباقيون أيديهم فوق يديها . والوجه الثاني المبايعة باللسان وذلك متى زاد المبايعون على العشرين فيرقى المهدي الى منبر او يركب جملاً ويقف الناس امامه ويبايعونه .

لباس المهدي : وكان يلبس جبة مرقعة فوق سراويل من الدمور ويتمنطق بمنطقة من خوص وعلى رأسه طاقية مكيئة يلف عليها عمامة كبيرة بيضاء مفلجة كعمامة اهل الحجاز ويسدل لها عذبة على كتفه اليسرى طولها نحو نصف متر ويضع في عنقه سبحة وفي رجله حذاء أو نعلين . وهو لباس الدراويش المعتاد في السودان الذي فرضه على جميع اصحابه فعرفوا عند رجال الحكومة بالدراويش كما عرفوا ايضاً بالأشقياء . اما المهدي فقد اطلق عليهم اسم الانصار والاصحاب والأحباب في الله .

حكومة المهدي : وقد تشبه محمد احمد بالنبي في جميع أعماله وجعل جل غايته اعادة الاسلام الى ما كان عليه في اول امره في زمن النبي فنظم حكومته على ما تقتضيه هذه الغاية في الجند والمال والقضاء .

اما في « الجند » فانه قبل خروجه من أبا عين خلفاه فجعلهم اربعة بعدد الخلفاء الراشدين يتولون الامر بعده الواحد بعد الآخر اولهم عبد الله التعايشي خليفة ابي بكر الصديق والثاني علي ود حلو من عرب دغيم خليفة الامام عمر الفاروق والرابع محمد شريف ابن عمه خليفة الامام علي الكرار واما الكرسي الثالث ابي خليفة الامام عثمان فقد خص به محمد السنوسي فرفضه كما مرّ فبقي فارغاً. وقسم جيشه الى ثلاثة اقسام فعقد لكل خليفة على قومه وجعل له راية خاصة فعقد للخليفة محمد شريف على انصار السودان الاوسط وهم انصار دنقلة وبربر والخرطوم وسنار وضم اليهم الجلابية واولاد النيل وخصه بالراية الحمراء وعقد للخليفة علي ود حلو على عرب دغيم وكنانة وخصه بالراية الخضراء وعقد للخليفة عبد الله على جميع قبائل السودان الغربي كالتعايشة والرزيقات والحر وضم اليهم الجهادية واولاد الريف وخصه بالراية السوداء التي عرفت عندهم بالراية الزرقاء وكان من عزمه ان يخص السنوسي بالراية الصفراء ليجمع بذلك رايات الاقطاب الاربعة

وقد ميز الخليفة عبد الله بالامباية التي يبوّثق بها لجمع الجيش كله وجعله رئيساً عاماً على الادارة والجند وقدمه على الخليفتين الآخرين لأنه كان أقوى منها في الجند وأقدر على الادارة والتعلق لاسيما وانه هو الذي قوّاه على دعواه كما علمت .

وكان لكل خليفة وكيل على رايته ودونه أمراء ومقاديم ولكل امير راية خاصة غير راية الخليفة . ومما كان يكتب على الرايات :

« بسم الله الرحمن الرحيم سطر ، لا إله الا الله محمد رسول الله سطر ، محمد المهدي خليفة رسول الله سطر ، يا حي يا قيوم يا ذا الجلال والاكرام سطر. او يا الله يا رحمن يا رحيم يا حي يا قيوم سطر، يا ذا الجلال والاكرام سطر ، لا إله الا الله محمد رسول الله سطر ، محمد المهدي خليفة رسول الله سطر . وكان لكل خليفة طبل كبير يعرف بالنقارة او النحاس يضرب عند ارادة جمعهم للعرضة او للحرب .

وكان المهدي يستعرض جيوشه في كل يوم جمعة فيجعلهم صفاً واحداً متجهين نحو القبلة كوقوفهم للصلاة اولهم الراية الزرقاء ثم الي يسارها الراية الخضراء ثم الراية الحمراء ويمر عليهم راكباً جواداً او هجيناً من اول الصف الى آخره . وكان هذا دأبه الى يوم وفاته .

واما في « المال » فقد أنشأ له ادارة سماها بيت المال وحفظ فيه اموال الجند والعشور والزكاة والغنائم والغرامات وعهد به الى صديق له يسمى احمد ود سليمان من أهالي المحس وهو من أعز انصاره الأول . وأنشأ فرعاً في بيت المال سماه بيت مال المحس جعل فيه ما خصه من الغنائم .

واما في « القضاء » فقد اسند منصبه الى الشيخ احمد ود جبارة من علماء الازهر الذين صحبوه من جزيرة أبا ولقبه بقاضي الاسلام وجعل دونه قضاة ونواباً كثيرين . اما القضاة فللحكم في المسائل الشرعية الاهلية واما النواب فللحكم في الغنائم والحقوق المتعلقة ببيت المال .

ولترك الآن محمد احمد في قدير يستعد للمستقبل ويبتدئ دعائه في الجهات ولننظر فيما كان من الثورة في جهات السودان .

الفصل الخامس

في

وقائع الثورة في جزيرة سنار

سنة ٢ - ١٨٨٣ م

حركة عامر المكاشف : تقدم ان مشايخ السودان وفقهاءه لما سمعوا بنصرات محمد احمد على سرايا الحكومة أخذوا يهاجرون اليه من كل الجهات لتحقيق دعوته ومبايعته . وكان اول من هاجر اليه من جزيرة سنار الشيخ احمد المكاشف من كبار فقهاء الكواهلة وكانت الحكومة قد اصدرت منشوراً الى جميع الجهات تحذر الناس من اتباع محمد احمد والمهاجرة اليه وهددت من يخالف الامر « بتصدير » ماله ومعاقبة اهله في غيابه . فلما علمت حكومة سنار بمهاجرة الشيخ احمد المكاشف الى المهدي ألقت القبض على اخيه عامر وزجته في السجن وحملته ما لا يطيق قيل فافتدى نفسه بمال وخرج من سنار وفي النفس حزازات وأتى عرب رفاعة الهوي في غابة الكبوش جنوبي سنار وكان هؤلاء العربان قد تأخروا عن دفع الضرائب والحكومة مشددة عليهم في تأديتها فنادى عامر المكاشف بهم باسم المهدي فلبوا نداءه واجتمع عليه نحو ٣٠٠٠ رجل منهم فزحف بهم على سنار وكان المدير عليها اذ ذاك حسين بك

شكري (حسين باشا الآن) ومعه ١٥٠ جندياً ومدفع واحد ولم يكن للمدينة سور يساعدها على الحصار فجنّد نحو ٢٠٠ رجل من المتطوعة وضمهم الى عساكره وخرج بهم ومعه المدفع لطرد المكاشف فلما بدأ القتال أطلق الطويجية المدفع مرتين وفي الثالثة ادخلوا القنبلة فيه قبل الخراطوش فتعطل فانقض العرب على العساكر كالنسور واختلطوا بهم وأعملوا فيهم السيف والحربة فقتلهم شر قتلة وألقوا المدفع في النيل وكان عليه الصاري محمد اغا النمر تلّب من الباشبوزق الاتراك فقاتل قتال الابطال حتى قتل بجانبه . ورجع المدير بمن بقي من رجاله الى سنار فنزلوا في الذهبيات والمراكب ودخل عامر المكاشف المدينة وقصد الخزينة في ديوان المديرية وكان عليها ١٢ رجلاً من السود مع الملازم علي افندي توفيق المصري يجرسونها فدافعوا عنها حتى قتلوا عن آخرهم واستولى العرب على الخزينة وكان الملازم قد صوّب رصاصة على عامر المكاشف فأصابته فخذه فتشاءم العرب من ذلك فوضعوا الحراس على الخزينة وعادوا بعامر الى غابة الكبوش فعاد المدير الى المدينة بمن معه من العساكر والتجار وقتلوا حراس العرب واسترجعوا الخزينة ثم دخلوا قشلاق العساكر على النيل وتحصنوا به وقد جرى ذلك كله يوم الخميس في ٦ ابريل سنة ١٨٨٢ م .

فلما كان السبت اي ثالث يوم الواقعة تمائل عامر المكاشف من جرحه وعاد فهاجم القشلاق بأنصاره فلم يقوَ عليه فدخل الشونة شمالي المدينة وأخذ ما كان فيها من السمن والملح والغلّال والدمور وهو شيء كثير وحصر المدينة وقطع خط التلغراف بينها وبين الخراطوم. وكان المدير قبل قطع خط التلغراف قد تمكّن من مخاطبة جيكلر باشا بحال سنار فأرسل جيكلر امراً الى صالح الملك بالكوة فأتاها ورفع الحصار عنها بعد كفاح شديد واستخرج المدفع من النيل وأعاد خط التلغراف بين سنار والخراطوم وذلك في صباح يوم الخميس في ١٣ ابريل . واما عامر المكاشف فانه فرّ بمن بقي من أنصاره الى بركة

تيقو وهي منهل مشهور في بطن الجزيرة وأقام فيها الى ان طرد منها بالقوة
كما سيجيء .

حركة الشريف احمد طاهيا : وكان في جملة الذين استنفرهم محمد احمد فلبوا
دعوته ورفعوا رايته الشريف احمد ود طاهيا من مشايخ الطريقة السمانية شرقي
النيل الازرق بين أبي حراز ورفاعة فاجتمع حوله خلق كثير من البطاحين
والشكرية والجعليين والدناقلة وغيرهم من سكان تلك الجهة . وكان جيكر باشا
بعد ان ارسل امره الى صالح الملك لنجدة سنار خرج بنفسه من الخرطوم بمئتي
نفر من الباشوزق وطلب من القلابات ان ترسل نجدة لتوافيه الى أبي حراز فلما
وصل قرب حلة الشريف المذكور بلغه امر قيامه بنصرة المهدي فأرسل عليه
الملك يوسف من سناجق الشايقية ومعه مئة رجل من نظامية وباشوزق فأحاط
الشريف ورجاله بهم فقتلهم شر قتلة ولما رأى الملك يوسف ما حلّ بـرجاله
افترش فروته فقتل عليها وذلك في اواخر ابريل .

ونجا بعض العساكر الى جيكر فأخبروه بما كان فأقلع الى أبي حراز وانتظر
حتى أتته النجدة من القلابات وهي اورطة من السود عليهم البكباشي سرور
أفندي بهجت قومنداناً و ٢٠٠ فارس من الشايقية فأرسل منها ٧٠٠ نفر من
نظامية وباشوزق ومدفعاً واحداً بقيادة سرور أفندي لقتال الشريف فالتقاهم
في الطريق وهزمهم شر هزيمة وغنم المدفع وكان ذلك يوم الخميس في ٤ مايو
سنة ١٨٨٢ م .

فأرسل جيكر اذ ذاك خبراً الى عوض الكريم بك ابي سن شيخ مشايخ
الشكرية فحضر بجيش كبير من عربانه وكتب الى الشريف يقول « اني أنصح
لك ان تكف عن العداة وتحضر مسلماً فيعفى عنك وإلا فانج بنفسك واحقن
دمك لأنك شريف ولا نريد قتلك فاذا لم تفعل هذا ولا ذاك فلا تلم إلا نفسك
فأجابه الشريف « دع عنك النصح فاني أوقدت ناراً وأريد ان أتدفأ بها » .
فلما طلع فجر السبت في ٦ مايو جهز جيكر جميع من عنده من العساكر
وأرسلهم لقتال الشريف وسير الشكرية وراءهم فنأدى شيخ الشكرية بالعساكر

قائلاً : « ان من ولسى ظهره خوفاً من الموت. امامه لقيه مني وراه » فساروا كلهم على عزم الموت او النصر حتى أتوا حلة الشريف فحمل عليهم بأنصاره حملة رجل واحد فتلقتهم العساكر بالرصاص وكان الشريف راكباً جواداً وقد احتاطه نفر من انصاره فأجلاهم الرصاص عنه ثلاث مرات حتى تراكمت القتلى حوله كالرُبى ثم سقط هو فوقهم وخذل انصاره فقتبتهم الفرسان ومزقوهم كل ممزق وحرقوا حلة الشريف بالنار وحملوا جثته على جمل وأتوا بها الى ابي حراز فقطع جيكر رأسه وعلقه على عود وأرسله الى الخرطوم فعلق فيها أياماً.

وصول عبد القادر باشا الى الخرطوم في ١١ مايو سنة ١٨٨٢ م

تحصين الخرطوم : وفي ١١ مايو سنة ١٨٨٢ م وصل عبد القادر باشا الى الخرطوم فوجد الميرالاي حسن بك حامي معسكراً في ظاهر المدينة ومعه نحو خمسية جندي وثلاثة مدافع جبلية وليس حولهم متاريس ولا حصون ولا شيء من معدات الدفاع . ووجد اهل الخرطوم في غاية الخوف والجزع لقلة الجنود وخالو المدينة من كل تحصين مع وجود كثير من أنصار المهدي حول المدينة متحفزين للوثبة عليها عند سنوح الفرصة فشرع في تحصينها وتجنيد العساكر فأنشأ ثلاثة اورط من السود وغيرهم وبأشر تمرينهم على الحركات العسكرية بنفسه واستدعى ست اورط من الجنود المنظمة من السودان الشرقي وخذق على المدينة فهدد الخندق من النيل الازرق الى النيل الابيض وجعل عليه الابراج ووضع على الأبراج المدافع والحراس فذهب كل خوف من قلوب السكان وتوطدت السكينة وانتشر الامن في الخرطوم وما حولها .

واقعة محمد زين ٢٥ مايو سنة ١٨٨٢ م : واتفق انه حين وصول جيكر الى سنار قام في ابي شوكة فقيه من التكارنة يقال له محمد زين ونادى باسم المهدي فالتفت حوله جموع كثيرة من عربان رفاة الهوى. وأخذ يستعد للزحف على سنار فعقد جيكر للسر سواربي علي أغا كاشف على نحو الف نفر من

العساكر المنظمة والباشبوزق وأرسله الى ابي شوكة فقتل محمد زين وشتت شمله
وعاد برأسه الى سنار .

واقعة تيقو ٤ يونيو ١٨٨٢ م : وعاد جيكر الى الخرطوم فوجد عبد
القادر باشا مشتغلاً بتحسين المدينة فأخبره ان عامر المكاشف لم يزل مقيماً على
العداء في بركة تيقو فأمر صالح بك المك فأخذ اورطة من العساكر المنظمة
وسنجقين من الباشبوزق من سنار وسار الى تيقو فأوقع في رجال عامر موقعة
شديدة واضطره الى الانهزام ففرّ الى المهدي في قدير وعاد صالح بك بالفنائم
والأسرى الى سنار وكان بين الأسرى جماعة من اقارب عامر المكاشف فرفع
صالح بك امرهم الى عبد القادر باشا فأمر بشنقهم فشنقوا في سوق سنار .

واتضح لعبدالقادر باشا حينئذ خيانة بعض كتاب سنار ومعاونيها وتواطئهم
على الثورة مع عامر المكاشف فعزل جميع الكتاب والمعاونين وأرسل بدلاً
منهم طقماً جديداً من الخرطوم واستدعى الخونة وبينهم الزبير ود ضوه
صاحب تاريخ سنار المار ذكره ففرقهم في النيل الابيض .

هذا وكان قد وقع خلاف بين حسين بك شكري المدير وبين وكيله محمد
افندي جودت فعزلاً فأرسل عبد القادر باشا موسى بك شوقي مديراً على سنار
وجعل احمد بك مكوار من كبار تجار سنار وكيلاً له. ثم لم يلبث ان حصل
بينها منافسة ورُفع الامر الى عبد القادر باشا فعزل موسى بك وسمى بساطي
بك مديراً على سنار مكانه وأرسل اليه خليل افندي فؤاد يوز باشي اركان
حرب فساعدته على تحصين المدينة فأحاطها بسور منيع جعل فيه المزاغل
(الكوى) وحفر حوله خندقاً بعمق ٣ امتار وعرض مترين وجعل وراءه
زرباً متيناً من شوك ووضع العساكر على السور واستعد لكل طارئ مفاجيء.

الشيخ المضوي : ثم لم تكد تخمد نار الثورة في جزيرة سنار بطرد عامر
المكاشف من تيقو حتى كانت واقعة الشلاي وبث المهدي دعائه في الشرق
والغرب لمبايعة الناس له وحثهم على القيام بنصرة الدين وقتال الحاميات العسكرية

كما مرّ . وكان في جملة الدعاة الذين أرسلهم الى جزيرة سنار الشيخ المصوي عبد الرحمن من ذرية الشيخ ادريس ودالارباب المار ذكره في تاريخ سنار وهو من تلامذة الازهر النابغين وقد قاده المقادير الى مصر سنة ١٨٩٠ م فحدثني عن خبره مع المهدي في ذلك الحين قال: اني بعد ان أتممت دروسي في الازهر ذهبت الى بلاد كركوج في أعالي النيل الازرق فأقمت فيها حلقة للتدريس واشتغلت بالزراعة فلما ظهر محمد احمد بدعواه لم أحفل به ولكن لم يلبث ان انتصر على ابي السعود في جزيرة أبا ثم على راشد بك في جبل قدير وكثرت أقوال الناس بعجائبه وكراماته فاهتممت اذ ذاك بأمره وهاجرت اليه في جبل قدير لمشاهدته والوقوف على حقيقة حاله فوجدت عنده جموعاً كثيرة ينيفون على ١٥ ألف مقاتل من اخلاط الناس بينهم عدد كبير من العلماء ورجال الدين الذين جاؤوه من شرق البلاد وغربها بالقصد الذي جئت لأجله ووجدت العلماء معه فريقين فريقاً اعتقد او تظاهر بالاعتقاد بأنه المهدي المنتظر لا ريب فيه وجميع العامة من رأي هؤلاء وفريقاً قالوا انه ساحر وانه انما فاز بالحرب بسحره لا بمهديته وأما انا فقد رأيت منه اموراً حملتني على الارتياب بأمره : فأولاً اني رأيتـه يؤثر اقاربه وأخصائه بالغنيمة على بقية جيشه ولا يقسم بينهم بالتساوي كما يطلب الشرع . وثانياً اني رأيت بعض أنصاره نزلوا على تجار سائرين في تجارتهم فقتلوهم وأخذوا اموالهم ووزعوها بينهم ولم ينكر عليهم ذلك ولا قاصهم . وثالثاً اني رأيتـه يقول ان من أنكر مهديتي فقد كفر مع ان أركان الايمان في الاسلام التي اذ انكر الانسان ركناً منها يعدّ كافراً هي ستة . والايمان بالمهدي ليس منها ، ورابعاً اني لم أر فيه شيئاً من العلامات الاجمالية التي أعرفها عن المهدي . ولكنني أردت التخلص منه فأظهرت له الاعتقاد التام بمهديته واستأذنته في العودة الى أهلي لأحرضهم على اتباعه والجهاد في سبيل الله فأجابني الى ذلك وجعلني عاملاً عاماً على جزيرة سنار وأصبحني أميرين من اهل الجزيرة ليساعداني على الجهاد وهما : «ود الصليحاني» من الفقهاء المعتقدين عند عربان رفاعة الهوي «وود برجوب»

من فقهاء اللحيين فودعته وسرت في طريق سنار ومعى الاميران المذكوران
وبعض الاصحاب . وفي الطريق سألتى الاميران عن رأيي في المهدي
فصرحت لهم برأبي فيه وقلت الأولى بنا ان نتشبت في مثل هذه الأمور
التي تلتبس على الناس فإن كان هذا الرجل هو المهدي المنتظر كما يزعم فلا بد
ان يظهر ولو قاومته الانس والجن وعند ذلك تتبعه على بصيرة وإن كان
كاذباً في زعمه سلمنا من شر الحروب والفتن فالرأي الآن ان نتفرق الى أوطاننا
حتى نرى ما سيكون من امره . وسرنا حتى وصلنا الجبلين على النيل الابيض
فوجدنا عربان رفاة الهوي متجمعين عنده الوفاً متلهفين لسماخ اخبار المهدي
وقد أقبلوا علينا يقبلون أيدينا وأرجلنا . ويتمسحون بنا تبركاً لأننا من
اصحاب المهدي فلما رأى اصحابي من العرب هذه المظاهر العظيمة قالوا : لا
شك ان محمد احمد هو المهدي وهذا نور المهدي قد ضاء في قلوب الناس وعقدوا
مجلساً في ذلك الليل أجمعوا فيه على ان يقبضوا عليّ ويمنعوني السفر الى اهلي
فأتى صاحب لي كان حاضراً المجلس وأخبرني بالذي نوا عليه فلما اصبحت
ذهبت اليهم فرأيتهم متغيرين فقلت ما بالكم قد تغيرتم من نحوي ألا تعلمون
ان الكلام الذي كلمتكم به امس بشأن المهدي عليه السلام انما اقصد فيه
اختباركم وسبر غوركم وأتيقن صدق عقيدتكم لأن الامر الذي نحن بصدده
امر عظيم لا يقدم عليه الا كل رجل صلب العقيدة ثابت العزم قوي الجنان
فسرّني عنهم ما كان من قبلي وسمحوا لي بالسفر على وعد ان آخذ عائلتي من
كر كوج وارجع اليهم فأخذت عائلتي من كر كوج وذهبت الى اهلي قرب
الخرطوم فدعاني عبد القادر باشا وسألني عن المهدي فأخبرته بالواقع وبقيت
الى ان كانت واقعة شيكان وانتصر المهدي على هكس باشا فقامت الارض
وقعدت فلم يسعني اذ ذاك الا القيام بنصرة محمد احمد فكنت من جملة الذين
حصروا الخرطوم « اه .

ود الصليحابي وواقعة الجبلين : هذا ما كان من المضوي . اما ود
الصليحابي فانه رفع راية المهدي وضمّ تحتها عربان رفاة الهوي وتبعه ود

برجوب فشق على محمد مالك ابي روف شيخ عربان رفاعة الهوي انحياز قسم كبير من عربانه الى ود الصليحاي وخروجهم عن طاعته فأبلغ الخبر عبدالقادر باشا في الخرطوم فجمع في الكوة جيشاً من عساكر الدويم وسنار فيه ١٠٠٠ من العساكر المنظمة و ٨٠٠ من الباشبوزق و ٤٠٠ من عربان رفاعة الهوي ومعهم شيخهم محمد ابو روف وعقد لواءه للسعيد بك حسين الجميعاي المار ذكره في تاريخ سليمان الزبير فسار بالجيش في البر والبحر حتى أتى الجبلين فأنزل العساكر الى البر ونظم الجيش « مربعاً » جاعلاً عربان محمد مالك ابي روف ضلعاً من اضلاعه فتلقاهم ود الصليحاي يجموعه وانتشب القتال فتقلت نيران المربع على عربان ود الصليحاي وكثر القتل فيهم فداروا حتى قابلوا ضلع مالك ابي روف فوجدوا رصاصه خفيفاً فدخلوا المربع من جهته وقيل ان مالكا ابا روف فتح لهم الطريق عمداً لأنه رأى كثرة القتلى فيهم وهم عربانه فشق عليهم فاختلطوا بالعساكر وفتكوا بهم حتى لم يبق منهم سوى ٥٠٠ رجل من نظامية وباشبوزق فقادهم السعيد بك الى الواور وعاد بهم الى مركزه في الدويم فتحصن فيه وعاد أبو روف برجاله الى سنار . وقد عرفت هذه الواقعة بواقعة الجبلين وكان تاريخها اواخر شعبان سنة ١٢٩٩ هـ أواسط يوليو سنة ١٨٨٢ م .

ود برجوب : أما عربان رفاعة الهوي فانهم نفروا من ود الصليحاي لانخذالهم في بادىء الأمر على يده فانحازوا الى ود برجوب وبقوا في الجبلين الى ان جاءتهم الطامة الكبرى من جيش هكس على ما سيجيء .

احمد المكاشف وسقوط شات : هذا وكان في جملة الدعاة الذين بشهم المهدي بعد واقعة الشلاي لناوأة الحكومة في جزيرة سنار الشيخ احمد المكاشف اخو عامر المار ذكره فجمع العربان في الطريق ونزل على شات في ٨ اوغسطس سنة ١٨٨٢ وكان فيها ٢٠٠ رجل من الباشبوزق عليهم السر سوارى مدني ود شنبول فقتلهم عن آخرهم وغنم أسلحتهم وذخائرهم .

واقعة الدويم الاولى : ونزل في وجهه على الدويم وكان السعيد بك لم يزل فيها وقد جمع الى الخمماية رجل الذين سلموا من واقعة الجبلين ٥٠٠ من الجعافرة المتطوعة وسلحهم بالاسلحة النارية وتحصن في طابيته فتلقى احمد المكاشف بنيران للمدافع والبنادق وردة على الاعقاب بعد ان قتل من جيشه ما زاد عن الالف وكان ذلك في ٢٨ اوغسطس سنة ١٨٨٢ م .

عبد الباسط وواقعة الدويم الثانية : فلما رأى عربان الدويم انخذاهم مع احمد المكاشف هجروه فاجتاز النيل الابيض وذهب الى سنار فألقى عليها الحصار كما سيجيء وولّى عليهم المهدي رجلاً منهم يسمى عبد الباسط المصري من مشايخ الطريقة السمانية وأمره بحصر الدويم ولما طال الحصار بعث عبد القادر باشا بيجكر من الخرطوم فأخذ عساكر الدويم وهاجم العربان في ديمهم فقتل منهم خلقاً كثيراً وشنتهم كل مشنت وأخذ عبد الباسط اسيراً فأتى به الى عبد القادر باشا في الخرطوم فشنته وكانت هذه الواقعة في ١٨ نوفمبر سنة ١٨٨٢ م .

فضل الله ود كريف ، وواقعة ام سنيطة : وفي هذه الأثناء ظهر في غربي الجزيرة فقيه يدعى فضل الله ود كريف فرفع راية المهدي وشهرالعصيان وقطع خط التلغراف بين الكوة والمسلمية فأرسل عبد القادر باشا امراً الى البكباشي حسن عثمان الكريتلي فخرج من الكوة بخمماية رجل من جهادية وباشبوزق لقتال ود كريف فالتقاه في ام سنيطة على يوم ونصف يوم من الكوة فما انتشب القتال حتى دخل عرب ود كريف في عساكره وأعملوا فيهم السيف والحربة فقتلوا نصفهم وهزموا الباقي الى الكوة وذلك في اواسط ديسمبر سنة ١٨٨٢ م .

احمد المكاشف وحصار سنار : ثم ان احمد المكاشف بعد انهزامه من الدويم ودخوله الجزيرة هيج العربان فالتفت حوله جموع كثيرة فنزل بهم في حلة الحجاج مسيرة ست ساعات من سنار وأخذ يستعد للزحف على سنار فلما

علم به بساطي بك ارسل الصلغ حسن افندي حسني بجمسية من العساكر المنظمة فهاجمه في مركزه فتغلب المكاشف عليه وقتله وقتل مئة رجل من عسكره وتقدم بنحو ١٠ آلاف مقاتل لمهاجمة سنار ثم احجم عنها لمناعتها فنزل في مشرع الداعي على نحو ٢٠ ميلاً شمالي سنار وألقى عليها الحصار وقطع خط التلغراف وطريق البوسطة بينها وبين الخرطوم .

واقعة معتوق : فلما رأى عبد القادر باشا اشتداد الخطب في الجزيرة عزم على مباشرة القتال بنفسه فخرج من الخرطوم في ٢ يناير سنة ١٨٨٢ م وأتى عبود عن طريق المسلمية فجمع اليها نحو ١٦٠٠ من العساكر المنظمة و ١٠٠٠ من الباشبوزق وتقدم الى ود كريف فالتقاه عند غابة قرب معتوق فأوقع فيه واقعة شديدة وهزمه ففر الى حيث ألفت .

واقعة الداعي في ٢٤ فبراير سنة ١٨٨٣ : ثم اخذ يستعد لسحق احمد المكاشف فجاء بجيشه الى الكوة فوجد فيها البكباشي حسن افندي عثمان السالف الذكر ومعه ٧٠٠ من العساكر السود و ٤٠٠ من الباشبوزق فضمهم الى جيشه وارسل الجميع بقيادة سليم بك عوني بطريق الجزيرة الى ود مدني ونزل في الواور الى الخرطوم فأتته الشؤون التي كانت تنتظره فيها ثم ركب النيل الازرق الى ود مدني وقاد العساكر قاصداً احمد المكاشف في مشرع الداعي . فلما علم المكاشف بقدمه وضع النساء والاولاد الذين في ديمه على بعد مرمى الرصاص تجاه سنار وفي أيديهم البيارق ليوم اهل سنار انه قادم لحرهم فيشغلهم بأنفسهم عن نصر عبد القادر ثم اخذ انصاره وخرج الى ظاهر المشرع فتلقاه عبد القادر بنار حامية فصبر على ناره ٣ ساعات متوالية حتى قتل من جيشه الف رجل ونيف فانهزم الى جبلي سقدي ومويه وقد أصابت عبد القادر رصاصة في جنبه فحطمت ساعته تحطيماً ولكنها لم تضر به وجرح من عسكره ٢٧ رجلاً ولم يقتل احد . وعرفت هذه الواقعة بواقعة الداعي وتاريخها يوم السبت في ١٦ ربيع آخر سنة ١٣٠٠ هـ ٢٤ فبراير سنة ١٨٨٣ م .

ودخل عبد القادر باشا سنار يوم الاثنين فعقد لصالح بك الملك على جميع الباشبوزق الشايقية والاتراك وكانوا ينيفون على ١٢٠٠ رجل وأمره بمطاردة احمد المكاشف فقصده الى جبلي سقدي ومويه وأوقع فيه في ٢ مارس سنة ١٨٨٣ م وهزمه شر هزيمة بعد ان قتل نحو ٦٠٠ من انصاره وفي جملتهم اخوه وصهره فقطع رأسها وأتى بها الى عبد القادر في سنار . اما احمد المكاشف فانه فرّ الى ود برجوب في الجبلين . واما اخوه عامر فانه بعد وصوله الى المهدي في قدير أمره بالانضمام الى اخيه احمد الذي كان قد ترك قديراً فجاء يبحث عنه فالتقى به في سقدي ومويه بعد انهزامه من مشرع الداعي فانهمر معه الى الجبلين .

الحاج احمد عبد الغفار وواقعة التبنة: هذا وكان قد صحب احمد المكاشف من عند المهدي الحاج احمد عبد الغفار من عرب كنانة القاطن في جوار كركوج فتركه في مشرع الداعي محاصراً سنار وأتى الى بلاده وأخذ يحشد الجيوش لحصر كركوج فلما عاد صالح الملك من مطاردة المكاشف اخذ عبد القادر باشا الجيش وزحف على عبد الغفار فالتقاه في التبنة قرب الرصيرص فقتل من جيشه خلقاً كثيراً وشتت شمله كل مشتت وكان ذلك في ٢٧ جهاد اول سنة ١٣٠٠ هـ ٢٦ مارس سنة ١٨٨٣ م . وقد قتل في هذه الواقعة والوقائع التي تقدمتها عدد كبير من عربان رفاة الهوي فاغتم لذلك الشيخ احمد عم الشيخ محمد ابي روف وقال لعبد القادر باشا « لقد أفنيت الرعية ببطشك يا سعادة الباشا فدع عنك هذه المناوشات واقتل الدببية من رأسها » فأجابه عبد القادر باشا « اذا لم نظفر برأسها ياشيخ العرب نقطع من ذنبها حتى ندرك الرأس فنسحقه » . وهكذا نكث عبد القادر باشا بزعماء الثورة في سنار واحداً واحداً وملا قلوب الاهلين رعباً وخوفاً واشتهر عندهم بالبطش والدربة وحسن السياسة وقد حصن الحاميات في كل الجهات وحمل علماء الخرطوم على نشر الرسائل في تكذيب محمد احمد وضيق عليه وعلى انصاره المسالك فهو هو الرجل الذي كان يصلح للسودان حينئذ ولكن قيل ان بعض الحساد وشوا به فاتهموه

بارادة الاستقلال في البلاد وقبلت وشايتهم فاستدعى الى مصر وُسمي علاء الدين باشا حاكماً على السودان مكانه كما سيجيء .

وكان عبد القادر باشا قد أرسل صالح بك الملك الى فامكه لكشف خبرها فترك باقي العساكر بقيادة الميرالاي سليم بك عوني وعاد الى مصر وعاد سليم بك الى سنار بعد ان أبقى حامية من العساكر في كركوج لحفظ خط الاتصال بين سنار وفامكة وبقيت هي وحامية فامكة الى ان عادت الثورة فعادت الى سنار على ما سيجيء .

هذا ما كان من الثورة في جزيرة سنار فلنتقدم الآن الى ما كان منها في كردوفان .

الفصل السادس

في

وقائع الثورة في كردوفان

سنة ٢ - ١٨٨٣ م

المكي ود ابراهيم في دار سحره: كان اول من ثار على الحكومة في كردوفان المكي ود ابراهيم من مشايخ حمر هاجر الى المهدي في قدير فبايعه ورجع منه اميراً على قومه في ١٠ جمادى الاولى سنة ١٢٩٩ هـ ٣٠ مارس سنة ١٨٨٢ م فوجد البكباشي نظم افندي مع نفر من العساكر المنظمة والباشبوزق يجمع الضرائب من دار حمر فحرض قومه على عدم دفعها وطرد نظم افندي من الدار.

حامد ود السنجق وسقوط ابي حراز : فليجاً الى ابي حراز حيث كان محمد آغا رحمة الشايقي محافظاً مع نفر من العساكر فوجد البديرية أهل تلك الجهة قد تجمعوا على شيخهم حامد ود السنجق في منهل المشقة على نحو ساعتين من ابي حراز وحصروا البلدة فخرج عليهم العساكر واهل البلدة في ٩ ابريل سنة ١٨٨٢ فردوهم على أعقابهم وتبعوهم الى ابي حراز فاعتصم العساكر في ديوان الحكومة والاهالي في الجامع فحصروهم في المكانين المذكورين فلما أرخى الليل

سدوله فرّ العساكر الى الابيض فدخلوها، الاثني عشر في ١٠ ابريل وبقي اهل البلدة محاصرين في الجامع ثلاثة ايام حتى اشتد بهم العطش والجوع فسلموا .

واقعة البركة في ١٨ مايو سنة ١٨٧٢م: وسرى روح الثورة الى الحوازمة والغديّات فاجتمعوا على حامد ود السنجق حتى بلغ انصاره نحو العشرين الفا فنزل بهم في منهل البركة فجهز سعيد باشا مدير الابيض سرية من العساكر فيها ٤٠٠ من الجهادية و ٦٠٠ من الباشبوزق و ٨٠٠ من المتطوعة وعقد عليها للكبائي تنظيم افندي وكان على المتطوعة عمر ود دفع الله من الابطال المعدودين فسارت السرية بهيئة « مربع » المتطوعة ضلع منها والحمة في الوسط فخرج عليهم العرب ودخلوا المربع من جهة المتطوعة واشتغلوا ينهب جيل الحمة فصوبت العساكر اذ ذاك نيران بنادقهم اليهم والى الحمة معاً ففتكوا بهم وقتلوا منهم الف رجل ونيفاً وهزموم شر هزيمة واستولوا على المنهل المذكور وكان ذلك يوم الخميس في ٢٦ جمادى الآخرة سنة ١٢٩٩ هـ ١٨ مايو ١٨٨٢م .

خراب اسحف في ٢٥ مايو سنة ١٨٨٢: ثم ان المنكي ابراهيم صاحب حادثة الحمر حشد جيشاً من عربانه وزحف على اسحف وهي نقطة عسكرية على ١٠ اميال غرب بارة وفيها السر سوارى محمد اغا شبو محافظاً مع ٢٠٠ رجل من الباشبوزق والنور عنقرة المار ذكره متقاعداً والشيوخ عثمان حامد عمدة البلدة وجابر اغا الطيب ناظر القسم فخرجوا لقتال المنكي ابراهيم بهيئة « مربع » جاعلين البلدة في الوسط فكان كل منهم مع رجاله في جانب من المربع فاخترق المنكي ود ابراهيم صفوفهم ودخل المدينة ونهبها وأحرقها وقد نجا النور عنقرة ببعض اتباعه الى بارة وكان معه النحاس « المنصورة » الشهير المنار ذكره في تاريخ الفور فتركه غنيمة للثائرين وآل بعد ذلك الى الخليفة عبد الله فاتخذته نجاساً له . اما محمد اغا شبو فانه نجا بعساكره بعد كفاح شديد ودخل بارة الخميس في ٧ رجب سنة ١٢٩٩ هـ ٢٥ مايو سنة ١٨٨٢ م .

السماني وواقعة بازة في ١٧ يونيو سنة ١٨٨٢ : وبعد واقعة اسحف

حضر رجل لحاوي يدعى السباني من قبل المهدي فاتحد مع المكي ود ابراهيم وأخذ يستعد للزحف على بارة وكان في حاميتها اذ ذلك ٩٠٠ رجل من نظامية وباشبوزق بقيادة الصاغ سرور بهجت فاستقدم سعيد باشا العساكر من البركة وأرسل الى بارة ١٦٠٠ من العساكر النظامية والباشبوزق مع البكباشي محمود حسن فدخلوها في ٦ يونيو سنة ١٨٨٢ م . وكان سعيد باشا في بدء الاضطراب في كردوفان قد ارسل يطلب المدد من الخرطوم فأرسل اليه عبد القادر باشا ٤٠٠ من العساكر المنظمة و ١٦٠٠ من الباشبوزق بقيادة البكباشي محمد الفولي فوصلوا بارة ثاني يوم وصول النجدة من الأبيض فاجتمع في بارة نحو ٥٠٠٠ رجل من نظامية وباشبوزق وكان في الأبيض الميرالاي علي بك شريف (مدير دارفور قبل سلاطين باشا) متقاعدأ فجاه قومنداناً عليهم وأخذوا يستعدون للدفاع . وكان على حامية بارة زريبة من شوك فشرعوا في حفر خندق من داخلها وقبل ان يتموه حضر السباني بجيوش لا اعداد لها فتلقاهم العساكر بالمدافع والسواربخ والبنادق ففتكوا بهم فتكأ ذريعاً وهزموم شر هزيمة فخرجوا من الخندق في اثرهم يقتلونهم حتى أخرجوهم من اكناف بارة وقد قتل منهم في هذه الواقعة نحو ٥٠٠٠ رجل .

وتجمع الباقون في منهل شتوره غربي بارة فكتبوا الى المهدي عما جرى لهم فأرسل اليهم عبد الله ود النور من أخص عماله فتولى قيادتهم وعاد معظم المدد الى الابيض وبقي البكباشي محمود حسن بعسكره فلما علم بمقرر العرب خرج عليهم فطردهم منه فنزلوا في منهل ابي سنون فأرسل سعيد باشا تنظيم افندي من الابيض مدداً له وزحفا معاً على ابي سنون فأوقعا بعبدالله ود النور ففرّ الى منهل البركة وكتب الى المهدي عما أصاب أنصاره من الفشل في البركة وبارة وشتوره وابي سنون واستحثه على القدوم الى كردوفان بنفسه قبل ان تخمد حمية العرب ويرجعوا عن نصره .

وكان سعيد باشا قد بعث يطلب المدد من عبد القادر باشا فأرسل اليه

نصف اورطة جهادية من سنهيت وسبعة سناجق من الباشبوزق بقيادة البكباشي باشا حماد وصحبهم محمد باشا امام الملقب بالخير حاملا مدداً من الذخائر الى الفاشر فدخلوا الابيض في اواسط يونيو سنة ١٨٨٢ م .

المنّة ود اسماعيل وسقوط الطيارة في ٦ اوغسطس سنة ١٨٨٢ : وكان في جملة الذين عاهدوا المهدي على الجهاد في كردوفان المنة اسماعيل شيخ قبيلة الجوامعة فحشد نحو عشرين الفا من عربانه وهاجم حامية الطيارة وكان للحامية خندق عظيم ومتراس وحولها زرب من شوك ولكن لم يكن فيها من العساكر سوى ١٣٥٠ رجلاً من جهادية وباشبوزق وعليهم اليوزباشي محمد الشافعي قومنداناً فصدّوا هجوم المنة مرتين وطلبوا المدد من سعيد باشا فوجه اليهم خليل اغا السنجق ومعه ٦٠٠ من العساكر الجهادية والباشبوزق ومدفع واحد ولكن قبل وصول المدد الى الحامية هاجمها المنة اسماعيل ثالث مرة مستقلاً فأخذها عنوة وأعمل في اهلها السيف والحربة فلم ينج منهم الا اليسير . وكان ذلك في ٢١ رمضان سنة ١٢٩٩هـ ٦ اوغسطس سنة ١٨٨٢م .

وفي اليوم التالي انقلب المنة على العساكر الآتين من الابيض فقتلهم عن آخرهم وأرسل البشائر الى المهدي في تقدير وعبد الله ود النور في البركة وقطع خط التلغراف والبوسطة بين الابيض والخراطوم وأقام في الطيارة منتظراً الامر .

وكان في خورسي نحو ٣٠٠ رجل من الباشبوزق مع احمد اغا الشايقي فلما كانت واقعة الطيارة ارسل اليهم سعيد باشا فأتوا بارة في ١٦ اوغسطس سنة ١٨٨٢ م ولم يبق في كردوفان الى هذا العهد سوى حاميقي الابيض وبارة وحامية صغيرة في جبل الدلان ومجموعها كلها ٨٧٥٠ رجلاً من نظامية وباشبوزق .

وكان سعيد باشا منذ حادثة ابي حراز قد شرع في تحصين الابيض فحفر

حولها خندقاً وأقام من ترابه متراساً وأحاطه بزريبة من شوك ووضع عليه
العساكر وفرّق الأسلحة على أهل البلد وجعلهم على الخندق مع العساكر .
هكذا كانت حال كردوفان لما أتاها المهدي غازياً من قدير وهناك تفصيل
غزوته :

الفصل السابع

في

وقائع المهدي في كردوفان

سنة ٢ - ١٨٨٣ م

غزوة المهدي للأبيض في ٢٨ يوليو سنة ١٨٨٢ : وكان للمهدي في الأبيض انصار اهل ثروة ووجاهة أخصهم الياس باشا ام برير الجعلي النفيعايي وهو من أكابرالتجار وقد تولى مديريةة الابيض مدة ثم عزل عنها قيل لاشتراكه سرأ في حركة سليمان الزبير وكان بينه وبين احمد بك دفع الله من أعيان التجار ضغائن شخصية شديدة والنحاز سعيد باشا المدير الى احمد بك فاشتد حنق الياس باشا عليها ولم يكن يقوى عليها مع الحكومة فأنحاز الى المهدي للانتقام منها وأنفذ رسله سرأ الى المهدي بقدير فحثه على مهاجمة الابيض وأكد له النصر وذلك قبل واقعتي راشد والشلاي لكن المهدي شعر من نفسه اذ ذلك بالعجز عن اتخاذ خطة الهجوم فاكتفى ببثّ الدعاة لتهييج الناس على الحاميات كما مر . ثم كانت واقعة راشد ثم واقعة الشلاي وكثرت الوفود اليه حتى ضاقت به بلاد قدير وتحتم عليه النزوح الى بلاد أوفر خيراً واكثر اتساعاً وكبرت نفسه لتوالي النصر عليه فتطلب الهجوم بدل الدفاع وكان الياس باشا

لم يزل يستحثه على مهاجمة الابيض وقد وثق المهدي به حتى انه أرسل اليه اسماعيل العمرابي من قدير بالذهب والفضة التي غنمها من راشد والشلاي فباعها وأرسل اليه ثمنها ومهد له السبيل داخل الابيض وخارجها وكان عبد الله ود النور قد كتب اليه يستعجله الى كردوفان كما مرّ فاجتمعت له هذه الأسباب كلها على غزو الابيض .

فلما كان اليوم الثاني عشر من رمضان سنة ١٢٩٩ هـ ٢٨ يوليو سنة ١٨٨٢ م خرج غازياً الابيض يجمع من كان معه من الجيوش إلا العواجز والمرضى واصحاب الاعذار فانه أبقاهم في جبل قدير عند محمود عبد القادر احد أقاربه الذي استعمله على دار هجرته وأبقى عنده المدافع والاسلحة النارية التي غنمها من المصريين لأنه لم ير داعياً الى أخذها . وكان معه من الجيوش نحو ٢٠ ألفاً قيل خرج بهم من قدير وهم لا يعلمون الجهة التي يريدونها حتى أتوا جبل الجراة فقال لهم « ان سيد الوجود أمرني بالتوجه الى كردوفان فان الترك فيها آذوا المسلمين وضيقوا عليهم » . ثم كتب من هناك الى عامله عبد الله ود النور أنه قادم يجيشه الى غزوة الابيض وأمره بأن يجمع رجاله ويقابله بالقرب منها . وسار من جبل الجراة فنزل بمحل يدعى اللخة وأقام به ثلاثة ايام وفيه أمر بقتل شخصين لأنها قتلا نفساً بريئة . ثم سار حتى نزل بجرجر ام لوبه وقد كان عند خروجه للسفر صائماً رمضان والناس معه صائمون حتى وصل الى هذا المكان فأفطر وأمر الناس فأفطروا . ثم استطرد السير في بلاد النوبة فنزلت الامطار في الطريق وفرغت أزواد جيشه فجاعوا وتعابوا فسار ببطء ومشقة حتى أتى البركة فوجد عبد الله ودالنور في انتظاره بنحو عشرة آلاف مقاتل فأقام في البركة أياماً للراحة . ثم زحف يجيشه على الابيض فنزل في منهل كابا على ستة أميال الى الجنوب الغربي من المدينة وذلك يوم الجمعة في ١٧ شوال سنة ١٢٩٩ هـ ١ سبتمبر سنة ١٨٨٢ م وكان قد كتب للمنة اسماعيل ليوافيه اليها من الطيارة فكث في كابا في انتظاره وأرسل فرسانه لاستطلاع الابيض . ثم انتدب رجلين من اصحابه وهما محمد المغربي وود جلي الزبادي وأرسلهما

بكتابين الى الابيض احدهما الى سعيد باشا ورؤساء الجيش والآخر الى سكان
المدينة من علماء وأعيان وتجار وغيرهم دعاهم فيها الى التسليم وحقق الدماء
متهدداً إياهم بالقتل اذا لم يسلموا فدخل الرسولان المدينة وكل منها متقلد سيفه
وحريته فسما الكتابين الى محمد سعيد باشا فجمع الضباط والعلماء والأعيان
وأمر بأن يتلى عليهم الكتابان ثم سأهم عن رأيهم فيها فقال الضباط لا رأي
لنا إلا الحرب أما التجار والأعيان والعلماء فانهم لم ينطقوا ببنت شفة ولكن
لاحت على وجوههم سمات الميل الى المهدي إلا احمد بك دفع الله فانه انتصب
في المجلس وقال أما انا فقد اخترت الحرب مع الجند والدفاع الى آخر نسمة
من حياتي . ثم التفت سعيد باشا الى الباقين وقال وأنتم ما الذي أجمعتم عليه
فبقوا صامتين ولما ألح عليهم في الجواب قالوا نتشاور في بيوتنا ثم نجيبكم
وكان الياس باشا قد فاز باستمالة معظم الأهلين الى حزبه فأجمعوا على الفرار
الى المهدي وقد علم احمد بك دفع الله ذلك منهم وحرّض المدير على حبسهم فلم
يصنع اليه خوفاً من وقوع الفشل في الحامية فان الياس باشا وسائر التجار
والأعيان كان لهم سلطة نافذة على الأهلين وكان عند كل منهم من ١٠٠ رجل
الى ١٥٠ رجلاً مسلحين بالأسلحة الكاملة فكان يطاولهم حتى تتسنى له الفرصة
فينكثل بهم الواحد بعد الآخر فأذن لهم في الانصراف فانصرفوا الى منازلهم .
وخرج من المجلس فرأى الرسولين قد اجتمع عليها نفر من العساكر والأهلين
وهما يكلمانهم ببذاءة واستخفاف ويقولان لهم « أيها النصارى الكفار سوف
نقتلكم ونكلكم كما فعلنا مجردتي راشد والشلاي » فاغتاظ سعيد باشا والضباط
من بذاءتها وطلبوا من العلماء الاقتناء بقتلها فأبوا قائلين ان الشرع لا يسمح
بذلك فأصرّ الضباط خصوصاً اسكندر بك قائمقام العساكر على قتلها فشنقا
على الزاوية الجنوبية الشرقية من السور وفرسان المهدي الذين أرسلهم لاستطلاع
الابيض تنظر اليهم من بعيد . وقد أراد الضباط بقتل الرسولين ان يستخفوا
بقوة المهدي ويلقوا الرعب في قلوب الأهلين الذين عوّلوا على اللحوق به .
ولكن قتلها لم يؤثر شيئاً في ما نواه الأهلون فانه ما خيم الظلام حتى أخذوا

يتسللون من خط النار ثلة بعد ثلة ويأتون الى المهدي في كبا وفي مقدمتهم الياس باشا وقومه والحاج خالد العمرابي وجرجي استامبولي الحلبي من أعيان التجار ومحمد باشا امام المار ذكره حتى لم يبق في المدينة من الأهلين سوى احمد بك دفع وأتباعه وعددهم ٤٠٠ رجل فيهم ابن خالته عبد الله ود ابراهيم وابراهيم ود عدلان والمرسلين النمساويين وهم ثلاثة رهبان وخمس راهبات ولهم كنيسة .

وكان في الحامية من العساكر ثلاث اورط نظامية من المصريين وخمسة عشر سنجقاً من الباشبوزق الشايقية والاتراك والمتطوعة في كل سنجق من ١٠٠ رجل الى ١٥٠ رجلاً وجملة العساكر نحو ٦٠٠٠ رجل ولم يكن عددهم كافياً لحماية السور العظيم الذي أقاموه في بدء الحصار فلما علموا بقدم المهدي لمهاجمة الابيض شرعوا في حفر خندق مربع داخل السور العظيم على قدرهم فاشتغلوا فيه الليل والنهار حتى أتموه وجعلوا فيه القشلاق ومحل الذخيرة وديوان المديرية والشونة وجعلوا وراءه زرباً متيناً من شوك وأقاموا عليه خمسة ابراج برجاً في كل زاوية وبرجاً في وسط الضلع الشرقي تجاه مركز المديرية واصطف العساكر الجهادية والباشبوزق على الاضلاع هكذا :

١ - البكباشي محمد الفولي ومعه نصف اورطة جهادية و ٣ سناجق على الضلع الشمالية .

٢ - البكباشي محمد نظم ومعه اورطة جهادية و ٩ سناجق على الضلع الجنوبية .

٣ - البكباشي باشا حماد ومعه نصف اورطة جهادية و ٤ سناجق على الضلع الشرقية .

٤ - البكباشي محمود حسن ومعه اورطة جهادية وسنجقان على الضلع الغربية .

ووقف احمد بك دفع الله برجاله على الضلع الشمالية مع محمد الفولي ومكثوا ينتظرون هجوم المهدي ومعه الملازم يوسف منصور ضابط بوليس الابيض .

واقعة الابيض ٨ سبتمبر سنة ١٨٨٢ م : أما المهدي فانه لما علم بقتل الرسولين واصرار العساكر على الحرب صتم على الهجوم وأمر أصحابه بالاستعداد ووصل المنة اسماعيل فأمره بالنزول في خور طقتت تجاه الزاوية الشمالية الشرقية من الاستحكام . ولما كان فجر يوم الجمعة في ٢٤ شوال سنة ١٢٩٩ هـ ٨ سبتمبر سنة ١٨٨٢ م جمع جيوشه فصلى بهم الصبح ثم خطب فيهم خطبة حماسية وحشهم على الجهاد وقال « ان ابواب الجنة مفتوحة للشهداء فاذا استشهد احدكم في هذا الجهاد تأتيه الحور العين من الجنة يجامات من الفضة والذهب وتسقيه أطيب الشراب وتحمله الى حيث أعدت له ما لم تره عين ولا سمعت به أذن ولا خطر في بال انسان » ثم حذّروهم من الفرار وأمرهم بالهجوم هكذا : الشيخ المنة اسماعيل الذي نزل في خور طقتت والقاضي احمد ود جبارة من الزاوية الشمالية الشرقية وفرسان البقارة من الزاوية الشمالية الغربية وهو مع خلفائه ومعظم جيوشه من الزاوية الجنوبية الشرقية .

قال لي ضابط حضر الواقعة : « قُدّر عدد جيوش المهدي في هذا اليوم بنحو ٥٠ الف مقاتل فيهم ٥٠٠٠ فارس وكلهم مسلحون بالسيوف والحراب فلما تقدموا نحونا ارتفع غبارهم حتى سدّ الأفق وسمعت صوت مشيهم كأنه هدير بحر عجاج ثم أطلوا فحسبنا الارض قد ماجت فاجتازوا الخندق الخارجي وهم سكوت ولما اقتربوا من الخندق الداخلي صاحوا كلهم بالتهليل والتكبير صيحة واحدة دوت لها الارض وحملوا على الحامية بالترتيب المشار اليه حملة رجل واحد فتلقاهم العساكر بنيران المدافع والسواربخ والبنادق وأمطروا عليهم من الرصاص ما كاد يحجب الشمس فحصدتهم النيران حصداً ولكنهم لم يزالوا يقتحمونها بجرأة وثبات غير مبالين بالموت والعساكر توالي رميهم بكرات المدافع ورصاص البنادق حتى سدّ الدخان الفضاء فتمكن نفر منهم من الدخول على العساكر في الخندق من طرف الضلع الشرقية عند الزاوية الجنوبية الشرقية التي هاجمها المهدي وخلفاؤه وكان سعيد باشا اذ ذلك يراقب القتال من سطح ديوان المديرية فلما رأهم دخلوا الخندق أسرع فأخذ جانباً من العساكر من كل

ضلع وتعقبهم فقتلهم عن آخرهم ثم أرجع العساكر الى محلاتهم على خط النار .
اما العربان المهاجمون للزاوية الجنوبية الشرقية فلما رأوا اخوانهم قد دخلوا
الاستحكام ظنوا ان الحامية اصبحت في يدهم فصاحوا صيحة النصر وحموا على
الحامية يرومون اختراقها فتلقتهم نيران العساكر أشد من قبل فردتهم على
أعقابهم ودام القتال من صلاة الصبح الى الظهر وقد حمى على العساكر حديد
البنادق فتوقوه بطرايبشهم ليتمكنوا من مواصلة اطلاق النار ومع ذلك لم يزل
العرب يوالون الهجوم الكرة بعد الكرة حتى صاروا اذا أرادوا التقدم داسوا
اخوانهم القتلى فعادوا اذ ذاك عن الحامية بالخزي والحسرة وقد قدرت
خسارتهم بعشرة آلاف الى اثني عشر الفاً وفيهم القاضي احمد ود جبارة قاضي
الاسلام المتقدم الذكر ومحمد وعبد الله شقيقا المهدي والشيخ ادريس شاعره
وعبد الله التيجاني كاتبه وأمين ختمه ونحو خمسين رجلاً من عشيرته . وخاب
أمل محمد باشا امام بالمهدي بعد هذا الانكسار واشتد به الأسف على الخيانة
التي ارتكبها بالفرار من الحكومة التي شرفته برتبها ووظائفها فشرب سماً
ومات بعد الواقعة بقليل . وأما خسارة العساكر فلم تزيد عن ٣٠٠ رجل .
وفرّ المهدي ناكصاً على عقبيه مع باقي جيشه الى كبا فأقام فيها حائراً ذليلاً
منكسر النفس .

ولو عمل سعيد باشا بمشورة احمد بك دفع الله وخرج للمهدي على اثر هذا
الانكسار ربما كان أخذ أنفاسه ومحا ذكره ولكنه خاف ان يخرج من
الاستحكام فيحتله المنة اسماعيل الذي رجع الى خور طقت فلم ير الخروج من
الاستحكام رأياً . وقد أمر عساكره ثاني يوم الواقعة فأبعدوا جثث القتلى عن
الخطى وشرعوا في تحصينه فزادوه عمقاً وأقاموا له سوراً من طوب وفتحوا
فيه المزاغل ومنتوا الزريبة فأصبحوا في « حصن » منيع .

اما المهدي فقد قيل ان خليفته التعايشي أشار عليه بالرجوع الى قدير
ولكن الياس باشا ثبتته ودله على حصار الابيض والتضييق عليها الى ان
يضطرها الى التسليم نظراً لقلّة أقواتها وعدم المدد .

حصار الابيض : وفي ضحى الاثنين قال المهدي لأصحابه : « أمرني سيد الوجود بمحاصرة مدينة الابيض الى ان يسلم أهلها او يهلكوا جوعاً». ثم خرج من كبا فنزل قرب الابيض على بُعد مرمى قنبلة منها بمحل يدعى الجزارة فيه آبار غزيرة تعرف بالعُشْر فرسم ديمًا واحتل وسطه وأنزل خلفاءه من حوله وبعدهم الأمراء فكبراء الجيش فعامتة وقد بنوا بيوتًا من قش وأقاموا على حصار الابيض . وكان المهدي قد أخبر اهل المدينة في الكتاب الذي ارسله اليهم ان يخرجوا اليه بأبنائهم ونساءهم ويتركوا أمتعتهم وأموالهم في منازلهم قال : « لأن الملائكة تحرسها لهم فلا يمسا احد حتى تُفتح المدينة فيعودون اليها فيجدونها كما تركوها » ففعلوا كما قال لهم وكان العساكر عند خروجهم مشغولين بجفر الخندق كما مرّ فكانوا يذهبون الى المنازل بالناوبة ويحملون منها كل ما وجدوه من حبوب وأمتعة وأموال وقد وجدوا في بيوت بعض التجار مطامير ثينة من الذهب والفضة والحلى فاقتسموها بينهم . وبعد الواقعة أمر سعيد باشا العساكر فانتشروا في أحياء المدينة وجمعوا كل ما استطاعوا جمعه من الغلال والمؤن . ثم ان اهل المدينة الذين فرّوا الى المهدي لما رأوا ان الملائكة لم تحرس منازلهم كما أخبرهم المهدي صاروا يأتونها خلسة بالجمال فيحملون ما استطاعوا حمله ويعودون الى ديم الجزارة فلما درى العساكر بهم أخذوا يتعقبونهم ويقتلون من ظفروا به منهم فانقطعوا عن الهجاء ولكن عربان المنة اسماعيل لم يزالوا يتسللون ليلاً وينهبون المنازل حتى منهم المهدي .

تسليم حامية الدلن في ١٤ سبتمبر سنة ١٨٨٢م : وكان المهدي قبل قيامه من البركة ارسل الملك عمر من فقهاء التكارنة بسرية من الانصار الى جبل الدلن وكان فيه بلوك من العساكر السود لمنع تجارة الرقيق وكنيسة للمرسلين النمساويين فيها قسيسان احدهما الأب اوهرولدر المشهور وأخان وثلاث راهبات فاضطروهم الملك عمر الى التسليم ونهب الكنيسة وخربها وساق الجميع الى المهدي في الجزارة وكان تسليمهم في ١٤ سبتمبر سنة ١٨٨٢ م .

ظهور نجم ذي ذنب : وفي ٢٨ من هذا الشهر ظهر في سماء السودان نجم ذو ذنب كبير قيل امتد في السماء كشرع السفينة وكان يطلع كل يوم قبيل الفجر ويمتد حتى يخفيه نور الشمس وبقي على ذلك اياماً . وفي خرافات اهل السودان ان ظهور مثل هذا النجم شؤم على البلاد فحسبه انصار المهدي شؤم على الحكومة وبالْحَقِيقَة انه كان شؤماً كبيراً على الفريقين :

تسليم بارة في ٥ يناير سنة ١٨٨٣ م :

ولما استقر المهدي في معسكر الجزائر أرسل المنة اسماعيل والامير رحمة ود منوفل الجامعي بعربانها لأخذ بارة وكان في بارة اذ ذاك اورطة نظامية ونحو ٢٤٠ رجلاً من الباشبوزق عليهم الصاغ سرور افندي بهجت قومنداناً ومعه النور عنقرة المار ذكره . وكان سعيد باشا قد أرسل بعد واقعة الابيض الى عبد القادر باشا يعلمه بالنصر ويسأله المدد فأرسل اليه عبد القادر باشا الميرالاي علي بك لطفي المشهور بأبي كوكبة على اورطتين من العساكر النظامية و ٧٥٠ رجلاً من الباشبوزق فتلقاهم الامير رحمة في مكان يدعى « كُوْ ود جفون » مسيرة يوم من بارة وكانوا عظاماً تُعابى فقتل منهم ما ينيف على الف رجل وغنم بنادقهم وذخائرهم وكان في جملة القتلى الاستاذ السيد احمد الازهري ابن الولي اسماعيل الكردي المشهور الذي صحبهم على ان يكون شيخ الاسلام وقاضي عموم غرب السودان . وفر من سلم منهم فطاردهم رحمة المذكور حتى قربوا من بارة فتلقاهم المنة اسماعيل وأصبحوا بين قوتين فبلغ الحامية ان العرب يحاربون النجدة فخرج النور عنقرة ببعض العساكر ففرق العرب عنها وفتح لها طريقاً فدخلت بارة في ١٠ الحجة سنة ١٢٩٩ هـ ١٨٨٢ م .

وكان في الحامية دنقلاوي يقال له احمد ود مالك يود الخروج الى المهدي لأنه من جنسه فاتفق مع المحاصرين ثاني يوم وصول النجدة فأضرم النار في بعض البيوت القريبة من الشونة والذخائر حتى اشغل العساكر ففرّ مع نفر

من اهله وفي الوقت نفسه هاجم العرب الحامية من الجهات الاربع فاشتغل بعض العساكر في اطفاء النار وثبت البعض الآخر على القتال فردوا العرب على اعقابهم . وفي اليوم التالي خرج النور عنقرة ليلاً بالعساكر وباغت المنة اسماعيل في معسكره فقتل من جيشه وغنم وعاد الى بارة . وكان سلاح أنصار المهدي الى هذا العهد السيف والحربة فلما نزل المهدي لحصر الابيض رأى ان السيف والحربة لا يفيان بالغرض فاستحضر الاسلحة النارية من قدير فوزعها على اصحابه وأرسل جانباً منها الى محاصري بارة فضيقوا على اهل الحامية ومنعواهم من الخروج ودام هذا الحال اياماً حتى فرغ زاد العساكر فأكلوا الخمير والكلاب والجلود وقد فرغت ذخائرهم او كادت فعقد الضباط والسناجق ومعهم النور عنقرة مجلساً للنظر في أمر نجاتهم فرأوا انهم اذا بقوا محصورين هلكوا جوعاً واذا خرجوا فان قصدوا الابيض فالابيض يحصرها المهدي وقومه وان قصدوا الخرطوم فهي بعيدة منهم والطريق معطشة فاذا نجوا من المحاصرين لم ينجوا من العطش فأقرروا على التسليم وخافوا اذا سموا للمنة اسماعيل ان يسيء معاملتهم أخذاً بثأره فكتبوا الى المهدي يسألونه ان يرسل اليهم اميراً للتسليم عن يده فأرسل اليهم عبد الرحمن النجومي بجيش كبير فسلموا له في ٢٥ صفر سنة ١٣٠٠ هـ ٥ يناير سنة ١٨٨٣ م فجاء بهم النجومي وبالمحاصرين الى ديم الجزائر فقابلهم المهدي بجيش كثيف وأطلق ٢١ مدفعا اعلاناً للنصر .

ثم تقدم اليه النور عنقرة وجميع الضباط والسناجق فبايعوه فطيب خاطرهم وعين لهم محلاً في المعسكر فأقاموا فيه . وقد فرج عنه فتح بارة بعض الغنم الذي ناله من انكساره في واقعة الابيض .

عود الى حصار الابيض : وكان المهدي لما استحضر الاسلحة النارية من قدير أنشأ راية جديدة ضمّ تحتها جميع الجهادية السود الذين كانوا في أسره وجعل عليها حمدان ابا عنجه أميراً فضيقوا على الابيض وقعدوا لها في كل مرصد .

اما حمدان ابو عنجه فهو عبد من المنضلة أبي العبيد المولدين في بلاد البقارة وقد خدم في جيش الزبير في بحر الغزال ثم في جيش ابنه سليمان ولم يسلم مع سليمان ولا فرّ مع رابع بل بقي في دار التعايشة فقبض عليه محمد زقل مدير داره في ذلك الحين وزجه في السجن ثم خرج من السجن وبقي في بلاد التعايشة الى ان ظهر المهدي فهاجر اليه وبايعه ودخل في راية التعايشي وعلم المهدي بسالته وتعوده على ادارة الاسلحة النارية فجعله اميراً على الجهادية كما تقدم . وكان ابو عنجه يأخذ رجاله ويختبئ بهم في منازل الابيض المهجورة ويترصدهم العساكر فكلموا واحداً منهم رماه بالرصاص حتى قتل عدة منهم وفيهم البكباشي باشا حماد قومندان الضلع الشرقية فقد أصابته رصاصة وهو جالس عند باب ديوان المديرية مع سعيد باشا فخر قتيلاً .

وفي آخر الشهر الرابع من الحصار نفذ الزاد من الحامية واشتد الجوع على العساكر حتى صار فرسانهم يخرجون الى اطراف معسكر الدراويش فيخطفون منه القوت او يذهبون الى حلة ابي صفيّة قرب الاستحكام فيأتون منها بالكوريب للتقوت به فتنبه المحاصرون لذلك فوقفوا لهم بالمرصاد وأحرقوا الكوريب . ودام الحصار على هذا الحال حتى ملّ العساكر واشتد بهم القحط فأكلوا ما عندهم من الخيل والحمير والكلاب والهررة والفيران ثم شرعوا في أكل الصمغ . وقد غلت الاسعار اذ ذلك غلاء فاحشاً حتى بلغ ثمن اردب الذرة نحو ٣٠٠٠ ريال والحمار ٥٠٠ ريال والفرخة ٤٠ ريالاً والبيضة ريالاً والفأر ريالين ورطل اللبن ريالين ورأس السكر ٥٠ ريالاً . ولما بلغ الباعة في معسكر المهدي غلاء الاسعار في الحامية الى هذا الحد صاروا يأتون اليهم سراً بالزاد فيبيعونه لهم بأثمان فاحشة حتى اتصل الخبر الى المهدي فأصدر أمره الى الكافة بمنع ذلك بتاتاً وتهديد من يخالف الامر بقطع يده ورجله من خلاف . فضاقت الامر بالعساكر وبلغت الجماعة حدّها حتى صار البعض ينيشون أوكار النمل ويخرجون منها الحب للتقوت به والبعض يأكلون جلود الأسرّة والأحذية وكلما دُجبت ماشية اجتمعوا عليها أفواجاً يختطفون دمها تسكيناً لحرارة

الجوع واجتزاء به من القوات .

وفوق هذا الجوع الذي أصابهم انتشر فيهم مرض فقر الدم والديزنتاريا فمات منهم من ١٠ : ٢٠ في اليوم . ولما اشتد بهم الحال الى هذا الحد أخذوا يتسللون من الحامية واحداً واحداً الى معسكر المهدي وكان في جملة الذين خرجوا للمهدي فراراً من الجوع ابراهيم ود عدلان فكان له في المهديّة شأن يُذكر .

تسليم الابيض في ١٩ يناير سنة ١٨٨٣ :

وكان سعيد باشا يتفقد العساكر على خط النار ليلاً ونهاراً ويثبتهم على الحصار وهو لم يزل يعلّل نفسه ويعلمهم بقدم النجدة من الخرطوم فلما سقطت بارة جاء بعض رجالها قريباً من الاستحكام ونادوا بالعساكر قائلين ان بارة سلمت والنجدة التي كانت آتية لانقاذكم قد أهلكها العرب في الطريق ومن بقي منها سلم مع حامية بارة فلم يصدقوا ما كانوا يسمعون حتى دخل عليهم في ١٠ يناير سنة ١٨٨٣ ضابط من ضباط بارة وأخبرهم بما كان من سقوط الحامية وهلاك المدد الآتي من الخرطوم وحدثهم عن الثورة في سنار والثورة العربية في مصر فسقط هذا الخبر على الحامية كصاعقة هدّت قواهم وقطعت رجاءهم .

ثم ان المهدي لما رأى كثرة اللاجئين اليه فراراً من الجوع وعلم تمام الحال التي صارت اليه الحامية صمم على الهجوم واستعد له فبلغ ذلك جرجي استامبولي التاجر المار ذكره فشفق على اهل الحامية وعلى الأخص قسس الكنيسة لأنهم اصحابه فذهب الى المهدي وسأله ان يمهله ريثما يذهب الى الحامية ويخاطب اهلها بشأن التسليم فأجاب المهدي سؤله فأتى ليلاً الى قرب الاستحكام ونادى طالباً مقابلة الضباط فجاءه علي بك شريف الميرالاي واسكندر بك القائمقام والبكباشي محمود فأخبرهم بالذي عزم عليه المهدي وألح عليهم بالتسليم فمعد الضباط مجلساً للنظر في ذلك فقال سعيد باشا : اني افضل ان ألقى النار في

البارود وأحرق الحامية كلها على ان أسلم لهذا الدجال الحقير وكذلك قال احمد بك دفع الله ولكن سائر الضباط والسناجق قالوا : ليس من الحكمة ان نهلك انفسنا وأنفس العساكر الذين في عهدتنا فاذا لم نسلم بالرضى فالمهدي لا بد انه يهاجمنا ويأخذنا بالرغم . ولم نعد قادرين على صدّه اليوم كما صددهاه بالامس اذ لم يبقَ للعساكر قوة على حمل السلاح فضلاً عن استعماله بل اذا لم يهاجمنا المهدي هلكننا من الجوع والمرض وقد ذهب منا الآن نحو النصف وانقطع رجاؤنا بالمدد من الخرطوم . وعليه فلم يبقَ لنا رأي غير التسليم لا سيما واننا اذا سلمنا بقي لنا أمل في النجاة إذ الحكومة لا تترك المهدي وشأنه بل لا بد لها من تجريد الجيوش لسحقه ويكفيننا ولاء الحكومتنا أننا حاربنا في سبيلها على قدر جهدنا وحافظنا على شرفها الى آخر رمق منا . ثم كتبوا كتاباً الى المهدي فاعتذروا عما مضى وطلبوا العفو والخروج لمبايعته وأمضى الكتاب على بك شريف الميرالاي واسكندر بك القائم وبقي الضباط والسناجق وعرضوه على سعيد باشا فأمضاه على الرغم وكذلك فعل احمد بك دفع الله ثم دفعوا الكتاب الى جرجي استامبولي فحملة الى المهدي وكان ذلك مساء الخميس في ١٨ يناير سنة ١٨٨٣ م وقد طلبوا ان يكون التسليم صباح اليوم الثاني ونهبوا على العساكر في الخط اذا رأوا الدراويش مقبلين ان لا يطلقوا عليهم البنادق بل يتقدموا اليهم مسلمين .

فلما وصل كتاب التسليم من الحامية الى المهدي كتب اليهم في الجواب ما يأتي :

« بسم الله الرحمن الرحيم الحمد لله الوالي الكريم والصلاة والسلام على سيدنا محمد وآله مع التسليم .

« وبعد فمن عبد ربه محمد المهدي بن عبد الله الى كل من أقبل على الله بالحبة وسلم لأمرنا ونهينا من الحكام والضباط والفقراء والمساكين الذين بالققرة (الحصن) .

« انكم كنتم في أمر الترك ونهيمهم صادقين وباذلين انفسكم وأموالكم لغير الله

بلا منافع تعود لكم عند الله وترفعكم في الدار الآخرة فكيف اني داعيكم الى الله وما يرفعكم عنده ويعود عليكم بالخير الدائم والنعم السرمدى وبما انكم عاقلون وتعلمون ان ما كان لغير الله سلمتم فيه فسلموا امركم لي لأني لا أريد لكم إلا ما يرضي الله ورسوله ويديم الخير السرمدى فما دام فعلى مما يعود لكم فمن باب اولى انكم تسلمون لأمرى ونهيبى بأنفسكم وأموالكم وأولادكم من غير تهمة بل بمحبة وصدقة بما اني ولي امر الله لكم وخليفة رسول الله فيكم والسلام» .

فلما جاءهم هذا الكتاب اطمأنوا . ويوم الجمعة في ١٩ يناير سنة ١٨٨٣ م خرج اهل الحامية جميعاً بأبنائهم ونساءهم مسلمين . فخرج المهدي في ضحى ذلك اليوم من مسجده وعليه الدرع والمغفر ومعه خلفاؤه وسائر أصحابه فتلقاهم بقرب الخندق الكبير المحيط بمدينة الابيض وجلس على الارض كجلوسه للصلاة . ثم تقدم اليه محمد باشا سعيد وعلي بك شريف واسكندر بك واحمد بك دفع الله وباقي الضباط والسناجق فبايعوه الواحد بعد الآخر باليد ثم بايعه العساكر مشافهة . قيل فلما تقدم محمد سعيد باشا لمبايعته كان بيده خاتماً من الماس فأخرجه المهدي من يده ثم دفعه له في كفه وأطبق يده عليه مشيراً الى ان لبسه ممنوع وأجلسه الى جانبه وحوله الضباط والسناجق . ثم التفت اليه ولامه على قتله رسوله وشكر الله لأنه أخرجهم من الظلمات الى النور ثم أمرهم بالانصراف والاقامة في محل خاص عيّنه لهم بلصق ديمه وأمر أمين بيت المال فرتب لهم من الزاد ما فيه كفايتهم وقوام أمرهم على حسب أحوالهم وأخذهم الى المحل الذي أعد لهم فخلعوا عنهم الثياب العسكرية فوضعوها في بيت المال لتستخدم للرقع وألبسوهم الجيب المرقعة . وكان العساكر قد خاروا من الجوع فهرعوا الى السوق في طلب الطعام فأكلوا بشره زائد حتى مات الكثير منهم من كثرة الأكل .

أما المهدي فانه دخل الابيض ومعه خلفاؤه وامراؤه ونزل في ديوان المديرية وأنزل خلفاءه وأمراءه في منازل الضباط والسناجق وبقي ديم الجزائر على حاله .

ثم أمر امين بيت المال وعماله بجمع الغنائم فجمعوا الأثاث والأمتعة ولما لم يجدوا فيها شيئاً من النقود والحلى نادوا ضباط الحامية وسناجقها واحداً واحداً وسألوهم عن نقودهم وحلامهم وبدأوا بسعيد باشا فأنكر أمواله وكان قد خبأ ٧٠٠٠ جنياً في صندوق وجعله في حائط منزله ولم يكن يعلم به إلا جارية له فاعترفت به فنقبوا الحائط وأخذوه . ثم استنطقوا باقي الضباط والسناجق والموظفين ليدلوهم على الأماكن التي أخفوا فيها أموالهم ومن أنكر أعمالوا به السياط وعذبوه حتى اعترف او مات تحت الضرب كما جرى لأحمد شلبي وكيل اشغال المديرية فانهم جلدوه بالسياط الى ان مات وبمحمد المليجي متعهد « سلخانة الميري » فانهم ربطوه برجليه ودلوه في البئر حتى اعترف بماله . وقال الاب روسينيوي احد القميس النمساويين المار ذكرهم « لما دخل العرب الحامية كنت في الفراش مريضاً بفقر الدم فدخل بعض الدراويش عليّ فكسروا الصلبان والصور وأحرقوها ثم تقدموا اليّ وشرعوا يضربونني بجدّ السيف ويقولون اين مالك يا كافر قلت كان عندي الف ريال وهي كل ما أملك فاقترضتها لسعيد باشا فوزعها على العساكر ثم التفتوا فرأوا القبر الذي دفن فيه الاب لوزي فظنوه مالا مدفوناً فنبشوه فرأوا جثة بالية فجمعوا عليها ما وجدوه من ورق الدخان وأحرقوها به وأما انا فأخذوني مع رفاقي الى ديم الجزائر وضمونا الى جماعة كنيسة الدلن » . وبذلك جمع امين بيت المال مبالغ وافرة من النقود والحلى ولكن لم يدخل بيت المال سوى ١٤٠٠٠٠ ريال أخذوها من الضباط والسناجق وغيرهم و ٧٥٠٠ ريال من خزينة المديرية . فأفرز المهدي الخمس منها لنفسه وجعل الباقي في بيت المال لينفق على الانصار .

ثم امر فجمعت الاسلحة النارية التي كانت مع العساكر وفي حامية الابيض فضمها الى ما غنموه من واقعي راشد والشلاي فاجتمع عنده ١٦٤٠٠ بندقية و ١٣ مدفعاً و ٧ سوار يخ وشيء كثير من الذخائر . واجتمع عنده من عساكر الحكومة نحو ٥٠٠٠ من مصريين وسود فجعل السود في راية حمدان ابي عنجة وسلحهم بالاسلحة النارية والمصريين في راية حسن حسين احد المصريين المولدين

في السودان ولم يسمح لهم بسلاح غير السيوف والحراب .
وبقي انصار المهدي في ديم الجنزارة اياماً بعد التسليم ثم اشتعلت نار في
الديم فالتهمته كله لأنه كان مبنياً بالقش كما مرّ فأذن المهدي اصحابه اذ ذلك
في سكنى الابيض فاتسعت اتساعاً عظيماً الى كل الجهات أما أسرى الابيض
فانه أبقاهم في المكان الذي عينه لهم في الديم القديم .

وبعد هذه الحريقة بعشرة ايام أتى الخليفة عبد الله الى معسكر الأسرى
وجلس في خيمة الحاج خالد العمرابي المار ذكره فدعا اليه سعيد باشا وعلي
بك شريف ونظيم افندي والصاغ محمد جمعة من رجال تنظيم واحمد بك دفع الله
ومحمد ياسين ناظر قسم خورسي وعثمان أغا سليمان ومشيلى أغا حسين وكلاهما من
سناجق الابيض وجعل كل اثنين منها في عهدة شيخ من مشايخ العربان المخلصين
لهم وأوعز اليهم سرّاً ان يقتلوهم فجعل سعيد باشا ومحمد جمعة في عهدة الشيخ
اسماعيل ود الامين شيخ الغديات . وعلي بك شريف ونظيم افندي في عهدة
الشيخ نواي شيخ الحوازمة . واحمد بك دفع الله ومحمد ياسين في عهدة الشيخ
مادبو احد مشايخ الرزيقات . وعثمان سليمان ومشيلى حسين في عهدة الشيخ مكي
ود ابراهيم شيخ عربان حمر فذهب كل شيخ بفريسته الى بلده وقتلها فماتوا
مأسوفاً عليهم من كل حرّ . وسيبقى اسمهم محفوظاً في التاريخ بالتجلة والاكرام
ما ذكر حصار وناح حمام .

هذا وقد اختلف الرواة في السبب الذي حمل المهدي على قتل هؤلاء الرؤساء
والذي عليه الاكثرون وذكره سلاطين باشا في كتابه « السيف والنار في
السودان » ان هؤلاء الرؤساء كتبوا تقريراً الى عبد القادر باشا ذكروا فيه
الاسباب التي حملتهم على التسليم وختموا التقرير ورفعوه الى رسول ليوصله الى
الخراطوم وكان في جملة الذين ختموا التقرير الملازم يوسف منصور وكيل بوليس
الابيض والقائم مقام محمد بك اسكندر فخاف يوسف منصور ان يقع التقرير في
يد المهدي فينتقم منهم جميعاً فمضى اليه ووقع على قدميه وأخبره بما جرى
ورأى في طريقه محمد بك اسكندر فأقنعه ان يفعل مثله ففعل . فأرسل المهدي

في الحال في أثر الرسول فقبض عليه وأخذ التقرير منه وشاع حينئذ ان النبي ظهر للمهدي وأخبره بهذا التقرير . واغتم المهدي تلك الفرصة للانتقام من الذين قتلوا أخويه وخذلوهم في وقعة الابيض فنفاهم ثم قتلهم وعفا عن يوسف منصور واسكندر بك وجعل الاول منها قومنداناً على المدافع .

وقد قابلت اسكندر بك ويوسف منصور في ام درمان سنة ١٨٩٨ م فأنكرا هذه الرواية وقالوا ان المهدي كان حاقداً على الضباط لقتل اخويه وخذلانه في وقعة الابيض ولم يعلم الضباط المشار اليهم كيف يتقون نغمته بل زادوه نكايه بعدم العناية به والاستخفاف بأمره . وذكر احدهما تفصيلاً لذلك وصدقته بعض الرواة قال: كان المهدي في يوم جمعة بعد الصلاة يذاكر الضباط في جامع الابيض وكان سعيد باشا جالساً الى يساره معرضاً عنه ويده اليمنى على خده فأمسك المهدي يده وأزاحها عن خده وقال بماذا تتأمل يا محمد سعيد أنا أذكرك بالله ورسوله واليوم الآخر وانت معرض عني أما آن لك ان ترجع الى الله وتترك الدنيا وهمومها وتنظر في أمر آخرتك فمنهض اذ ذاك سعيد باشا وتأفتف ونفض ثوبه في وجه المهدي وانصرف من المجلس مغضباً فانقبض وجه المهدي وهباً أنصاره طالبين القبض على سعيد باشا فأمرهم بتركه وقال لهم لا تعجبوا من نزقه وحماقته فأنتم تعلمون انه كان بمقام عزيز من مقامات الدنيا ونزع هذا المقام من طلب الدنيا شديد على النفس .

ثم انصرف المهدي الى منزله وعقد مجلساً مع خلفائه ومجلس شورا بشأن محمد سعيد فأجمعوا على سجنه وتكبيله بالحديد فأخذوه الى ديوان المديرية ووضعوا قيلاً من الحديد في عنقه ومكيتية في رجليه وربطوه في طريق المارة وكان سميناً قصيراً فلقبوه بجراب الفول فكانوا كلما مروا به نادوه أي جراب الفول هذه ثمرة عنادك وعاقبة انكارك المهدي . وقد أراد المهدي بحبسه وتشهيره على هذه الصورة ان يذلل نفسه ويخضع كبرياهه ولكنه لم يزد بذلك إلا أنفة وكبراً وكان ينظر الى معذبيه ومهينيه نظر المترفع الجلود ولسان حاله ينادي:

لا تحسبن يا دهر اني ضارع لنكبة تعرقني عرق المئدى
مارست من لو هوت الافلاك من جوانب الجو عليه ما شكى

قالوا فلما رأى المهدي منه هذا الاصرار عقد مجلس شورا فأقروا على قتله
هو ومن كان على شاكلته من الضباط والسناجق فساموهم الى المشايخ المتقدم
ذكرهم فقتلوهم شر قتلة رحمة الله عليهم .

هذا وما انتشر خبر سقوط الابيض حتى هرع الناس اليها افواجا لمبايعة
المهدي وأشهر الذين أتوا اليه « عثمان دقنه » أتاه من سواكن فسماه أميراً على
جميع البجة في السودان الشرقي فكان من اعظم انصار المهديية وأشد أياديها
وسياقي تفصيل خبره . وكان قد أرسل بعد واقعة الشلاي الشيخ مادبو المار
ذكرة أميراً على دارفور فكان له فيها من الشأن ما سنذكره بالتفصيل . وبث
المهدي كتبه ومنشوراته في شرق البلاد وغربها مبشراً الناس بما ناله من النصر
ومحرضاً إياهم على شق العصا والاجتماع على عماله في الجهات او المهاجرة اليه
وحذرهم من ترك الجهاد او البقاء على الحياذ .

وكان رابع الزبير اذ ذاك لا يزال في بلاد الفراتيت ومعه جيش قوي
فكتب اليه يستحثه على الرجوع الى السودان والانضمام اليه للجهاد في سبيل
الله فلم يجبه .

ثم كان أهم ما سعى اليه ضم كلمة السنوسي الى كلمته ليستعين به على غرضه
ويتهدد مصر فلما لم يجبه على كتابه الاول عاد فكتب اليه كتاباً آخر بتاريخ
٥ رجب سنة ١٣٠٠ هـ ١٢ مايو ١٨٨٣ م وأرسله اليه مع طاهر اسحق الزغاوي
الى جغبوب وفيه بيّن له كيفية تجلّي المهديية عليه من النبي كما بيّنه في منشوره
العام الى « أحبابه في الله » وذكرناه بحرفه وقال :

« واعلم يا حبيبي قد كنا ومن معنا من الاعوان ننتظرك لاقامة الدين قبل
حصول المهديية للعبد الذليل وقد كاتبتك لما سمعنا باستقامتك ودعايتك الى الله
على السنة النبوية وتأهبك لإحياء الدين ونجتمتع معك ولم ترد لنا المكاتبة وأظن

ذلك من عدم وصولها اليكم حتى اني ذاكرت جميع من اجتمعت معه من أهل الدين والشيوخ والأمراء المشهورين فأبوا ذلك لهوان الدين عندهم وتمكن حب الوطن والحياة في قلوبهم وقلة توحيدهم حتى بايعني الضعفاء على الفرار بالدين واقامته على ما يطلب رب العالمين وقنعت نفوس من بايعناه من الحياة الدنيا لما يرون للدين من الممات . ولا زال المساكين الذين لم يبالوا بالله بما فاتهم من المحبوب يزدادون وفيما عند الله يرغبون حتى هجمت المهديّة الكبرى من الله ورسوله على العبد الحقير فأخبرني سيد الوجود ﷺ بأني المهدي المنتظر وخلفني عليه الصلاة والسلام على كرسيه مراراً بحضرة الخلفاء الاربعة والاقطاب والحضر عليه السلام ... ولا زال التأييد يزداد من الله ورسوله وأنت منا على بال حتى جاءنا الاخبار فيك من النبي ﷺ انك من الوزراء لي ثم ما زلنا ننتظرك حتى أعلمنا النبي الحضر عليه السلام بأحوالك وبما أنتم عليه ثم حصلت حضرة عظيمة عن النبي ﷺ فيما خلفه من أصحابه من اصحابي فاذا اجلس احد اصحابي على كرسي ابي بكر الصديق واحدهم على كرسي عمر وأوقف كرسي عثمان فقال هذا الكرسي لابن السنوسي الى ان يأتيكم بقرب او طول وأجلس احد اصحابي على كرسي علي رضوان الله عليهم ولا زالت روحانيتك تحضر معنا في بعض الحضرات مع اصحابي الذين هم خلفاء رسول الله ﷺ ..»
وختم كتابه بقوله :

« فاذا بلغك جوابي هذا اما ان تجاهد في جهاتك الى مصر ونواحيها ان لم يسلموا واما ان تهاجر الينا ولكن الهجرة احب الينا كما علمت من فضل الهجرة من زيادة الثواب والمقابلة ان تيسرت وعلى كل حال ترد الينا منك الافادة بما سيصير اليه عزمك من جهاد او هجرة ومثلك تكفيه الاشارة» اه . فلم يجبه السنوسي على كتابه بل قال للرسول شفاهاً « قل لمحمد احمد اننا كلانا لا نساوي التراب الذي كان يطأه عثمان بن عفان » .

وأمر المهدي بعد فتح الابيض بقتل اثنين من اعظم أنصاره وهما المنة اسماعيل المار ذكره وعجيل ود الجنقاوي من كبار مشايخ الرزيقات لمنافسة

حصلت بينها وبين التعايشي فساء قتلها جميع الناس وكثر الطعن على التعايشي وقومه سرأ وجهرأ وكان التعايشي وزير المهدي وقائد جيشه وعيبة سره فخوفاً من حصول الفشل في أنصاره اصدر منشوره الشهيد بتاريخ ١٧ ربيع اول سنة ١٣٠٠ هـ ٢٦ يناير سنة ١٨٨٣ م في فضل التعايشي ومكانته في المهديية وأمر الناس بطاعته كنفسه وحذرهم من الطعن عليه سرأ او جهرأ . وهذه صورة المنشور :

« بسم الله الرحمن الرحيم الحمد لله الوالي الكريم والصلاة على سيدنا محمد وآله مع التسليم .

« وبعد فمن العبد المفتقر الى الله محمد المهدي بن عبد الله اعلماً منه الى كافة عباد الله المؤمنين بالله وبكتابه أما بعد اعلموا أيها الأحباب أن الخليفة عبد الله خليفة الصديق المقلد بقلائد الصدق والتصديق فهو خليفة الخلفاء وأمير جيش المهديية المشار اليه في الحضرة النبوية فذلك السيد عبد الله ابن السيد محمد حمد الله عاقبته في الدارين فحيث علمتم ذلك يا احبابي ان الخليفة عبد الله هو مني وأنا منه وقد أشار اليه سيد الوجود ﷺ فتأدبوا معه كتأدبكم معي وسلموا اليه ظاهراً وباطناً كتسليمكم لي وصدقوه في قوله ولا تنهوه في فعله فجميع ما يفعله بأمر النبي صلى الله عليه وسلم او باذن منا لا بمجرد اجتهاد منه ولا هو عن هوى بل هو نائب عنه في تنفيذ أمره ﷺ والقضاء باشارته فان فعله بكم وحكمه فيكم بحسب ذلك واعلموا يقيناً ان قضاءه فيكم هو قضاء رسول الله ﷺ كما قال الله تعالى وما كان لمؤمن ولا مؤمنة اذا قضى الله ورسوله أمراً ان يكون لهم الخيرة من امرهم ومن يعص الله ورسوله فقد ضلّ ضلالاً مبيناً فمن كان في صدره حرج لأجل حكمه فذلك لعدم ايمانه وخروجه من الدين بسبب غفلته وذلك بشاهد قوله تعالى فلا وربك لا يؤمنون حتى يحكموك فيما شجر بينهم ثم لا يجدوا في انفسهم حرجاً مما قضيت ويسلموا تسليماً ولا شك في شرك من استنكف عن حكم الله ورسوله سيما بقوله ﷺ ان اخوف ما اخاف عليكم الشرك الخفي الخ الحديث مع انه خليفة الصديق

وأول المصدقين في المهديّة فانظروا لمكانة الصديق عند الله ورسوله بنصّ القرآن العظيم وانظروا لمكانة من أورثه الله مكان الصديقين وأورزه بالباطن بالخضر عليه السلام فهو مسدّد مؤيد من الله ورسوله ويد من أيادي الله لنصر دينه بإشارة سيد الوجود ﷺ وقد ورد في فضله كثير . فحيث فهمتم ذلك فالتكلم في حقه يورث الوبال والخذلان وسلب الايمان . واعلموا ان جميع أفعاله وأحكامه محمولة على الصواب لأنه أوتي الحكمة وفصل الخطاب ولو كان حكمه على قتل نفس منكم او سلب أموالكم فلا تتعرضوا عليه فقد حكمه الله فيكم بذلك ليظهركم ويزكيكم من خبائث الدنيا لتصفى قلوبكم وتقبلوا الى ربكم ومن تكلم في حقه ولو بالكلام النفسيّ جزماً فقد خسر الدنيا والآخرة ذلك هو الخسران المبين ويخشى عليه من الموت على سوء الخاتمة والعياذ بالله لأنه خليفة الصديق الذي قال الله في حقه : إذ يقول لصاحبه لا تحزن ان الله معنا وقال ﷺ : ان أمنّ الناس عليّ في الصحبة ابو بكر وقال عليه السلام : ما طلعت شمس على احد بعد النبيين أفضل من ابي بكر . وحيث علمتم ذلك فهو بمنزلة الآن لأن اصحابي كأصحاب رسول الله وهو خليفتنا في الدين وخلافته بأمر من النبي فمن كان منكم يؤمن بالله واليوم الآخر ومصداقاً بمهديتي فليسلم للخليفة عبد الله ظاهراً وباطناً واذا رأيتم منه أمراً مخالفاً في الظاهر فاحملوه على التفويض بعلم الله والتأويل الحسن واعتبروا يا أولي الألباب بقضية موسى والخضر عليها السلام حكاها الله في كتابه العزيز كحكم داود وسليان عليهما الصلاة والسلام لتسلموا من الشكوك والاهام وانما أنذرتكم بهذا رحمة لكم وشفقة عليكم وليبلغ الشاهد منكم الغائب لئلا تسبوه وتنسبوا اليه الظلم والجور فتهلكوا فاحذروا عن أذية أولياء الله فانها أذية الله ورسوله وقد لعن الله ذلك في كتابه فقال : ان الذين يؤذون الله ورسوله لعنهم الله في الدنيا والآخرة كما أن من آذى لي ولياً فقد آذنته بالحرب فإن الله غير على أوليائه فقد علمتم أنه ورد من نقض الكعبة حجراً حجراً ثم حرقها بالنار أهون عند الله من ان يؤذي ولياً من أوليائه . وان الخليفة هو قادة المسلمين وخليفتنا النائب عنا

في جميع امور الدين وإياكم والوسوسة في حقه وظن السوء وعدم الامتثال اليه
في قوله والمشاجرة له ولأحكامه والخلاف والحسد فتوبوا الى الله وارجعوا قبل
ان تذهب حسناتكم وتسلبون ثوب الايمان وانما حملني على هذا البيان النصيحة
في الله وحمایتكم من الوقوع في هاوية الانفس والأمانى فمن تاب تاب الله عليه
ومن عاد فينتقم الله منه ويسلطه عليه وهذا امر الله ورسوله فليحذر الذين
يخالفون عن أمره ان تصيبهم فتنة او يصيبهم عذاب أليم ولا حول ولا قوة
إلا بالله العليّ العظيم والسلام اه .

الفصل الثامن

في

حملة هكس باشا على المهدي في كردوفان

الحكومة والثورة : هذا ما كان من المهدي في الابيض اما الحكومة في مصر فانها كانت في هذا العهد قد اخمدت الثورة العرابية واحتل الانكليز مصر في ١٤ سبتمبر سنة ١٨٨٢م فصارت باحتلالهم مستندة الى قوتهم مقيدة برأيهم ومشورتهم فلما استقامت الاحوال في مصر وعاد اليها النظام التفتت بكليتها الى السودان وكان عبد القادر باشا اذ ذاك يلح في ارسال المدد قبل فوات الفرصة فأقرت الحكومة على إلغاء جيش عرابي وإرساله مدداً الى السودان وفي الوقت نفسه أقرت على سحق المهدي في كردوفان فصدر الامر العالي بإلغاء الجيش في ٢٠ ديسمبر سنة ١٨٨٢ م .

وأنشأ بدله جيش جديد من فلاحي مصر مؤلفاً من ٦٠٠٠ رجل جعل عليه السرافلن ود من خيار الانكليز سرداراً ومعه جماعة من الضباط الانكليز قوادراً للاورط وأركان حرب الجيش .

ولاية علاء الدين باشا سنة ١٣٠٠ هـ ١٨٨٣ م :

ثم سقطت الابيض وكانت الوشاية على عبد القادر باشا فدعته الى مصر كما مرّ وارسلت علاء الدين باشا والياً على السودان فوصل الخرطوم في ٢٠ فبراير سنة ١٨٨٣ ولكنها حصرت سلطته في الادارة الملكية وجعلت على العسكرية سليمان باشا نيازي قومنداناً عاماً وهكس باشا رئيساً لأركان حربه . اما هكس باشا فهو من ضباط الانكليز النابغين وقد انتظم في الجيش الهندي سنة ١٨٤٩ وشهد عدة وقائع حربية في الهند والحبشة وتقاعد برتبة كولونيل . وفي سنة ١٨٨٢ قدم الى مصر فسمي رئيس اركان حرب الجيش المصري ولما أُلغي جيش عرابي وصدر الامر بارساله مدداً الى السودان سمي رئيس اركان حرب الجيش في السودان كما مرّ فبرج مصر في ٧ فبراير وسار بطريق سواكن فوصل الخرطوم في ٧ مارس سنة ١٨٨٣ .

وتبعه جيش عرابي في هذه الطريق عينها وكان مؤلفاً من اربعة آليات في كل آلاي ثلاث اورط ومجموعه نحو عشرة آلاف رجل عليهم اربع ضباط مصريين عظام وهم : الميرالاي سليم بك عوني قومندان ١ جي آلاي والميرالاي حسين بك مظهر قومندان ٢ جي آلاي والميرالاي ابراهيم بك حيدر قومندان ٣ جي آلاي والميرالاي رجب بك صديق قومندان ٤ جي آلاي . فأقام هذا الجيش في ام درمان وبنى فيها رجب بك صديق طابية اشتهرت في حصار الخرطوم .

واقعة المربع في ٢٩ ابريل سنة ١٨٨٣ م : وكان اول ما أقرّ عليه هكس باشا بعد وصوله الخرطوم ان يجرّد حملة على ود برجوب الذي كان لم يزل شاهراً العصيان في الجبلين وقد اجتمع اليه الزعماء الذين خذهم عبدالقادر باشا كود الصليحابي واحمد المكاشف وأخيه عامر وغيرهم كما مرّ . فلما كان يوم ٣ ابريل خرج من الخرطوم مع سليمان باشا نيازي القومندان العام وجمع في الكوة نحو ٥٦٠٠ مقاتل فيهم الميرالاي حسن بك مظهر والميرالاي ابراهيم

بك حيدر ومع كل منها ثلاث اورط واليوزباشي حسن عزمي قومندان الطويجية ومعه سبعة مدافع و ٦٠ رجلاً وسنجان من سناجق الأتراك مع كل منها ٤٠٠ رجل وسار بهذه القوة قاصداً الجبلين . وخرج ود برجوب لقتاله بنحو ٥٠٠٠ مقاتل فالتقى الجيشان في المربيع جنوبي أبا في فجر ٢٩ ابريل سنة ١٨٨٣ م وكان هكس قد نظم جيشه مربعاً فجعل حملة الجمال والمهات في الوسط ولم يجعل المدافع في الزوايا كجاري العادة بل جعلها بارزة عنها ووصل اضلاع المربع وصلأ تماماً حتى لا يبقى للعرب سبيل الى دخوله ثم نثر حول المربع قطعاً صغيرة من الحديد ذات اربعة رؤوس محددة تقف على ثلاثة منها. ولم يتم تنظيم المربع على هذه الصورة حتى أقبل الدراويش وفرسانهم في ساقتهم مهاجمين بهيئة قوس فلما صاروا على مرمى الرصاص صدرت الأوامر للعساكر فأمطروهم سحابة من الرصاص برحت بهم تبريحاً وخاف فرسانهم وكبرأؤهم ان يثنيهم ثقل الرصاص عن متابعة الهجوم فصاحوا بهم وحملوا في مقدمتهم بقلوب لا تهاب الموت فكنت ترى الفارس مجرداً سيفه ومطلقاً عنان جواده قاصداً اختراق المربع فيصيبه الرصاص فيقع فيضمد جرحه بيديه ويعيد الكرة راجلاً حتى يصرعه الرصاص الى ان ملئت الارض من قتلاهم فولوا الأدبار وقد قتل من كبارهم ١٢ رجلاً فيهم احمد المكاشف وجرح عامر المكاشف جرحاً بالغاً وجرح ود برجوب جرحاً أقعده حتى صار يحمل على سرير . أما جيش هكس فقد قتل منه رجلاان وجرح عشرون وتقدم هكس بجيشه الى الجبلين فوجد ديم الدراويش خالياً فعاد الى الدويم فترك جيشه فيها وتقدم الى الخرطوم ليعمد نفسه للحملة على المهدي في كردوفان . وقد اختار الدويم النقطة الأساسية لهذه الحملة لأنها ميناء حسن على النيل الابيض وبها شونة قديمة ومنها تتفرع الطرق الى كردوفان .

حملة هكس باشا على كردوفان : وكان عبد القادر باشا اذ ذاك قد عاد الى مصر قيل فألح على الحكومة ببقاء الجيش محافظاً على النيل الابيض من الخرطوم الى فاشودة لمنع امتداد الثورة الى جزيرة سنار وترك المهدي وشأنه

في كردوفان الى ان يظهر للناس نفاقه او تضيق به البلاد فيضمحل من نفسه وكان هذا رأي الكثير من ساسة الانكليز ولكن الحكومة لم تزل مصممة على سحق المهدي في كردوفان خوفاً على دارفور وبجر الغزال فأمرت هكس باشا بالزحف على المهدي في الحال فكتب تليفرافاً في ١٣ مايو الى حكومة مصر يقول انه لا يتحمل مسؤولية الحملة إلا اذا كانت له القيادة العامة عليها ولما لم تلتفت الى طلبه قدم استعفاؤه في ٢٣ يوليو سنة ١٨٨٣ م فاهتمت اذ ذاك بالأمر ونقلت سليمان باشا نيازبي محافظاً على عموم شرقي السودان وجعلت هكس قومنداناً عاماً على الحملة وأمرت علاء الدين باشا بمرافقته كقومندان ثان للحملة وجعلت حسين باشا سرّي وكيلاً عنه في الخرطوم .

فشرع هكس باشا في تجهيز الحملة . وكان اول ما لزمه الاهتمام به وسائط النقل فأرسل علاء الدين باشا الى شرقي النيل الازرق فاشترى ٤٠٠٠ جمل وكان عنده ١٥٠٠ جمل فاجتمع للحملة ٥٥٠٠ جمل . ثم أرسل علاء الدين بلشا الى الدويم وشرع في ارسال الجند تباعاً من الخرطوم وأم درمان. وفي ٩ سبتمبر سنة ١٨٨٣ سار ببقية الجيش الى الدويم فوصلها في ٢٠ من الشهر المذكور فاجتمع عنده فيها اربع اورط مصرية وخمس سودانية فيها ٧٠٠٠ من المشاة المنظمة و ٥٠٠ من الفرسان المنظمة و ٥٠٠ من الفرسان الباشبوزق و ١٠ مدافع جبلية و ٤ كروب و ٦ من نوع النور دنفلت . ما عدا ٢٠٠٠ من الاتباع و ٥٥٠٠ جمل و ٣٠٠٠ بغل و ١٠٠٠٠ حمار و ٥٠٠٠ فرس .

وأما ضباط الجيش العظام فهم : الميرالاي سليم بك عوني قومندان الآلاي الاول والسيد بك عبد الخالق قومندان الآلاي الثاني وحسين بك فهمي قومندان الآلاي الثالث ورجب بك صديق قومندان الآلاي الرابع ما عدا السناجق الباشبوزق . واما حسين بك مظهر قومندان الآلاي الثاني السابق فقد رُقي الى رتبة لواء ورافق الجيش قومنداناً على الآلايات الاربعة واما ابراهيم بك حيدر قومندان الآلاي الثالث السابق فقد رُقي ايضاً الى رتبة لواء وسمي قومنداناً على خط النار في الخرطوم .

وصحب هكس من الضباط الافرنج الكولونيل فر كوهار رئيس اركان حرب و ٨ ضباط اركان حرب وسكرتيره الخاص ميخائيل افندي ناصيف اللبناني شقيق سليمان بك ناصيف من كبار موظفي الحربية بمصر وجورجي بك الحكيم الرومي ومكاتبو التيمس والدالي نيوز والغرافيك وكلهم من الانكليز. وصحبه من الخبراء صالح غانم و ابراهيم محجوب وأوآ. ومن الملكية الوطنيين الذين استصحبهم من الخرطوم ليأمن شرمهم ويوليهم امر كردوفان في حالة النصر : قناوي بك ابو عموري البحاري الشهير الذي تقدم ذكره في تاريخ الزبير وبساطي بك المحسي باشكاتب الخرطوم وحمد بك التلب الجعلي رئيس مجلس الاستئناف ومحمود بك احمداني الكنزي مدير الخرطوم وعبد الرحمن بك بان النقسا الجعلي من عمد التجار . وأبقى الكولونيل ده كوتلوجن من اركان حربيه في النيل بين الخرطوم وفاشودة لمنع مهاجرة الناس من الجزيرة الى المهدي .

وفي حال وصوله الى الدويم اجتمع بعلاء الدين باشا ونظرا في طريق الحملة . فللابيض من الدويم طريقان شهيرتان : طريق بارة طولها ١٧٦ ميلا وماؤها قليل وتصل الابيض من الشمال . وطريق شات طولها ٢٦١ ميلا وماؤها كثير وتصل الابيض من الجنوب . فقال هكس بطريق بارة لأنها أقصر وقال علاء الدين بطريق شات لأن ماءها أغزر يكفي الحملة فقرّ الرأي على قول علاء الدين . وسارت الحملة من الدويم في ٢٤ سبتمبر سنة ١٨٨٣ فمرّت بشات وتركت فيها حامية صغيرة لحفظ خط الاتصال مع النيل ثم تقدمت الى آبار زريقة وقبل الوصول اليها وقع اختلاف شديد بين هكس وعلاء الدين في شأن خط الاتصال فأراد هكس ان يجعل في كل منهل حامية عسكرية مؤلفة من ٢٠٠ رجل لحفظ خط الاتصال مع النيل وقد ترك حامية في شات لهذه الغاية فاعترضه علاء الدين وقال ان هذه الحاميات لاتستطيع حفظ نفسها فضلا عن خط الاتصال اذ البلاد كلها قد سلمت للمهدي فلا نترك حامية في منهل حتى تحيط بها العربان وتأخذها عنوة فنكون بذلك قد أهلكنا جانباً من رجالنا

ولم نستفد شيئاً . فعقد هكس باشا مجلساً من الضباط الافرنج والمصريين للحكم في الامر فأجمعوا على قول علاء الدين وسار الجيش من ذلك الحين كأنه جسم واحد متأهب للقضاء العدو في كل لحظة . وكان سيره بهيئة مربع عظيم في مقدمته الدليان فالطلائع فالضباط العظام فأركان الحرب ثم المربع وهو مؤلف من المشاة في وسطه الطويجية وفي ساقته الفرسان ثم الجمال والاحمال ثم الفرسان الباشبوزق وهم وراء الكل .

وكان المهدي لا يغفل طرفه عين عن مراقبة حركات الجيش فلما أتاه خبر قيام هكس من الدويم أمر اصحابه فخرجوا من الابيض الى ساحة في شرقي المدينة ثم خرج بنفسه ونزل تحت شجرة شهيرة من شجر التبليدي وانتدب اربعة من كبار قواده وهم : محمد عثمان الشهيد بأبي قرجة وشيخ فضلو احمد وعبد الحلیم مساعد وعمرود الياس باشا ومعهم نحو ٣٠٠٠ رجل وأمرهم بالتوجه الى حيث تكون الحملة وتعتقب حركاتها وعدم محاربتها في واقعة بل ان يناوشوها القتال ويمنعوا أهل البلاد من الانضمام اليها ويوافوه بالاخبار تبعاً فصدعوا بالامر ووافوا الحملة بالقرب من العقيلة في ١١ اكتوبر فلازمواها من ذلك الوقت وصاروا اذا سارت ساروا وراءها وطمروا الآبار بعدها واذا وقفت وقفوا بعيداً عنها وناوشوها القتال وما تطرف احد منها إلا قتله حتى ان الجمال لم تستطع المرعى لانحصارها في المربع فجاعت وأكلت قش رحالها وخارت قواها فمات كثير منها وبدأ اللغظ في الجند من ذلك الوقت فأيقنوا بالخذلان وتوقعوا العواقب الوخيمة وصاروا كلما توغلوا في البلاد زاد خوفهم ولفظهم حتى رأوا انهم سائرون حتماً الى حتفهم وما زالوا كذلك حتى وصلوا الى منهل الرهد في ٢٠ اكتوبر سنة ١٨٨٣ م فنزلوا في جنوبيه ونزل أمراء الدراويش قبالتهم في شماليه وذهب احدهم عبدالحليم الى الابيض فأخبر المهدي بما كان من أمرهم .

وفرّ من الحملة قبل وصولها الى الرهد بقليل خادم مكاتب الدالي نيوز وهو صف ضابط الماني اسمه كلوتس فذهب الى المهدي في الابيض وأخبره ان الحملة

في يأس وخوف شديد فأيقن المهدي انه غالب لا محالة وأمر كلوتس باعتناق الاسلام ففعل فسماه مصطفى وبقي في الأسر الى ان حاول النجاة من القلابات فمات في الطريق .

وأقام هكس في الرهد ستة أيام ينظر في طريق الحملة الى الابيض ولم يكن للأبيض من الرهد إلا طريقان : طريق الملابس وطريق البركة فقرّر الرأي على اختيار طريق البركة لأنها أغزر ماءً فسار بالجيش قاصداً المنهل المذكور وأرسل في الطريق احد الخبراء ومعه عبد الى الابيض للاستعلام عن قوة المهدي ووجهته . ووصل بالجيش الى منهل علويه الاثنين في ٢٩ اكتوبر فوجد فيه ماءً غزيراً فأقرّ على البقاء فيه الى ان يعود الخبير بنجر المهدي . فلما كان يوم الخميس ١ نوفمبر عاد العبد وحده ومعه ١٥٠٠ نسخة من كتاب كتبه المهدي الى هكس وجنوده وهذه صورته :

« بسم الله الرحمن الرحيم الحمد لله الوالي الكريم والصلاة على سيدنا محمد وآله مع التسليم .

« وبعد فمن عبد ربه الفقير المعتم بمولاه محمد المهدي بن عبد الله الى من يسمع من اهل الجردة ممن له عقل فانه لا يخفى على ذي عقل ان الأمر بيد الله لا يشاركه في ذلك بنادق ولا مدافع ولا صواريخ ولا عصمة لأحد إلا من عصمه الله تعالى فاذا فهمتم ذلك فاعلموا ان الله واحد فلا تغفروا بأسلحتكم ولا يجنودكم التي تريدون ان تقاتلو بها جنود الله فان لا قوة لشيء دون الله وان قلتم ان مهديتنا مكذوبة فاعلموا ان الكذب انما يصدر ممن يحب الدنيا ويخاف المخلوق ويستعجز قوة الله فاذا فهمتم ذلك فلا تغفروا علماءكم فان الترك الذين قتلتم شكوا للحق عز وجل وقالوا يا إلهنا ومولانا ان المهدي قتلنا من غير انذار فأقول انذركم يا رب فلم يسمعوا وحضر على ذلك شاهداً سيد الوجود ﷺ وقال لهم الامام المهدي أنفرتكم فلم تسمعوا له وسمعت قول علماءكم فذنبكم عليكم فأقبل بعضهم على بعض يتلاومون فقال الذين استضعفوا للذين استكبروا لولا أنتم لكننا مؤمنين وقال الذين استكبروا للذين

استضعفوا أنحن صدودناكم عن الهدى اذ جاءكم بل كنتم مجرمين فان كان لكم نور تؤمنون بالله ورسوله والدار الآخرة وتصدقوا بمهديتنا وتخرجوا الينا مسلمين ومن سلم يسلم وان أبيتم إلا الجحود والاعتزاز بالمدافع والبارود فأنتم مقتولون كما أخبر سيد الوجود وأسوتكم بمن سبقكم من الجنود والسلام .

فلما أطلع هكس على الكتاب مزقه وأحرق نسخه كلها . وسأل العبد عن الخبر فقال ان المهدي أمر بقتله وهو يستعد لمقابلة الجيش بطريق البركة .

واقعة شيكان في ٥ نوفمبر سنة ١٨٨٣ م : ولما كان يوم الخميس ١ نوفمبر وهو يوم وصول العبد الى علوبه استعمل المهدي على الابيض احد أقاربه عبدالله ود الصمد وخرج بجيش ينيف على ٥٠ ألفاً قاصداً البركة فسار حتى نزل بمنهل فترتقول وهو منهل قليل المياه جداً حتى ان المسافرين كانوا اذا نزلوا به لا يكاد يكفي العشرين منهم فضلاً عن دوابهم قالوا فلما نزل المهدي به ورأى قلة الماء صفر فخرج منه ماء غزير أروى تلك الجيوش وفاض حتى سقوا رواحلهم وملأوا قريهم !!!

ثم بلغ المهدي وهو بالمنهل المذكور ان الجيش قاصد منهل البركة وجاد السير ليسبقه اليه فأمر في الحال محمود بن عبد القادر من أقاربه وضوء الدين ابن عبدالله رئيس النواب ومن معها من اهل رايتها فجدوا السير حتى وصلوا المنهل المذكور الجمعة في ٢ نوفمبر ثم ارتحل المهدي بباقي اصحابه صبيحة يوم السبت ٣ نوفمبر من منهل فترتقول وفي ظهر ذلك اليوم نزل بمنهل البركة .

وكان هكس لما علم من العبد ان المهدي قاصد البركة أرسل اليها رسلاً من علوبه لتحقيق الخبر فعادوا وأخبروا ان الدراويش قد احتلوها فجمع هكس اذ ذاك الضباط والخبراء فعدلوا عن طريق البركة وأقروا على طريق الملبس التي تمر بشيكان فخرجوا من علوبه فجر السبت في ٣ نوفمبر وساروا عشرة أميال ثم وقفوا وزربوا زريبة متينة وباتوا فيها الى صباح الاحد وبات الدراويش المطاردون لهم بالقرب منهم .

اما المهدي فانه عند وصوله الى البركة ظهر يوم السبت كما مرّ آتاه ابراهيم الحاج البشير بالترجباوي ومعه جماعة وقالوا له : يا سيدي يقول الناس ان الترك عدلوا عن طريق البركة وقصدوا مدينة الابيض ليستأصلوا من فيها ويحوزوا النساء والذرية حتى شاع الخبر في الجيش وأرجف الناس بذلك فلنتوجه الى الابيض قبل الترك . فالتفت المهدي وقال ايها الناس أنصتوا ثم بصق في كفه اليسرى وقال أي شيء هذا ؟ قالوا بصاق يا سيدي ثم طرحه على الارض فشربته في الحال فقال للناس : هل ترون لهذا البصاق أثراً ؟ فقالوا له لا فقال نحن كالارض والترك كالبصاق . ثم قال : اذا طار طائر فأين ينزل ؟ فقالوا له : على الارض فقال لهم : ان الترك كالطائر ونحن كالارض ايها الناس اثبتوا واطمئنوا ونزلوا رواحلكم واستريحوا فان الترك لا قدرة لهم مع قدرة الله ثم قال : غداً يوم الاحد تتوجه اليهم وفي صبيحة الاثنين بعد ان نأمركم بمحاربتهم اذا تأخر أحدكم لاصلاح نعله لم يدركهم أحياء . ثم جمع المهدي جميع الفرسان وأهل الاسلحة النارية فضمهم الى ابراهيم الترجباوي المذكور وأرسلهم نجدة للسرية لمطاردة الجيش في عشية ذلك اليوم (السبت) فوصلوها صباح الاحد في ٤ نوفمبر فوجدوا اخوانهم محيطين بالجيش من كل جانب إحاطة السوار بالمعصم فزادوا في حصره . وفي هذا اليوم قبيل الصبح ارتحل المهدي بكل جيوشه من البركة قاصداً الجيش ونزل في منهل شيكان عند الضحى ويسمى هذا المنهل ايضاً بمنهل أم مصارين فلما نزل المهدي به قال له بعض اصحابه : يا سيدي هذا المحل يدعى بمنهل أم مصارين فقال ان مصارين الترك تصب فيه .

وكان هكس لما أصبح صباح الاحد المذكور قد خرج من الزريبة التي كان باثناً فيها واستطرد السير نحو منهل شيكان وهو لا يدري ان المهدي قد احتله بجيوشه فما سار ساعة حتى خرج من جيش المهدي حمدان ابو عنجه وعبد الله ود النور وفوزي احد كتاب المهدي بمن معهم من الانصار المسلحين بالاسلحة النارية وبينهم عدد وافر من الفرسان وحملوا حملة صادقة على ساقه الجيش حيث المهات والذخائر فاختلفوا بالعساكر فدارت عساكر المقدمة عليهم وهزمتهم

ولكنهم تمكنوا من أخذ بعض الخيول والجمال والازواد وقد قتل منهم في تلك الهجمة اربعة بينهم فوزي كاتب المهدي وجرح عبد الله ود النور وقتل من الجيش رجب بك قومندان الآلاي الرابع ونفر من العساكر . وزرب الجيش في محل الواقعة زريبة من شوك وأقام فيها قيل ولما رأى اصحاب المهدي ما حلّ بالجيش من التزلزل والاضطراب رغبوا من المهدي ان يأذن لهم في الحملة عليهم مرة واحدة في ذلك اليوم فقال لهم : أخبرني سيد الوجود ان الترك لا يموتون كلهم اليوم وانما هلاكهم يكون غداً الاثنين . وبقي اصحاب الاسلحة النارية منهم محيطين بالجيش يرمونه بالرصاص بقية ذلك اليوم وليلة الاثنين الى الصباح فحملوه خسارة تذكر وكان في جملة من قتلوه جورجي بك الحكيم . فرأى هكس ان الاقامة في تلك الزريبة لا تجدي نفعاً ولم يكن يدري أي سبيل يتبع فجمع مجلساً من الضباط العظام والملكية الذين صحبوه فلم يقرروا على رأي وكثر اللغط بين الجند وتسلط الرعب على قلوبهم واشتد بهم العطش لبعدهم عن الماء فأيقنوا بالهلاك . فعول هكس اذ ذاك على المسير تحت رحمة الله نحو منهل شيكان . وقيل ان الخبراء الذين كانوا معه كان بينهم وبين المهدي مواطأة سرية فقادوا الجيش في الطريق التي دلهم عليها المهدي .

فلما كان اضحى الاثنين ٥ نوفمبر سنة ١٨٨٣ خرج هكس بجيشه من الزريبة بثلاثة مربعات على شكل مثلث متساوي الاضلاع في كل زاوية مربع وبين المربع الواحد والآخر ٣٠٠ ياردة وفي وسط كل مربع مهاته وذخائره . وسار هكس وأركان حربه في مقدمة الجيش يتبعه بعض الطويجية بأربعة مدافع ومن وراء المدافع المربع الاول ثم المربعان الآخران واحد الى اليمين وواحد الى اليسار وكان السواري يحمون المؤخرة والجوانب المكشوفة من المربعات . وما سار الجيش على هذا الترتيب نصف ساعة حتى دخل وادياً مفتوحاً شائكاً وعلى كل من جانبيه غابة كثيفة فجعل المهدي معظم جيشه في قنك الغابتين عن يمين الجيش وشماله وجعل الباقي في وسط الوادي في طريق الجيش وعليهم عبد الرحمن النجومى وكان محمد ابو قريجه ومن معه من الانصار

لم يزالوا متتبعين الجيش من وراء فأصبح الجيش مكتنفاً بجيوش الدراويش من الجهات الاربع . وكان المهدي لما رأى الجيش من بعيد جمع أمراءه لآخر مرة وصلى أمامهم ثم رفع سيفه ونادى الله أكبر عليهم ثلاثاً ثم قال احموا عليهم ولا تخشوا نيرانهم فان أرواحهم مزمنة ونيرانهم لا فعل لها وانكم لظافرون عليهم باذن الله فما دخل الجيش ذلك الوادي حتى حملوا عليه حملة واحدة من كل جهة فاخترقوا صفوفه وأوقعوا الفشل في العساكر وأخذوا يقتلونهم طعناً بالرمح وضرباً بالسيف واستفروا في القتال فلم يمض ساعة حتى قتل الجيش برمته وفيهم هكس وأركان حربيه وعلاء الدين باشا وجميع الضباط المصريين والافرنج وقد تراكت جثث القتلى في محل الواقعة كالتلال ولم ينبج من الجيش كله إلا ملازمان (وهما محمد افندي صلي من المنصورة وقد فرّ بعد ذلك من الخرطوم الى مصر واحمد افندي عزمي وقد مات في كردوفان) ونحو ثلاثمائة جندي اختبأوا بين الأشجار ودواب الحملة والقتلى فوقعوا كلهم في الأسر . وعند نهاية الواقعة قطعوا رأس هكس وحملوه الى المهدي . وقد قاتل هكس وأركان حربيه وجميع رجال الجيش ما استطاعوا الى القتال سبيلاً وماتوا مشرفين موت الابطال بعد ان قتلوا من الدراويش نحو مئتي رجل منهم ابو أمية والطاهر وغيرهما من أقارب المهدي وضوء الدين بن عبد الله رئيس النواب وهو من اصحاب المهدي السابقين ومحمد وعبد الرحمن ابنا النصري وعثمان ابن عم الخليفة محمد شريف وعبد الرحيم احد المادحين للمهدي وغيرهم فنقلوا الى محل المهدي فأمر بدفنهم بما عليهم من الثياب . ثم أمر المهدي فجمعت الغنائم ونقلت الى البركة فكان منها كثير من الأسلحة والخبز والمدايع والميرة . وأقام المهدي بشيكان الى يوم الاربعاء ثالث يوم الواقعة ثم خرج منها عائداً الى منهل البركة فأقام فيه بضعة عشر يوماً وهناك فرّق الغنائم بين اصحابه بعد اخراج الخمس منها لنفسه .

ثم عاد الى الابيض بالمدايع والذخائر والأموال فدخلها باحتفال شائق وكتب الى عماله في الجهات مبشراً اياهم بالنصر الذي آتاه الله عن يده في قتله

هكس وهذه صورة ما كتبه الى عثمان دقنه في ١٠ ربيع اول سنة ١٣٠١ هـ
٩ يناير سنة ١٨٨٤ م :
« ومن خصوص الجردة المصرية التي بلغكم أنها حضرت الينا من طريق
الخرطوم وصلتنا وحصل الظفر عليها بأمر الله تعالى وقتلناها عن آخرها شر
قتلة بما فيها من الرؤوس الكبار اخدمه علاء الدين الحكمدار والثاني هكس
النصراني والثالث حسن وغيرهم من الضباط والآن جميع مدافعهم وأسلحتهم
بيدنا وهي شيء كثير جداً وكان هلاك المذكورين في يوم الاثنين ٤ محرم سنة
١٣٠١ هـ بجهة علوبه (شيكان) وعدددهم كما قيل ستة وثلاثون ألفاً . فانقرضوا
في أقل من ساعة واشتعلت النار في أجسامهم بأمر الله السماوي هذا وأفيدونا
بأحوالكم والسلام » اه .

اخلاء السودان : وكان هذا الانخزال العظيم الذي أصاب الحكومة في
شيكان قد قضى على نفوذها في السودان القضاء المبرم فان عقلاء أهل الجزيرة
وغالب اهل الخرطوم والسودان كانوا قبل هذه الواقعة يترددون في اتباع محمد
احمد ويبتغون حربه مع هكس فلما علموا بما أصاب هكس وجيشه ورأوا
عجز الحكومة عن اذلاله انقطع كل رجاء لهم في الحكومة ووفدوا على المهدي
بالابيض أفواجاً يبايعونه وفي جملتهم الملك آدم أم دباله ملك جبل تقلي .
وانتشر خبر المهدي في العالم الاسلامي كله فجاءته الوفود من الحجاز والهند
وتونس ومراكش لزيارته وتحقيق دعوته .

أما الحكومة في الخرطوم فانها عند سماعها خبر هلاك هكس اضطربت
وارتاعت وأرسلت بالخبير تلغرافياً الى مصر وبعثت وابوراتها في النيل الابيض
فانتشلت عساكرها من فاشودة والكوة وشات والدويم الى الخرطوم وشرعت
في زيادة تحصين الخرطوم .

وأما الحكومة في مصر فقد رأت انها لا تستطيع سحق المهدي واعادة
النظام الى السودان بعد الآن إلا بجيش جرار من الجنود النظامية المحرّبة ولم
يكن هذا الجيش متوفراً لديها لا سيما بعد الذي صارت اليه مصر بسبب الثورة

العربية من الضعف وتضعف الاحوال . وكانت الحكومة الانكليزية قد أرسلت الكولونيل ستورت من ضباطها العظام الى الخرطوم في أواخر سنة ١٨٨٢م فدرس احوال السودان درساً دقيقاً وأرسل لها تقرير بتاريخ ٩ فبراير سنة ١٨٨٣م نظر فيه ملياً في حالة السودان المالية والادارية وبين وجوه الخلل وطرق الاصلاح وعجز المصريين عن حكم السودان وحدهم . فأقرت الحكومة اذ ذاك على اخلاء السودان واسترجاع عساكرها من الحاميات كما سيجيء .

ثم ان المهدي لم يقتصر على بث الرسل والكتب الى الجهات لإذاعة النصر الذي ناله في شيكان بل أرسل سرايا الى الجهات كدارفور وبحر الغزال وبربر ودنقلة وغيرها لاختضاع الحاميات المصرية فيها واحتلال البلاد باسمه وأرسل الى كبراء المشايخ في جزيرة سنار لحصر الخرطوم وأخذ يستعد للزحف بنفسه عليها. فلنبدأ الآن ببيان ما كان من الثورة في تلك الجهات قبل زحف المهدي على الخرطوم .

الفصل التاسع

في

وقائع الثورة في دارفور

سنة ٢ - ١٨٨٤ م

كان آخر عهدنا بدارفور إخماد ثورة الامير هارون على يد سلاطين والنور عنقرة وكان سلاطين اذ ذلك مديراً على داره والنور عنقرة مديراً على كبكبية والمدير العام على الفاشر مساداليه بك والوالي على السودان غوردون باشا فلما تولى رؤوف باشا السودان عزل مساداليه بك فقام على مديرية الفاشر الميرالاي علي بك شريف المار ذكره في حصار الابيض الى ان سمي سلاطين باشا مديراً عاماً على دارفور فوصل الفاشر في ٢٠ ابريل سنة ١٨٨١ وتولى زمام الاعمال فعزل النور بك عنقرة عن كبكبية لشكاوى ووجهت عليه من ضباطها وأرسله الى كردوفان فكان من أمره فيها ما قدمناه فبقي البكبباشي آدم افندي عامر السوداني قومنداناً على الحامية وسمي محمد بك زقل من أقارب المهدي مديراً على داره مكان سلاطين . ثم لم تكن إلا هنيهة من الزمن حتى ظهرت الثورة المهدي وامتدت شعلتها الى دارفور فكان لسلاطين فيها من الشأن ما فصله في كتابه « السيف والنار في السودان » أحسن تفصيل .

ثورة الشيخ مادبو : وكانت أول من أوقد نار الثورة في دارفور الشيخ مادبو أحد مشايخ الرزيقات المار ذكره هاجر الى المهدي في قدير فحضر معه واقعة الشلاي وعاد منه أميراً على دارفور فرفع راية المهدي فيها فاجتمع عليه خلق كثير وكان في شكا حامية عسكرية عليها يوسف افندي منصور قومنداناً فنازل الحامية فخرج عليه نفر منها فقتلهم وتقوى بسلاحهم وذلك في ٢٠ يوليو سنة ١٨٨٢ .

واقعة أم وريقات : فلما اتصل الخبر بسلاطين أسرع الى داره فأخذ بعض عساكرها وقصد مادبو حتى وصل منهل الضعين فبلغه انه نازل بالقرب منه فعمل زريبة من شوك وتحصن فيها فعلم به مادبو وكان بينه وبين سلاطين مودة قبل المهدي فكتب اليه ينصحه بالتسليم ويقول: « ان البلاد كلها أصبحت للمهدي والأجدر بك ان تسلم فتسلم وإلا فلا بد لي من محاربتك وإن كنت صديقي » فلم يجبه سلاطين على كتابه بل قال للرسول اذهب الى مادبو وأخبره أن ليس بيني وبينه إلا السيف ثم تجسس جيش مادبو فوجده قويا لا طاقة له بحربه لقله رجاله فرجع الى داره لأخذ الأهبة لنفسه . ورجع اليها ايضاً يوسف منصور فاراً من شكا فوبخه سلاطين لتركه حاميته بلا اذن . وجمع من داره وباديتها ٢١٥٠ من العساكر النظامية والبازنجر و ٧٠٠ من العربان المتحابة كالبيقو والبرثا والبرقد و ٤٠٠ فارس من الزغاوة والمسيرية والداجو والمعالية ومدفعاً جبلياً وعاد قاصداً مادبو وكان مادبو قد كمن له في أرض شائكة موحلة على طريق شكا تعرف « بأم وريقات » فلما دنا من الكمين فاجأه بالهجوم عليه وكان سلاطين قد جعل عسكره على شكل مربع ولكن كان أكثره من البازنجر وعربان البادية فلم يحفظوا النظام الذي أمروا به فدخل عربان مادبو في وسطهم وفتكوا بهم فتكاً ذريعاً حتى لم يبق منهم سوى ٩٠٠ رجل من نظامية وبازنجر وذلك في أقل من نصف ساعة وكانت الواقعة يوم سبت في أواخر اكتوبر سنة ١٨٨٢ . وقد أصيب سلاطين برصاصة في بنصر يده اليمنى فذهبت بها وجرح برصاصة في فخذه فجمع بقية جيشه وكان بينهم

كثير من الجرحى فتحصن بهم في تل قريب من محل الواقعة الى ان تماثل الجرحى فرجع بهم الى داره كل ذلك ومادبو لا يزال يهاجمه ويطارده على التل وفي الطريق وهو يصدّه ويدفع غاراته حتى دخل داره .

عصيان حامية داره : وكان قد ترك في داره حامية مؤلفة من ٤٠٠ من العساكر المنظمة و ٢٥٠ من البازنجر و ٣٠ فارساً و ٧ مدافع فوجدهم قد تغيرت حالهم ومالوا الى العصيان وكان قد بلغهم خبر ثورة عرابي في مصر واخراج الخديوي منها لمصادقته النصارى فأرادوا ان يفعلوا مثل ذلك بسلاطين خصوصاً بعد انتصار مادبو عليه . ثم لم يكن إلا القليل حتى جاء خبر سقوط الابيض فسرى روح الثورة في جميع بلاد دارفور وازداد عساكر الحامية عتواً ولم يمنعهم عن المجاهرة بالثورة والفتك بسلاطين إلا ما بلغهم بعد قليل من عزم الحكومة على ارسال جيش جرار لسحق المهدي في كردوفان ولكن كان بينهم جماعة من اهل دارفور فاتفقوا على الفرار الى دود بنقه الذي قام في جبل مرّة بعد الامير هارون كما مرّ وجاهروا بالعصيان قائلين « اننا لا نرضى ان يحكمنا نصراني » فأمر سلاطين بمحاكمتهم بمجلس عسكري فحكم المجلس بقتلهم وصدقه سلاطين فقتلوا .

اسلام سلاطين : ومع ذلك لم يزد العساكر إلا عتواً ونفورا وقد أثرت ثورة عرابي تأثيراً ثابتاً في أذهانهم وأيقنوا انهم انما خذلوا في واقعة ام وريقات لأن رئيسهم نصراني فرأى سلاطين أنه لا يمكن استرجاع سلطته عليهم وهو نصراني فجمعهم ووقف بينهم خطيباً وقال « اعلموا اني مسلم مثلكم وأشهد ان لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله » ففرح العساكر باسلامه وعادوا الى طاعته .

بعثة زُقل الى المهدي : ولكن اهل دارفور في الخارج لم يزالوا على العصيان وتيقن سلاطين انه لا يمكن ودّهم الى الطاعة والولاء إلا اذا كُسرت شوكة المهدي في كردوفان وكان قد بلغه خبر حملة هكس فأصبحت آماله كلها معلقة بها فأحبّ مخاطبة هكس ليعلمه بحاله ويستحثه على انقاذه ولكن كان يخشى

شرّ محمد خالد زقل مدير داره لأنه من أقارب المهدي وكان بينه وبين المهدي مخاطبات سرية فأراد سلاطين التخلص منه من جهة والاحتياط للمستقبل من جهة ثانية فخلابه وأخبره بأنه عالم بعلاقته مع المهدي وقال له اني مرسلك الى الابيض لمنع المهدي من ارسال جيش الى دارفور او تحريض اهلهما على الثورة فاذا غلبه هكس واسترد منه البلاد فأنا شفيعك عند الحكومة والا فالبلاد من نفسها تسلم للمهدي وخير له ان يأخذها عامرة من ان يأخذها خربة وفي الوقت نفسه اعطيك كتاباً ترسله الى هكس ليعلم بحالنا ويعجل في انقاذنا ، فسرّ زقل بهذا الرأي واراد سلاطين ان يجعله برأي اهل الحامية ليقيدهم به فعقد مجلساً من الضباط والأعيان وعرضه عليهم فصدقوه وكتبوا كتاباً الى المهدي يعدونه بالتسليم وكتاباً الى هكس يستعجلونه لنجدتهم فحمل زقل الكتابين وذهب بهما الى المهدي في الابيض . فلما رأى سطوة المهدي والعزّة الذي صار اليه في كردوفان نبذ سرّ سلاطين ظهرياً واتحد مع المهدي قلباً وقالباً وأرسل سرّاً الى احد اصدقائه في داره يخبره بما رأى من سطوة المهدي ويقول له قم واحضر بعائلتي الى الابيض مستعيناً بمادبو فلما علم سلاطين بذلك حبس عائلة زقل في منزلها واستصفى أمواله وألقى القبض على بعض اقاربه في داره وزجهم في السجن .

واقعة كرشو : ولترجع الآن الى مادبو فانه بعد دخول سلاطين في داره نزل في كرشو على يوم ونصف يوم جنوبيها فخرج عليه سلاطين ببعض عساكره وباغتته الهجوم فهزمه وعاد الى داره بكثير من الأسلاب والغنائم .

واقعة البويرة : وعاد مادبو فجمع جموعه في مكان يقال له البويرة في دار قمر فجرد عليه سلاطين ٤٥٠ من الجهادية و ١٥٠ من البازنجر وقتك به وأوقع الفشل في جيشه ففرّ حافي القدم عاري الرأس على جواد بلا سرج وغنم سلاطين جميع أمتعته وفيها نحاسه فعظم على مادبو فقد نحاسه لأن ذلك عار عليه فجمع العربان من جديد وتقدم لناوأة سلاطين في داره واسترجاع نحاسه .

عقد الصلح: ولم يكن سلاطين يقوى عليه لقلته رجاله ولا كان من الممكن الخروج بجميع العساكر وترك داره بلا حامية فالتجأ الى الحيلة وجمع مشايخ العرب تحت شجرة خارج داره وعقد معهم صلحاً وكتب بمعرفتهم كتاباً الى المهدي يسأله ارسال رجل من قبله ليسلمه البلاد قائلاً انه لا يستطيع ان يسلمها الى العرب الذين حاربهم مخافة ان ينتقموا منه .

وفي هذه الاثناء جاء سلاطين ورقة صغيرة من علاء الدين باشا يقول فيها « ان سمو الخديوي قد سماك قومنداناً عاماً على العساكر في دارفور وان من عزم الحكومة ارسال قوة كبيرة لسحق المهدي في كردوفان وتسكين الثورة » فأرسل صورة منها الى الفاشر وكبكية فقرئت للناس جهاراً وأطلقت المدافع عند قراءتها. وكانت الحكومة قد أرسلت اليه مراراً بتسمية احد أمراء دارفور سلطاناً على البلاد وحشد عساكر الحاميات كلها في الفاشر والعودة بها الى الخرطوم ولكن هذه الرسالة لم تصله .

تسليم دارة في ٢٣ ديسمبر سنة ١٨٨٣ م :

ثم لم يكن إلا القليل حق كانت واقعة شيكان فاهتزت لها دارفور وأرسل المهدي محمد خالد زقل عاملاً عاماً على دارفور يجيش عظيم فجاءها بطريق أم شنقه وكان فيها حامية صغيرة فسلمت له . ثم سار منها قاصداً دارة فنزل في حلة شعيرية مسيرة يوم من دارة وكتب الى سلاطين يدعوه الى التسليم فحضر اليه مساماً وذلك في ٢٣ ديسمبر سنة ١٨٨٣ فأكرمه وذهب به الى دارة فسلمت اليه . وكان فيها ٥١٠ من العساكر النظامية والباشبوزق وشيء قليل من الذخيرة . وانتشر جيش زقل في المدينة يجمعون الغنائم فجرّوا أهل الحامية وعذبوا من أخفوا أموالهم او ظنوا انهم أخفوها وحمّلهم ما لا يطاق . وأخبرني من أثق به وذكره فوزي باشا في كتابه « ان سلاطين باشا لما رأى ما أتاه زقل من تعذيب المصريين طار صوابه وذهب اليه في دارة وقال له جهاراً : « لو علمت انكم تعاملون ضباطي هذه المعاملة لصليتم حرباً يشيب

لهولها الطفل وسمحت بموت هؤلاء الرجال في ساحة الحرب وأنا على يقين من ان الواحد منهم لا يموت الا بعد ان يقتل عشرة منكم » فأخذ زقل يلاطفه وأوصى بتخفيف العذاب عن البعض وأطلق البعض .

تسليم كبكبيّة : وكان زقل قد كتب من شعيرية الى السيد بك جمعة في الفاشر والى آدم عامر في كبكبية يدعوها الى التسليم وطلب من سلاطين ان ينصحها بذلك ففعل فأرسل آدم عامر مفاتيح الخزينّة والشونة والجبخانة علامة على التسليم ثم حضر مسلماً بمن معه من العساكر .

تسليم الفاشر في ١٤ يناير سنة ١٨٨٤ م :

وأما السيد بك جمعة فإنه رفض التسليم ودافع عن حاميته أياماً حتى اضطر الى التسليم عطشاً وقد رأته سنة ١٨٩٨ بعد واقعة أم درمان وسألته عن كيفية دفاعه وتسليمه الى زقل فقال : « لما ذهب سلاطين من الفاشر لتأديب مادبو عند أول ظهور الثورة بقيت أنا على الفاشر فقام رجل في كروي على ست ساعات منا يقال له « ابو ود جودة فات » البرناوي وجمع جموعه وأشهر العصيان فجرّدت عليه ونكلت به وفرقت جموعه . ولكن لم يكن إلا القليل حتى هبّ للثورة جلّ أهل الدار من حضر وبادية فاجتمعوا على الملك حسب الله ملك زغاوة والسلطان جدّوه سلطان ميمة والشيخ حسب الله من الماهرية وكوع النمر من الزيادية ونزلوا في وادي بيره على ساعتين جنوبي الفاشر يريدون حصرنا فخرجت عليهم بمعظم العساكر وضربتهم ضرباً شديداً وشتتّ شملهم ثم عادوا فتجمعوا على السلطان جدّوه وحصروا الفاشر من كل الجهات وأحرقوا المنازل المجاورة للاستحكام فصلبتهم ناراً حامية من المدافع والبنادق ورددتهم على أعقابهم خاسرين . ومن ذلك الحين لم يعد أحد يجسر على مهاجمتنا حتى حضر محمد خالد زقل وطلب منا التسليم فلم نرض به ولا صدقنا ما قاله لنا من تسليم سلاطين اليه وصممنا على الحرب وكتبنا الى عساكر كبكبية للانضمام اليها ولكن خرج منا عمر أغا ود ترحو من سناجق الشايقية

مسلماً ولم نكن نعلم بما كان من عساكر ككبكية فحفظنا ان عمر ترحو يجبر
زقل بما كتبناه اليهم فيقطع الطريق عليهم ويصدم عن الوصول الينا فكتبنا
الى زقل نخادعه بأننا مسلمون ثم حضر فقابلناه بالرفض واشتعل بيننا قتال
شديد دام ٤٨ ساعة أطلقنا فيها الف قنبلة عدا ما أطلقنا من الرصاص فهزمناه
الى وادي بيره حيث أقام ١٨ يوماً حتى أتاه المدد من دارة وكان عساكر
كبكية قد انضموا اليه فأعاد الكرة علينا وحصرنا في الاستحكام وكان
استحكاماً منيعاً وعندنا من الذرة ما ينيف على ٦ آلاف اردب ولكن أعوزنا
الماء وقد كنا في بادىء الامر نستقي الماء من آبار في الخور خارج الاستحكام
فلما حضر زقل لحصرنا هذه المرة سدّ الآبار فشرعنا في حفر بئر داخل
الاستحكام أوصلناها الى عمق ٦٠ قامة ولم نظفر بالماء لأن الاستحكام قائم على
تل رملي فعطشنا ودام القتال ثمانية ايام متوالية حتى صار العساكر يموتون
عطشاً فعقدت اذ ذاك مجلساً من ضباط الحامية للنظر في رأي يكون فيه
نجاتنا فلم نرَ بدءاً من التسليم فكتبنا بذلك كتاباً الى زقل يوم الاحد في ١٤
ربيع الاول سنة ١٣٠١ هـ ١٣ يناير سنة ١٨٨٤ م .

وفي اليوم التالي الاثنين فتحنا الابواب وكان في الحامية اذ ذاك ٥٠٠ رجل
من الجهادية و ١٠٠ من الطوبجية على ١٢ مدفعاً فوق ستة أبراج ونحو ٦٠
رجلاً من الملكية فدخل الدراويش علينا وصادرونا في أموالنا وأمتعنا وقد
استنطقوا جميع الضباط والسناجق والأعيان ليدلوهم على أموالهم ومن أنكر
عذبه حتى اعترف او مات فضربوا الصاغ حمادة افندي من ضباط الطوبجية
حتى فاضت روحه . وقبضوا على سعيد أغا الفولي و ابراهيم أغا برل ولمالم
يعترفوا بأموالها شرعوا في ضربها بالسياط فطلبنا مهلة ريثما يذهبان ويحضران
المال فذهب كل منها الى منزله وانتحر .

ووزع زقل العساكر على العربان وأرسل سلاطين باشا الى المهدي في كردوفان
فأدركه في الرهد فبايعه فسماه عبد القادر سلاطين وأمره بلزوم باب التعايشي
والاثار بأمره ثم ارسل بعده السيد بك جمعة فأدركه في الطريق غازياً الخرطوم .

تسليم دود بنقة الى زقل : هذا وكان السلطان دود بنقة لا يزال مقيماً
بأتباعه في جبل مرّة فكتب اليه زقل يدعوه الى التسليم فأبى فجرد عليه
سرية بقيادة آدم عامر مدير ككبكية سابقاً وذلك في أواخر يونيو سنة ١٨٨٤م
فدعاه الى التسليم فأجابته : « اني قاومت الحكومة المصرية التي هي أشد بأساً
من الدراويش وأعظم قوة منذ موت السلطان هارون الى اليوم ولم يكن زقل
اذ ذاك إلا عبداً في سلطنة آبائي فدع عنك النصح وما يحكم بيننا إلا السيف »
وكان دود بنقة متحصناً في طابية منيعة في رأس جبل طره فهاجمه آدم عامر
فصدّه عنه بعد ان أذهب نصف قوته فكتب آدم الى زقل في طلب المدد
فاستدعاه الى الفاشر وأرسل مكانه عمر أغا ود ترحو الشايقي المتقدم الذكر
بجيش كبير وكان عمر اغا متزوجاً باحدى بنات السلطان ابراهيم فكتب الى
دود بنقة ناصحاً إياه بالتسليم فطلب مقابلته فأتاه وأقنعه بوجود التسليم فقال
له دود بنقه سر أمامي بعساكرك وأنا أتبعك فسار عمر أغا وتبعه دود بنقه
برجاله الى الفاشر فسلم الى زقل فأرسله الى المهدي في الخرطوم وذلك في سبتمبر
سنة ١٨٨٤ م .

وبقي زقل في دارفور لا ينازعه فيها منازع الى ان مات المهدي واستدعاه
الخليفة عبد الله الى أم درمان وأذله وكان من أمره ما سنذكره بالتفصيل .

الفصل العاشر

في

وقائع الثورة في بحر الغزال

سنة ٢ - ١٨٨٤ م

تركنا بحر الغزال سنة ١٨٧٩ م ولبتن بك من البحارة الانكليزية مدير عام عليها وساتي بك مدير ومحمود المحلاوي مفتش عام لمنع تجارة الرقيق والبلاد كلها مقسومة الى ثمانية اقسام على كل قسم ناظر ومعه نفر من الباشبوزق وفي مركز المديرية اورطتان من الجهادية . وقد قادت التقادير محمود المحلاوي المذكور الى مصر بعد حين فقص عليّ خبر الثورة في بحر الغزال وكيفية سقوطها في يد الدراويش قال ما ملخصه :

ثورة الجانقية : « لما بلغ مشايخ الجانقية والجور خبر المهدي ونصرته على رجال الحكومة في أبا وقدير هاجروا اليه وبايعوه فأمرهم بالعودة الى بلادهم وقال لهم « اذهبوا واخرجوا الترك من بلادكم فان الله ناصركم ومتى أخرجتموهم فلتكن بلادكم لكم لا ينازعكم فيها منازع » وكان هذا جلّ ما يتمناه السود أي الحرية والاستقلال لأنهم لم يتخلصوا من « البحارة » قبل عهد الحكومة

حتى وقعوا في الجباة الباشبوزق في عهدنا فعادوا الى بلادهم وجمعوا جموعهم وجاهروا بالعصيان . وكان اول من جاهر به الجانقية في جوار بحر العرب في اوائل سنة ١٨٨٢ م فجرد عليهم لبتن بك سرية من العساكر المنظمة والباشبوزق بقيادة محمد افندي النصري معاون المديرية فأوقع فيهم واقعتين خذل في الاولى وانتصر في الثانية .

ثورة الشيخ يانكو : ثم لما ظهر مادبو بالثورة في بلاد شكا قام الشيخ يانكو شيخ مركز تل قونه وهو من مشايخ الداخو فنزل على بعض العساكر الذين كانوا مقيمين بمركزه وقتلهم في ١٧ اوغستوس سنة ١٨٨٢ م وفر الى الشيخ مادبو فحضر معه واقعة أم وريقات المار ذكرها ثم عاد الى تل قونه ومعه جماعة من فرسان الرزيقات وجاهر بالعصيان . قال المحلاوي فعقد لي لبتن على ١٧٠٠ رجل من نظامية وباشبوزق وأمرني بمحاربته فأوقعت فيه واقعة شديدة وهزمته شر هزيمة وذلك في ٢١ يناير سنة ١٨٨٣ م . ثم جمع جموعه ونزل على مركز لفي فصدته ناظرها بخسارة جسيمة في ١٠ فبراير من السنة المذكورة ففر الى دارفور وانضم ثانية على مادبو .

عود الى الجانقي : وفي هذه الأثناء حضر وابور من الخرطوم الى مشرع الربك لاستطلاع خبر بحر الغزال فجهز لبتن بك ٤٠٠ عبد أمرد ومقداراً وافراً من سن الفيل وأرسلها مع بعض الخفراء الى الوابور في المشرع المذكور ليأخذها الى الخرطوم فلما درى بهم الجانقي قطعوا عليهم الطريق فقتلوا الخفراء وأخذوا ما كان معهم من الاسلحة والرقيق والسن وذلك في ١٣ فبراير وكان ساتي بك المدير اذ ذاك في جور غطاس فلما سمع بخبرهم جرد عليهم فقتل منهم وسبى وغنم وعاد الى الجور ثم اجتمع الجور على الجانقي ونازلوا لبتن وعساكره في عدة وقائع كان النصر في أكثرها للعساكر .

مكيدة الدناقلة : وكان في بحر الغزال عدد كبير من الدناقلة متفرقين في جميع جهاتها تجاراً ومتسببين وموظفين وبينهم الفقيه عبد الرحمن بن عوف

حتى وقعوا في الجباة الباشبوزق في عهدنا فعادوا الى بلادهم وجمعوا جموعهم وجاهروا بالعصيان . وكان اول من جاهر به الجانقية في جوار بحر العرب في اوائل سنة ١٨٨٢ م فجرد عليهم لبتن بك سرية من العساكر المنظمة والباشبوزق بقيادة محمد افندي النصري معاون المديرية فأوقع فيهم واقعتين مُخذل في الاولى وانتصر في الثانية .

ثورة الشيخ يانكو : ثم لما ظهر مادبو بالثورة في بلاد شكا قام الشيخ يانكو شيخ مركز تل قونه وهو من مشايخ الداخو فنزل على بعض العساكر الذين كانوا مقيمين بمركزه وقتلهم في ١٧ اوغسطس سنة ١٨٨٢ م وفر الى الشيخ مادبو فحضر معه واقعة أم وريقات المار ذكرها ثم عاد الى تل قونه ومعه جماعة من فرسان الرزيقات وجاهر بالعصيان . قال المحلاوي فعقد لي لبتن على ١٧٠٠ رجل من نظامية وباشبوزق وأمرني بحاربه فأوقعت فيه واقعة شديدة وهزمته شر هزيمة وذلك في ٢١ يناير سنة ١٨٨٣ م . ثم جمع جموعه ونزل على مركز لفي فصدته ناظرها بخسارة جسيمة في ١٠ فبراير من السنة المذكورة ففر الى دارفور وانضم ثانية على مادبو .

عود الى الجانقي : وفي هذه الأثناء حضر ابوز من الخرطوم الى مشرع الزريك لاستطلاع خبر بحر الغزال فجهز لبتن بك ٤٠٠ عبد أمرد ومقداراً وافراً من سن الفيل وأرسلها مع بعض الخفراء الى الواوز في المشرع المذكور ليأخذها الى الخرطوم فلما درى بهم الجانقي قطعوا عليهم الطريق فقتلوا الخفراء وأخذوا ما كان معهم من الاسلحة والرقيق والسن وذلك في ١٣ فبراير وكان ساتي بك المدير اذ ذاك في جور غطاس فلما سمع بخبرهم جرد عليهم فقتل منهم وسبى وغنم وعاد الى الجور ثم اجتمع الجور على الجانقي ونازلوا لبتن وعساكره في عدة وقائع كان النصر في أكثرها للعساكر .

مكبدة الدناقلة : وكان في بحر الغزال عدد كبير من الدناقلة متفرقين في جميع جهاتها تجاراً ومنتسبين وموظفين وبينهم الفقيه عبد الرحمن بن عوف

بك في حاجة كبيرة الى الذخائر والكبسول فاستدعى ساتي بك من جور غطاس وأرسله الى الخرطوم لاحضار الذخائر والكبسول فأقلع بالوابور في ٧ سبتمبر سنة ١٨٨٣ فدخل الخرطوم في ٢٤ يناير سنة ١٨٨٤ فوجدها محصورة فلم يعد يمكنه الرجوع الى بحر الغزال فبقى يجاهد في الحصار الى ان قتل في واقعة القطينة كما سيجيء .

امين بك وخط الاستواء : وكان روح الثورة قد امتد الى خط الاستواء ولم يكن امين بك محتسباً لها فبعث الى لبتن في طلب مدد من الذخائر والكبسول فأرسلني اليه بشيء منها واعتذر له فلقمته في اورمبك فسلمته الذخيرة وعدت منه بجواب الى لبتن .

واقعة بحر بيرى : وفي أوائل يناير سنة ١٨٨٤ م هاج الجانقي من جديد فتجمعوا على بحر بيرى فجرد عليهم لبتن بك جيشاً مؤلفاً من ٨٠٠ من العساكر المنظمة و ١٠٠٠ من الباشبوزق و ٨٠٠ من البازنجر جمعه من جهات مختلفة وأتى بحر بيرى فرأى الجانقي قد جمعوا جيشاً لا يقل عن ٥٠ ألفاً فزرب على جيشه زريبة متينة من اغصان الشجر ثم أحاطها بزريبة أخرى . قال المحلاوي : فلم يتم لبتن بناء الزريبة حتى أقبل الجانقي علينا مهاجمين وكان الدراويش قد علموهم ان يكرروا عند الهجوم قولهم « الدايم الله الدايم هو » فكانوا يكررونه كلهم بصوت واحد جهوري حتى حسبنا الارض قد زلزلت زلزالها ولما قربوا من الزريبة انتشروا حولها فأحاطوها إحاطة الهائلة بالقمر وقد سدوا الأفق وأظلموا الجو لكثرتهم وسواد لونهم وكننا في الزريبة وهم من حولنا مهاجمين لنا والرماح تلمع فوق رؤوسهم كأننا في جزيرة صغيرة تلاطمها الامواج في وسط بحر عجاج . فلما قربوا جداً من الزريبة هجموا هجمة واحدة مستقتلين فتلقتهم العساكر بنيران البنادق الرمنتون وابي روحين فحصدتهم حصداً فلم يبالوا بها بل كانوا كلما سقط منهم صف خلفه آخر حتى تمكن بعضهم من الوصول الى الزريبة الخارجية وما زالوا مهاجمين والعساكر